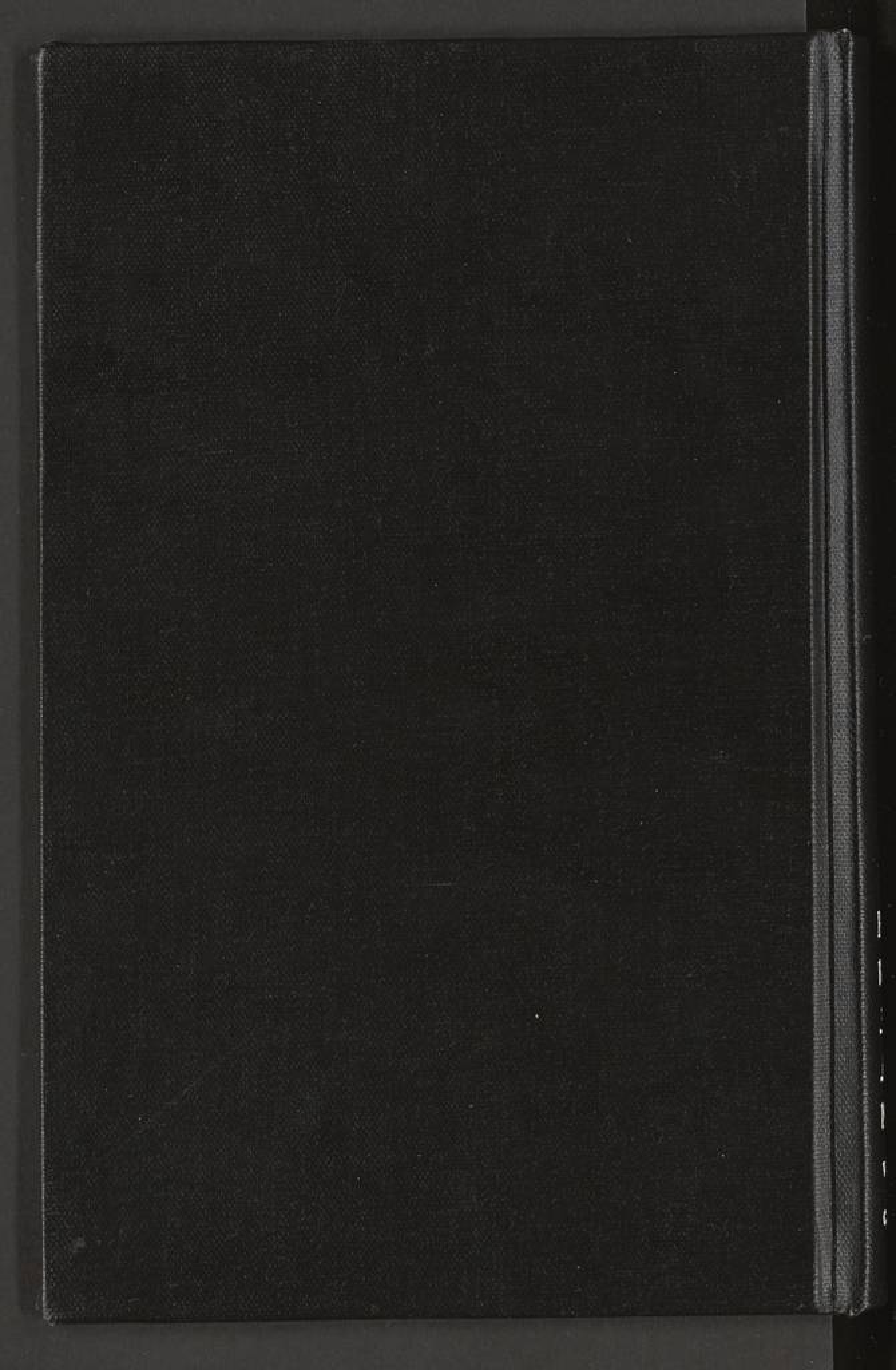
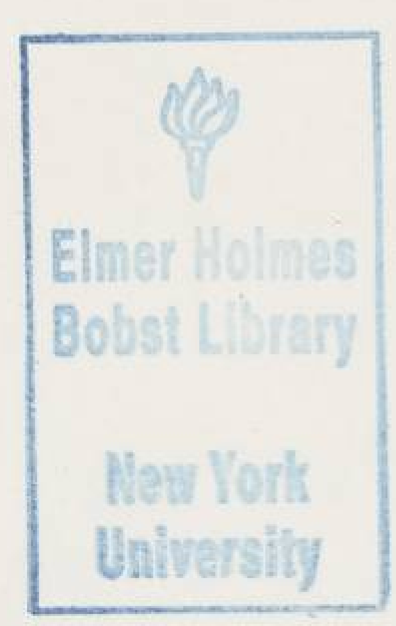



BOBST LIBRARY
3 1142 01734 4501




New York University
Bobst, Circulation Department
70 Washington Square South
New York, NY 10012-1091

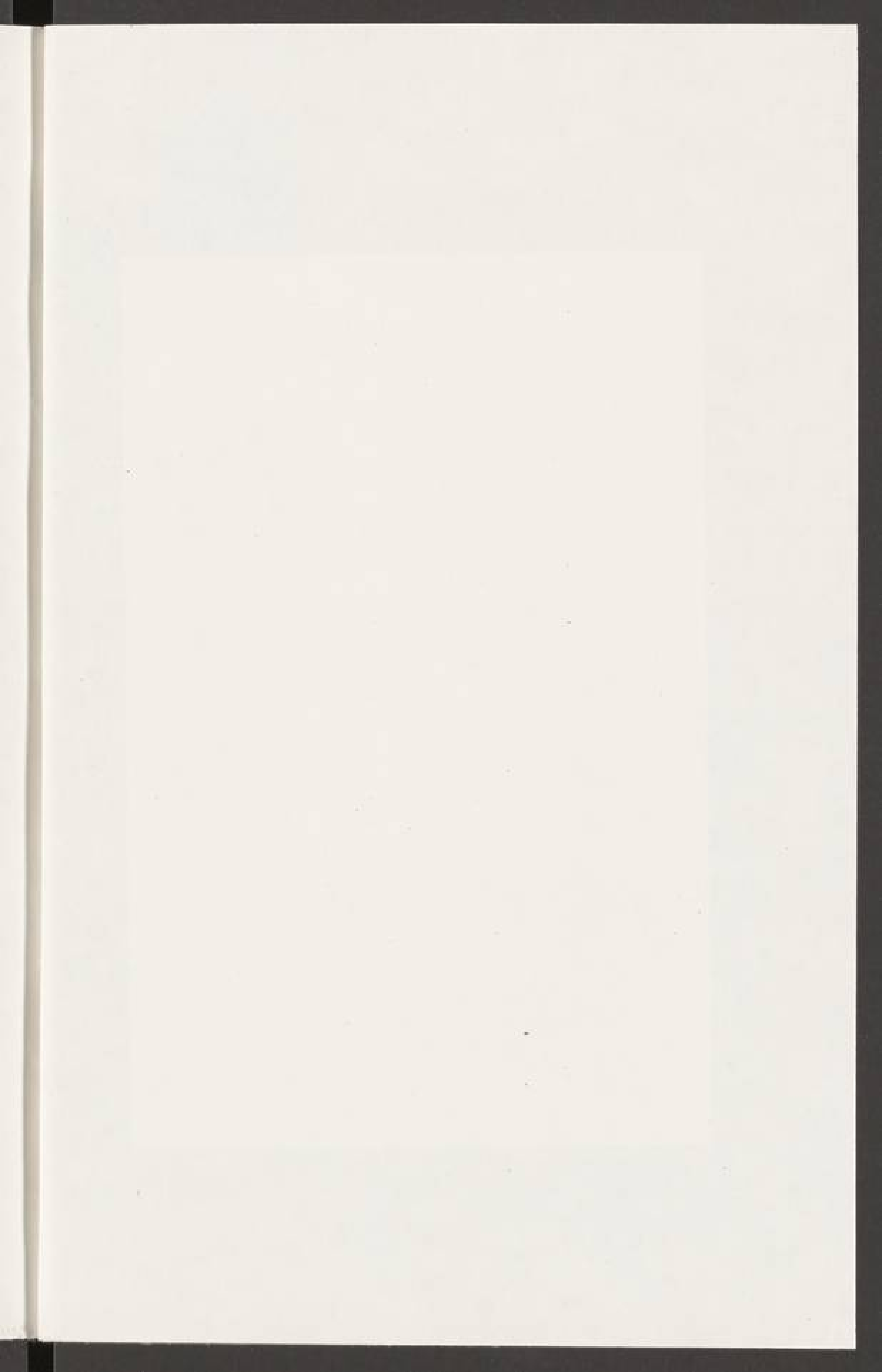
Web Renewals:
http://library.nyu.edu
Circulation policies
http://library.nyu.edu/about

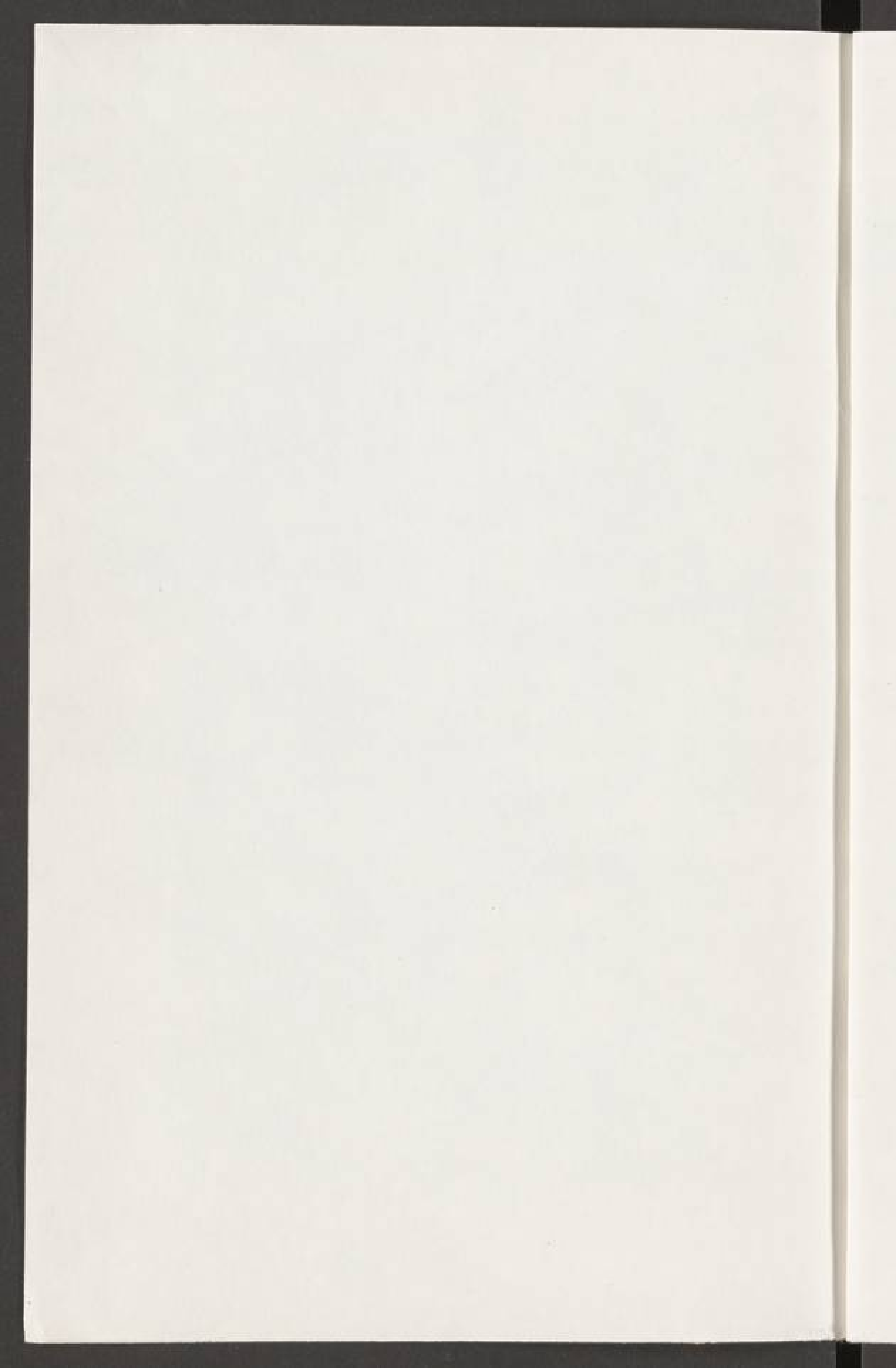
THIS ITEM IS SUBJECT TO RECALL AT ANY TIME

RETURNED
MAR 2 3 2009
BOBST LIBRARY

DUE DATE

NOTE NEW DUE DATE WHEN RENEWING BOOKS ONLINE







Aḥmad, Yūsuf
(al-Maḥmal wa-al-ḥajj)

هدية الى جناب المحترم المؤرخ المدقق
والعالم الآثارى مسيو جاستون فييت
رئيس دار الآثار العربية من المؤلف
تذكارا للعلم واعترافا بالفضل

٢٩/١/١٩٣٨

المحمل والحج

الجزء الأول

تأليف



مفتش الآثار العربيـــة سابقاً
ومدرس الخط الكوفى بكلية الآداب بالجامعة المصرية
وبمدرسة تحسين الخطوط الملكية

حقوق الطبع والترجمة محفوظة للمؤلف

١٣٥٦ هـ — ١٩٣٧ م

مطـبعة حجازى بالقاهرة

BP
187
.3
.A33
1937
v.1
c.1

NYU BOBST-PRESERVATION
L-3609 FE-3 94

01734 4501



فاروق الأول ملك مصر عز نصره

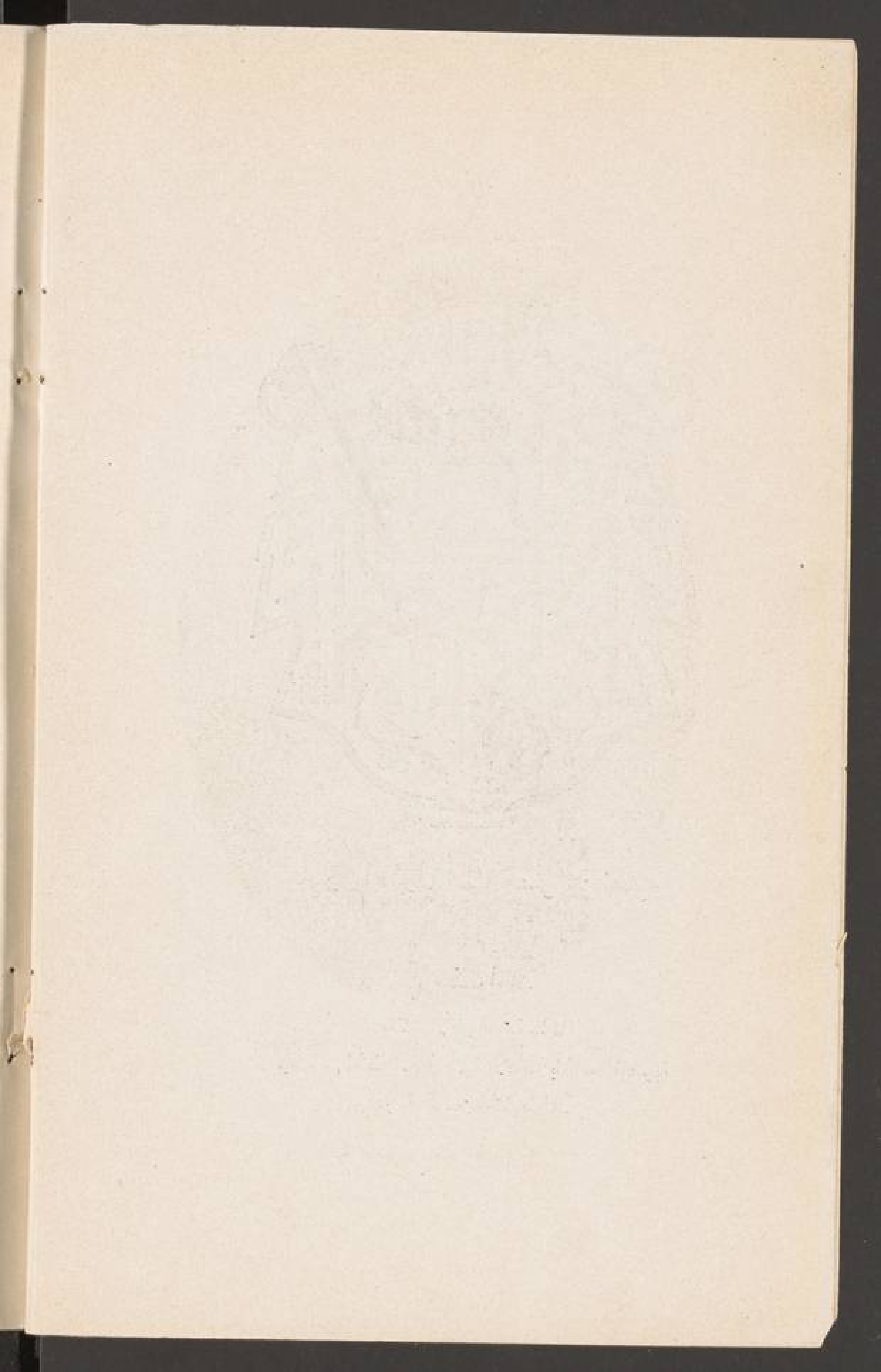
بقلم

يوسف احمد

مفتش الآثار العربية سابقا

ومدرس الخط الكوفى بكلية الآداب بالجامعة المصرية

وبمدرسة تحسين الخطوط الملكية

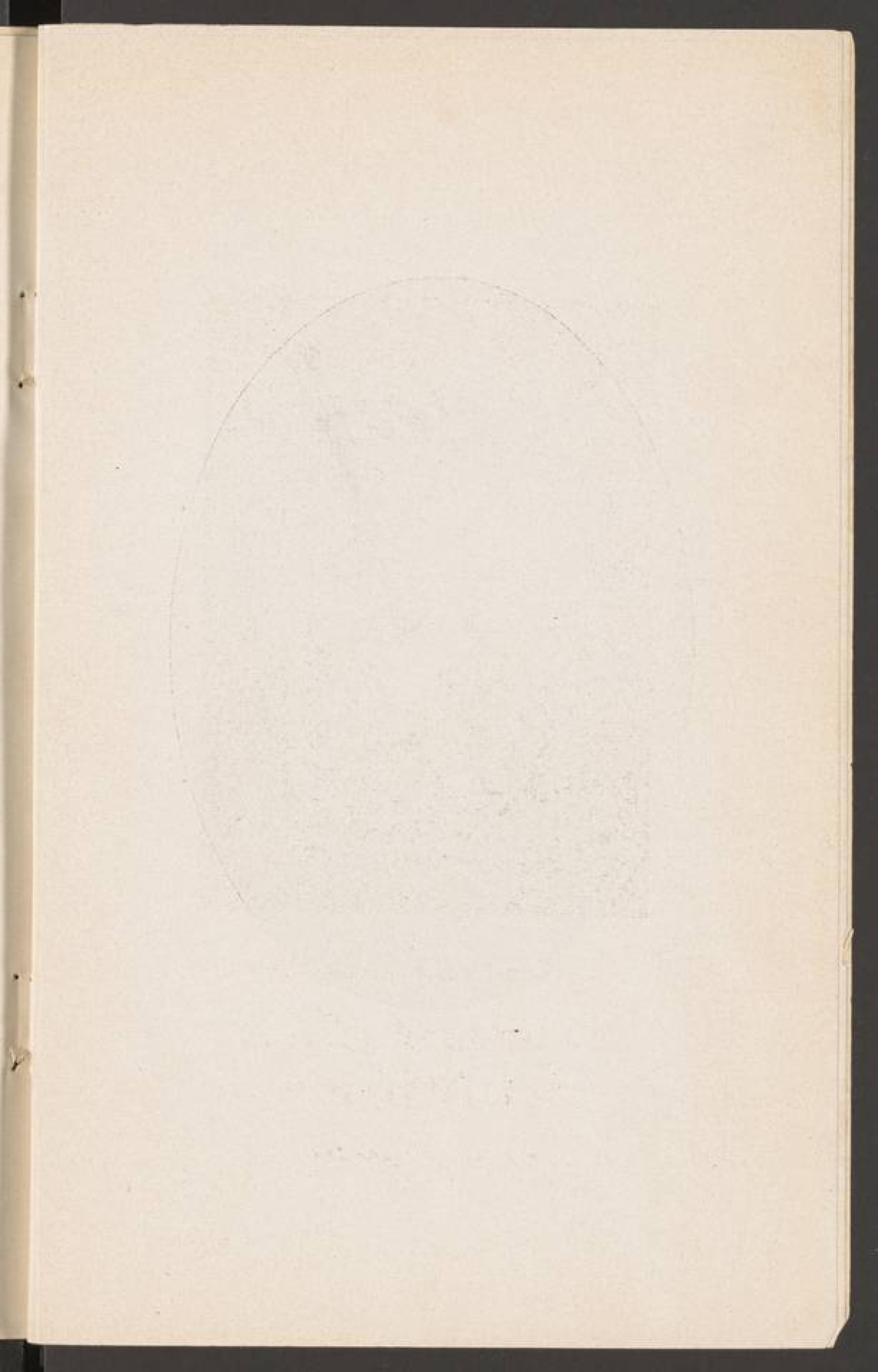


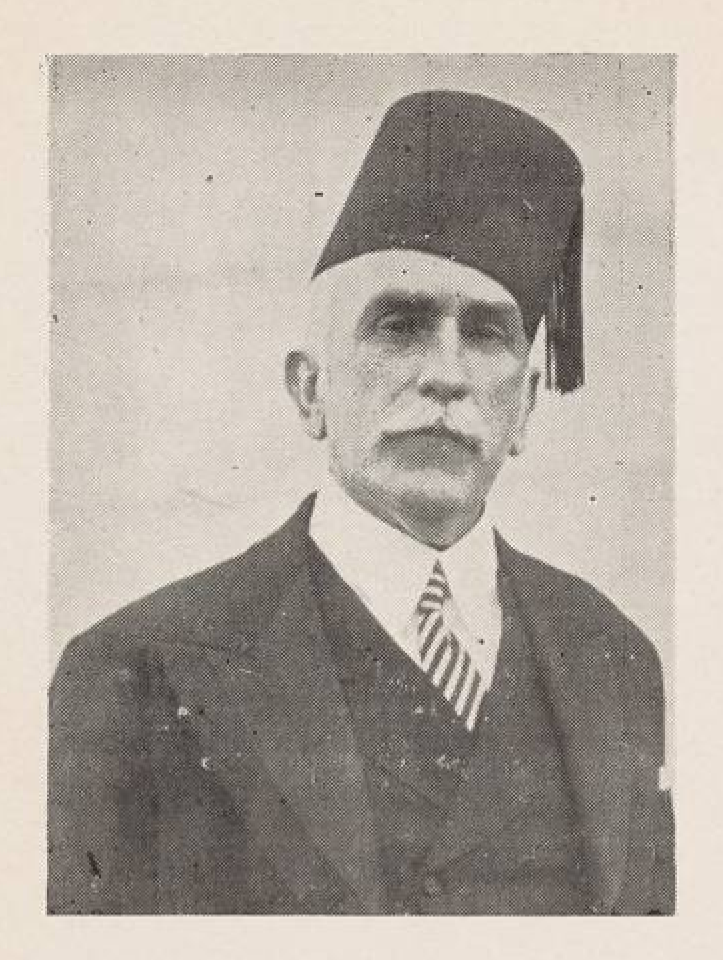


حضرة صاحب الجلالة الملك الصالح المعظم

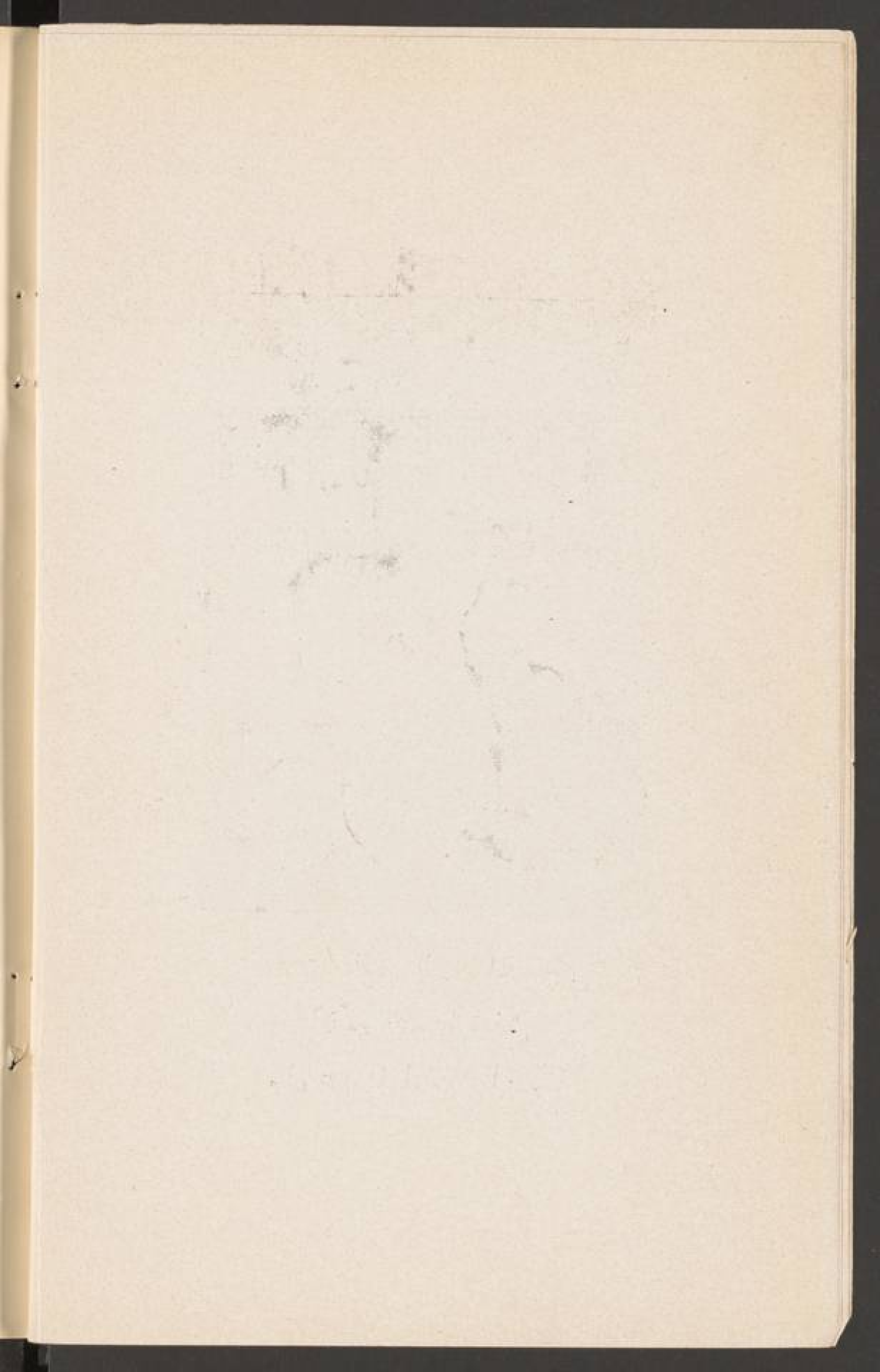
«فاروق الأول»

ملك مصر . عز الله نصره

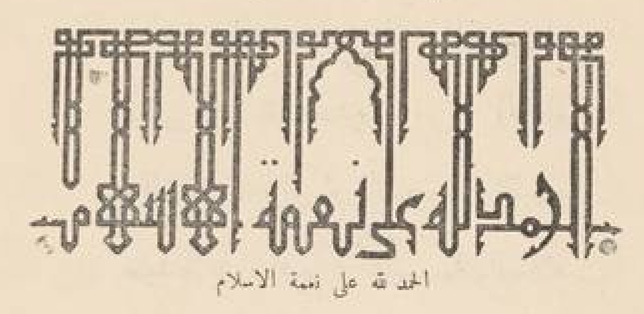




حضرة صاحب السمو الملكى
الأمير محمد على توفيق
ولى عهد المملكة المصرية



بسم الله الرحمن الرحيم



الحمد لله على نعمة الاسلام

الحمد لله الذى هدانا لهـذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

والصلاة والسلام على نبينـا الكريم ، سيدنا محمد بن عبدالله .

وعلى الآل والصحب ، ومن استجاب له ومن والاه .

الى رافع قواعد البيت الحرام
صاحب المصلى فيه والمقام
مطهره للقاصدين من الأنام
والطائفين والركع السجود والقيام
سيدنا « إبراهيم » عليه السلام

والى رافع لواء الدين
ونبيّ الاسلام والمسلمين
وأشرف الخلق أجمعين
وخاتم الأنبياء والمرسلين
سيدنا « محمد » الصادق الأمين
صلوات الله عليه فى العالمين

أتقدم بهذا الكتاب

فى الحج

قرآن كريم

« وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرٰهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرٰهِيمَ وَإِسْمٰعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ »

« وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرٰهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ »

« فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ »

« إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا ، وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ، فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرٰهِيمَ ، وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ، وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا . وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ »

« جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ ، وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ »

« وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرٰهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ . وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا

وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ . لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ، ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ »

***

أحاديث شريفة

« بنى الاسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا »

« يأيها الناس فرض عليكم الحج فحجوا »

« أفضل الجهاد حج مبرور »

« الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة »

« الحاج والغازى وفد الله عزوجل ، إن دعوه أجابهم ، وإن استغفروه غفر لهم »

« تابعوا بين الحج والعمرة ، فانهما ينفيان الفقر والذنوب ، كما ينفى الكير خبث الحديد »

« الحجاج ، والعمار ، وفد الله ، يعطيهم ما سألوه ، ويستجيب لهم ما دعوا ، ويخلف عليهم ما أنفقوا ، الدرهم ألف ألف »

« اللهم اغفر للحاج ولمن استغفر له الحاج »

« من مات فى أحد الحرمين ، بعث من الآمنين يوم القيامة . ومن زارنى محتسباً الى المدينة كان فى جوارى يوم القيامة »

« من حج فلم يرفث ، ولم يفسق ، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه »

« يقول الله عز وجل : إن عبداً صححت له جسمه ، ووسعت عليه المعيشة ، تمضى عليه خمسة أعوام لا يفد إلى لمحروم »

« من لم تحبسه حاجة ظاهرة ، أو مرض حابس ، أو سلطان جائر ، ولم يحج ، فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً »

« من ملك زاداً وراحلة تبلغه الى بيت الله ، ولم يحج ، فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً »

تصدير :

هذا كتاب كنت فكرت فى وضعه منذ سنين ، فجمعت له مذكراتى ، وبوبته وفصلته . وكنت أود أن أجد الأرض الصالحة لبذرته ، حتى تنبت نامية مورقة ، وتثمر ما أرجو لها أن تثمر . ولكن الله تعالى شاء أن أصدّ عن رغبتى ، وأن يتأخر عن موعده . حيث انقطع المحمل عن السفر إلى الحج ، وقام بين الحكومتين « السعودية » و « المصرية » خلاف على أمور وشئون ، مدة من الزمن طويلة .

وكأنما أراد الله بذلك التأخير خيراً . حتى يصدر كتابى فى هذا العهد السعيد ، عهد النهضة والاستقلال والوفاق . نهضة الاسلام ، والأمم العربية ، فى بلاد الشرق . واستقلال مصر ، بعد التوفيق فى المعاهدة المصرية الانكليزية . والوفاق الذى تم بين المملكتين ، «السعودية» و «المصرية» فى اتفاق التفاهم على الأمور التى كانت معلقة بينهما ، بشأن سفر المحمل والكسوة وأوقاف الحرمين . بل حتى يصدر فى عهد جلالة مليكنا المحبوب الملك « فاروق الأول » الذى جمع عهده المبارك بشائر الخير والرفاهية لمصر فى جميع الشئون ، والذى كان ارتقاؤه إلى عرش مصر فألا سعيداً لها ، فى اتحاد كلمة زعمائها ، وفوزها بالاستقلال .

والآن . وأنا أقدم كتابى هذا إلى الأمة المصرية الكريمة ، وإلى إخوانى المسلمين فى جميع الأقطار الاسلامية ، والممالك والبلاد الشرقية . أودّ أن يفوز منهم بحسن القبول . وأن أكون قد أديت به واجباً ، فى عنق المسلمين ،

نحو الكعبة المكرمة ، والحرم الشريف . واعترافا بالفضل لرسول الله الكريم ، ونبينا الامين ، وشفيعنا يوم الدين ، سيدنا « محمد » صلوات الله وسلامه عليه .

والله أسأل أن يوفقنى إلى نيل الشرف الاعظم ، بأداء فريضة الحج ، وأن يطيل فترة الحياة الباقية ، حتى أنعم بزيارة قبر الرسول الامين ، وأفوز بالخير فى جوار البيت العظيم .

عليه توكلت ، وهو نعم المعين ؟

المؤلف

يوسف احمد

(الاحد أول المحرم سنة ١٣٥٦)

مقدمة

ليس من شك فى أن حسن تفاهم المملكة السعودية فى هذا العام الهجرى وشرف غاياتها عند الأمم الاسلامية طراً ، وتوقيعها الاتفاق مع المملكة المصرية على المسائل الهامة التى كانت بينهما ، وقيام المحمل المصرى هذا العام إلى الأراضى الحجازية ، بعد انقطاعه عنها نحو ١٠ سنوات ، وعناية جلالة الملك « ابن السعود » بأمر الحجاج من مختلف الأقطار على السواء ، وسهره على توطيد الأمن فى بلاد الحجاز ، وحرصه على النظام ، والادارة ، ليس من شك فى أن كل هذا كان له أثره فى موسم الحج هذا العام .

فان الدلائل متوفرة على أن هذا الموسم كان عظيما ، شاملا ، وفير التعداد وقد بلغ الاقبال على الحج فى هـذا الموسم حداً لم يبلغه فى سنة من السنين السابقة

والفضل فى ذلك كله لجلالة الملك الاسلامى العظيم « عبد العزيز آل سعود » الذى برهن على عظمته حقاً فى أثناء ملكه الميمون ، وفى حكمه للأراضى الحجازية بالكياسة والحكمة ، وضبطه للامور هناك حتى استتب كل أمر وصلح كل شأن .

فاذ عم البلاد الأمان ، وأمن الحجاج على أرواحهم وأموالهم ، تدفقوا من كل حدب وصوب ، عازمين مطمئنين . بعد أن كان الحج من الامور المخيفة ، والمجازفات الخطرة ، لعدم ضمان الامن فى الطريق ، ولوعورة السبيل ، حتى كان يعده المسلمون مخاطرة بالنفس .

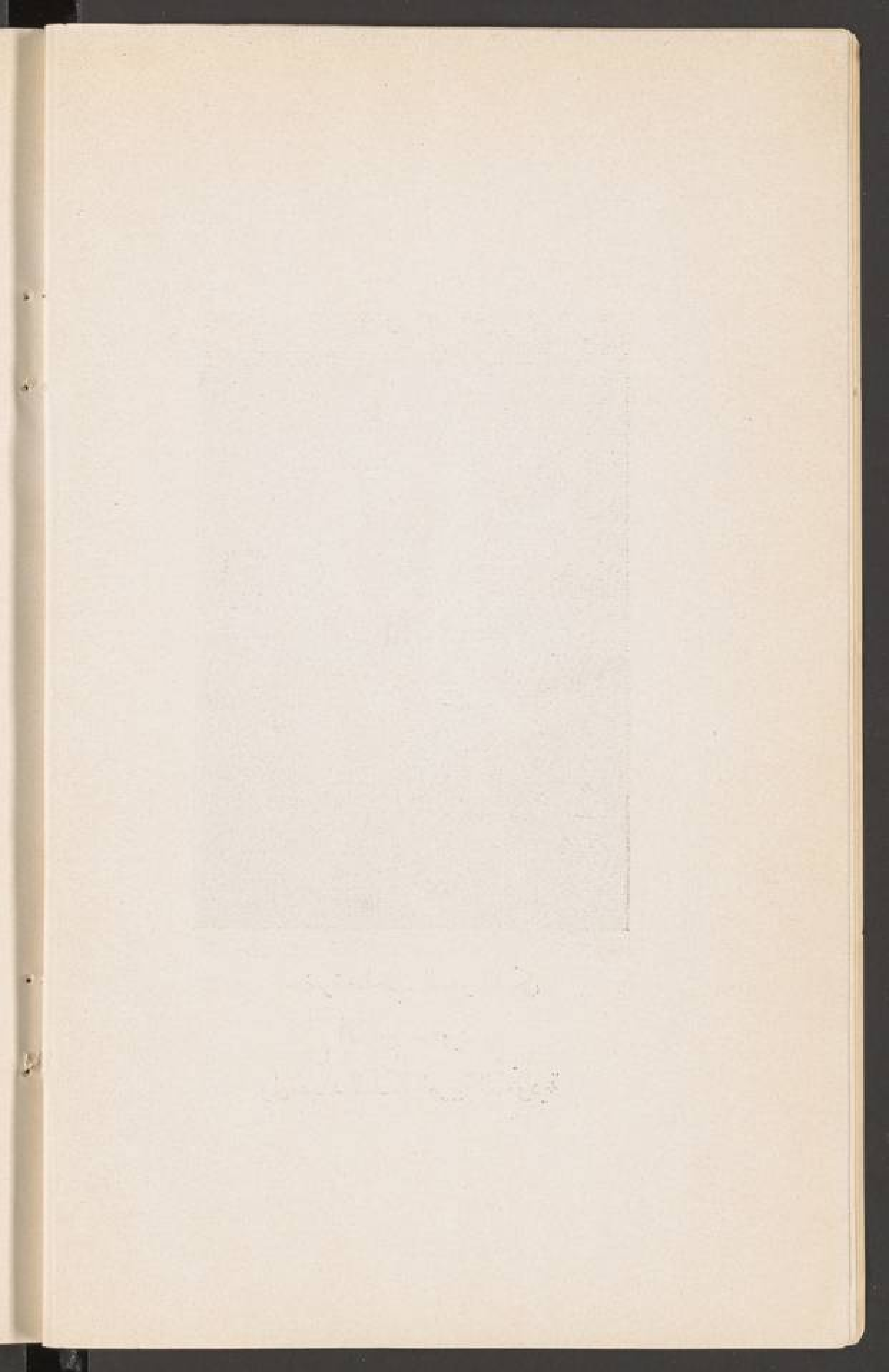
وقد قرأنا فى الأخبار التى ترد إلينا من الحجاز ، أن الارض المقدسة



حضرة صاحب الجلالة الملك

عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود

ملك المملكة العربية السعودية

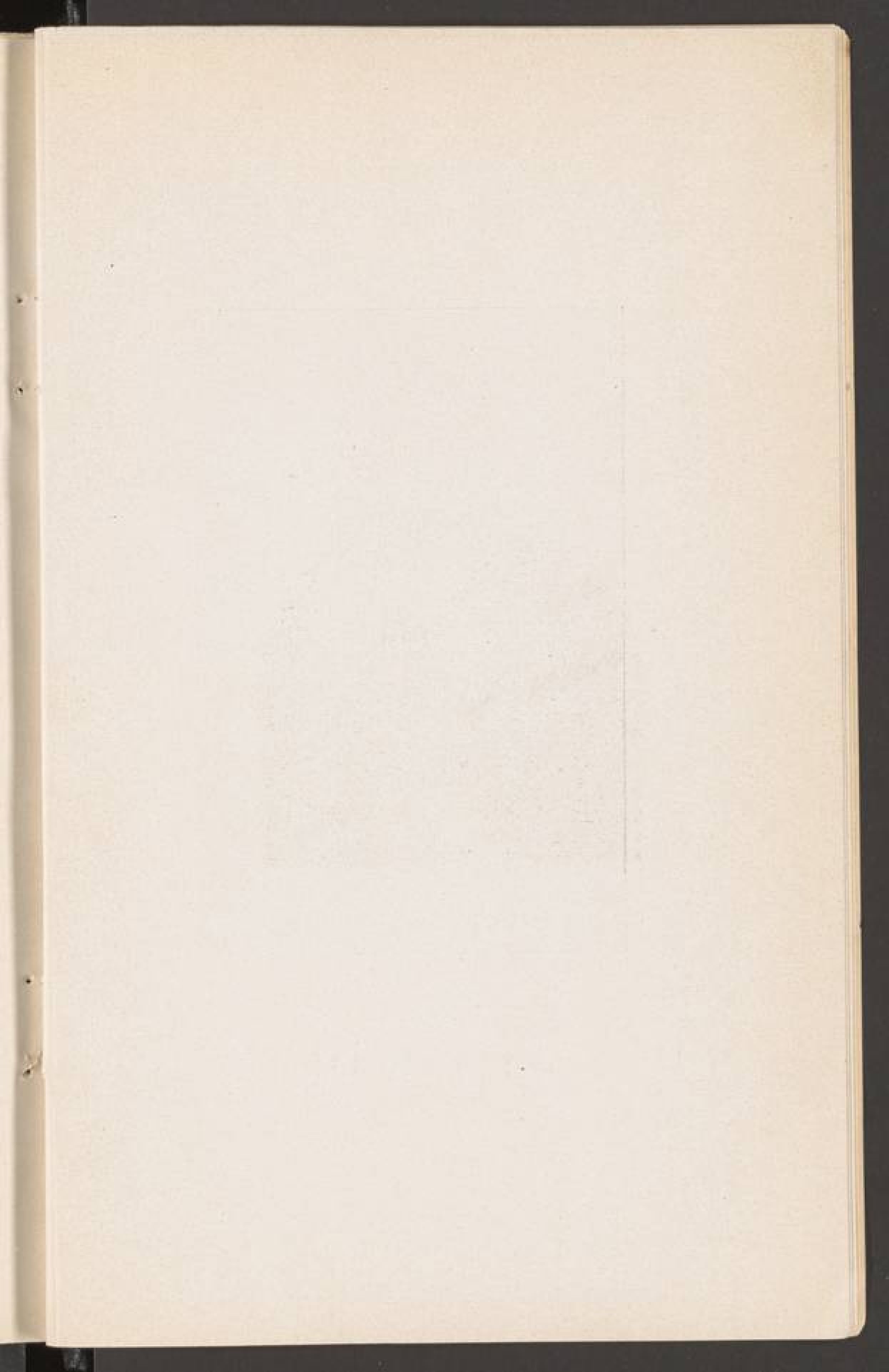




حضرة صاحب السمو الملكي

الأمير فيصل آل سعود

النائب العام لجلالة الملك المعظم

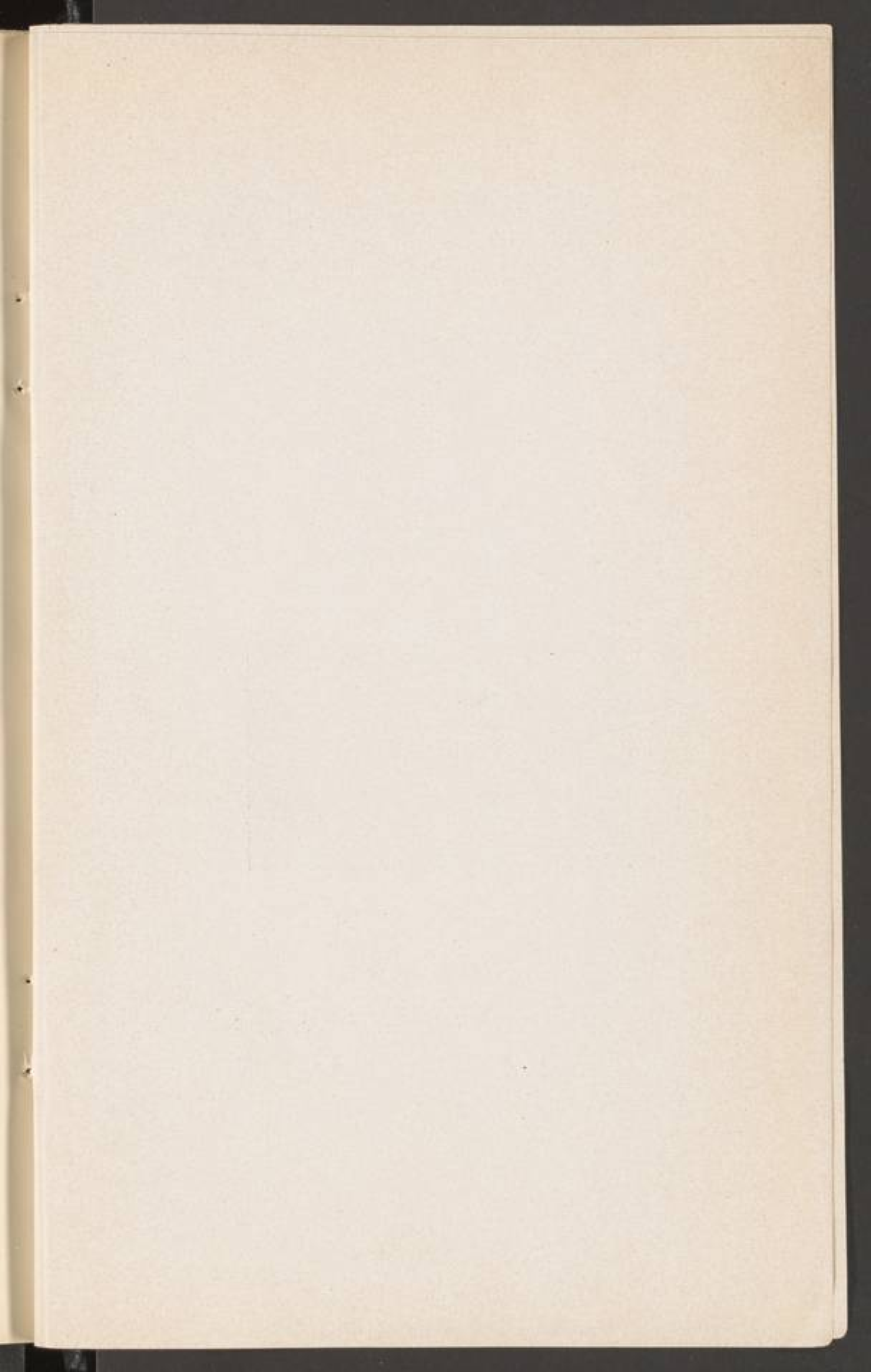




حضرة صاحب السعادة

فؤاد حمزة بك

وكيل وزارة خارجية المملكة السعودية الحجازية



كانت تزخر بالقاصدين فى حج هـــذا العام ، بما لم يسبق له مثيل . وأن المسلمين يفدون من جميع البلاد الاسلامية على السواء من كل أنحاء المعمورة ، ليتموا الفرض الخامس من فرائض الدين ، الذى يتم بأدائه إسلام المسلمين. وقد أخذت الوفود إلى مكة تقبل من أقصى الأرض وأدناها ، ألوفاً ألوفاً . حتى أن حجاج الهند وحدهم يبلغون نحو نصف حجاج العام الماضى جميعاً . وهم يقومون من بلادهم ، كما يقوم حجاج الهنـــد الشرقية ، وأفغانستان ، وبلوخستان ، والتركستان ، وجاوه ، عقب عيد الفطر ، حتى يتمكنوا من إدراك الموسم والاشتراك فيه .

ولا ريب أن هذه الحال المباركة فى هذا الموسم تعود على الحجاز بالخير العميم . حيث تفرج ضائقة الحجازيين ، ويتبدل عسرهم يسراً ، بما يصرف الحجاج فى بلادهم من مال ، وما يبذلون من هبات . وموسم الحج فى الحجاز حركة تعاونية كبيرة ، وتجارة واسعة النطاق . يزيدها خيراً ما يتصدق به كل حاج ، وتتصدق به الهيئات قبل الأفراد ، من مال موقوف على الحرمين ، أو موهوب للمحتاجين .

ولقد زاد فى بهجة هذا الموسم قيام المحمل المصرى بالكسوة الشريفة ، التى خلعت على الكعبة المعظمة ، بعد أن انقطعت عنها زهاء عشرة أعوام منذ سنة ١٣٤٤ ﻫ (سنة ١٩٢٦ م) ، وسفر البعثة المصرية حاملة إلى الحجاز الصدقات ، التى اعتادت حكومة مصر صرفها لفقراء الحجاز ، وغلة أوقاف الحرمين الشريفين . كما زاد فى إقبال الناس على الحج ما يلحظ على الممالك الاسلامية فى هذه الأيام من حسن التفاهم ، والتعاون على تأسيس الوحدة العربية ، والمؤازرة فى كلمة الله .

وقد حضر إلى مصر حضرة الأستاذ الجليل صاحب السعادة « فؤاد بك حمزه » وكيل وزارة الخارجية الحجازية ، مندوباً من قبل حضرة صاحب الجلالة الملك « ابن السعود » ، ليفاوض الحكومة المصرية فى الأمور والشئون ، التى كانت داعية فى الماضى إلى الخلاف بين الحكومتين ، وإلى منع إرسال المحمل والصدقات وريع الأوقاف .

فأدى مهمته الشاقة على خير ما يؤديه حكيم أمين . حيث وفق إلى عقد اتفاق بين حكومته ، والحكومة المصرية ، زالت به السحب التى كانت قد خيمت وقتاً ما فى سماء العلاقات التى كانت بين الأمتين الصديقتين .

واجتمع ممثل الحكومة الحجازية ، وبرفقته حضرة صاحب السعادة « السيد فوزان السابق » القائم بأعمال مفوضية الحجاز ، بحضرة صاحب المقام الرفيع « مصطفى النحاس باشا » رئيس الوزارة المصرية ، وحضرة صاحب المعالى وزير الخارجية ، وصاحب السعادة « عبد الحميد بدوى باشا » مستشار الحكومة ، وحضرة صاحب الفضيلة الشيخ « محمد البنا » مدير ادارة الشئون الدينية . وتناول الجميع بحث المسائل المعلقة ، والمشاكل المترتبة عليها ، حتى انتهوا إلى وضع شروط الاتفاق ، الذى وقعه رفعة رئيس الوزارة المصرية عن وزير خارجيتها . وسعادة وكيل وزارة خارجية الحجاز ، ممثلا حكومة جلالة الملك « ابن السعود » . وسافر سعادة ممثل الحجاز إلى جدة ، عقب التفاهم على الاتفاق ، ليعرض النتيجة على حضرة صاحب الجلالة ملك الحجاز .

وتمت النية على أن يذاع الاتفاق على الناس فى المملكتين (السعودية) و (المصرية) فى وقت واحد ، كان صبيحة يوم الجمعة السادس من شهر رمضان سنة ١٣٥٥ (٢٠ نوفمبر سنة ١٩٣٦) .

وبذلك افتتح بين الحكومتين ، والأمتين ، عهد جديد سعيد .

والاتفاق يشتمل على مسائل أربع . موضوعة فى شكل مذكرات ، عددها سبع . ثلاث منها مزدوجة — أى مذكرة من جانب الحكومة المصرية ، والجواب عليها من جانب الحكومة السعودية ، وواحدة صادرة من الجانب الحجازى وحده . وقد طبع من الاتفاق عدد كبير من النسخ ، باللغتين العربية والفرنسية ، وزع على الصحفيين بمصر ، وعلى جريدة (أم القرى) بالحجاز . وأذيع الاتفاق فى التاريخ الذى أشرنا إليه فى وقت واحد ، هنا وهناك .

الاتفاق بين مصر والحجاز

نصوص الوثائق الرسمية

الكسوة والمحمل

حضرة صاحب السعادة « فؤاد حمزه بك » ، وكيل وزارة خارجية المملكة العربية السعودية .

من أكبر دواعى السرور لدى أن أبلغ سعادتكم ، أن حكومة حضرة صاحب الجلالة ، ملك مصر ، تعتزم استئناف إرسال الكسوة الخاصة بالكعبة المشرفة ، منذ الموسم القادم . وسيقوم المحمل المرافق لهذه الكسوة من القاهرة ، فى الوقت الذى كان معتاداً أن يقوم فيه . وعند وصولهما إلى جدة ، يستقر المحمل فيها ، وتوجه الكسوة إلى مكة ، حيث توضع على الكعبة المشرفة بالاحتفال اللائق بكرامة المكان ، ومقام الجالس على عرش الحجاز .

وسيطرز على الكسوة إشارة إلى أنها « أهديت إلى الكعبة المشرفة فى عهد حضرة صاحب الجلالة الملك (عبد العزيز آل سعود) ملك المملكة العربية السعودية »

وتفضلوا سعادتكم بقبول فائق الاحترام

رئيس مجلس الوزراء
مصطفى النحاس

حضرة صاحب الدولة « مصطفى النحاس باشا » ، رئيس مجلس الوزراء بالمملكة المصرية ،

أتشرف بأن أبلغ دولتكم ، أن حكومة حضرة صاحب الجلالة ، ملك المملكة العربية السعودية ، أحاطت علماً بعزم حكومة حضرة صاحب الجلالة ، ملك مصر ، استئناف إرسال الكسوة الخاصة بالكعبة المشرفة ، منذ الموسم القادم . وأن الكسوة سيطرز عليها إشارة إلى أنها « أهديت إلى الكعبة المشرفة فى عهد حضرة صاحب الجلالة الملك (عبد العزيز آل سعود) ملك المملكة العربية السعودية »

ويسرنى أن أعرب لدولتكم عن شكر حكومة حضرة صاحب الجلالة ملك مصر ، على جميل نياتها نحو الأراضى المقدسة ، وعن موافقتها على نزول المحمل بجدة ، واستقراره فيها .

وستقابل البعثة المكلفة بنقل الكسوة بأكبر الحفاوة فى جدة ، كما أن الكسوة ستستقبل فى مكة المكرمة أكرم استقبال . وتوضع فى مقرها بالاحتفال اللائق بمقام صاحب الهدية .

وتفضلوا دولتكم بقبول فائق الاحترام ؟

وكيل وزارة خارجية المملكة السعودية

فؤاد حمزه

حضرة صاحب السعادة «فؤاد حمزه بك» ، وكيل وزارة خارجية المملكة العربية السعودية .

يسرنى أن أبلغ سعادتكم أن حكومة حضرة صاحب الجلالة ، ملك مصر ، تعتزم اتخاذ التدابير اللازمة لاعادة صرف الصدقات لفقراء الحجاز ، ولاستئناف صرف فاضل غلة أوقاف الحرمين الشريفين فى الأراضى المقدسة . وذلك ابتداء من موسم الحج القادم .

وستعين الحكومة المصرية من يتولى الاشراف على صرف الصدقات التى ترسلها .

وهى تعتزم أن تنفق ، من الأموال التى كانت تخصصها للصدقات ، ومن فاضل غلة الأوقاف المذكورة ، فى حدود القواعد الشرعية ، لعمارة الحرمين الشريفين ، ولاصلاح المرافق المتعلقة بهما .

وستبلغ الحكومة المصرية إلى الحكومة السعودية ما تضعه من البرامج ، لأعمال العمارة والاصلاح ، فى حينه ، تمهيداً لاتفاق الحكومتين على التصميمات الخاصة بتلك الأعمال .

وتفضلوا سعادتكم بقبول فائق الاحترام ؟

رئيس مجلس الوزراء
مصطفى النحاس

حضرة صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا، رئيس مجلس الوزراء بالمملكة المصرية .

تلقت الحكومة السعودية مع السرور تبليغ دولتكم ، الذى تذكرون فيه أن حكومة حضرة صاحب الجلالة ملك مصر تعتزم اتخاذ التدابير اللازمة ، لأعادة صرف الصدقات لفقراء الحجاز ، ولاستئناف صرف فاضل غلة أوقاف الحرمين الشريفين ، فى الأراضى المقدسة . وذلك ابتداء من موسم الحج القادم . وأنها تعتزم أن تنفق من الأموال التى كانت تخصصها للصدقات ، ومن فاضل غلة الأوقاف المذكورة ، فى حدود القواعد الشرعية ، لعمارة الحرمين الشريفين ، وإصلاح المرافق المتصلة بهما .

وأن حكومة حضرة صاحب الجلالة ملك المملكة العربية السعودية لترحب خالص الترحيب ، بتنفيذ مشروعات العمارة والأصلاح ، التى تنوى الحكومة المصرية القيام بها . ويسرها أن تبلغ دولتكم أن صرف الصدقات سيجرى باشراف من تعينه الحكومة المصرية لهذا الغرض .

وتفضلوا دولتكم بقبول فائق الاحترام

وكيل وزارة خارجية المملكة العربية السعودية

(فؤاد حمزه)

جنسية المصريين ، والسعوديين

حضرة صاحب السعادة فؤاد حمزه بك ، وكيل وزارة خارجية المملكة العربية السعودية .

أتشرف بأن أثبت فيما يلى القواعد التى اتفق عليها فى شأن جنسية المصريين ، الذين كانوا مقيمين بأراضى المملكة العربية السعودية ، فى وقت صدور نظام

التابعية الحجازية ، وجنسية العرب السعوديين ، الذين كانوا مقيمين بأراضى المملكة المصرية ، فى وقت صدور قانون الجنسية المصرية .

يمنح لكل من الفريقين المتقدم ذكرهما مهلة قدرها ستة أشهر ، لاختيار الجنسية المصرية أو العربية السعودية . ويجرى الاتفاق على الكشوف النهائية المتضمنة أسماء المصريين فى المملكة العربية السعودية ، والعرب السعوديين فى المملكة المصرية ، فى خلال الثلاثة الأشهر التالية للمهلة المشار اليها .

وان يترتب على اختيار أحد المقيمين فى بلد لجنسية البلد الآخر أى مساس بحقه ، فى البقاء أو الاستقرار فى أراضى البلد الآخر ، منذ صدور قانون الجنسية الخاصة الذى يقيم فيه .

وغنى عن البيان أن المصريين أو العرب السعوديين ، الذين هبطوا أراضى البلد الآخر منذ صدور قانون الجنسية الخاصة به باقون على جنسيتهم الأصلية .

وتفضلوا سعادتكم بقبول فائق الاحترام ؟ رئيس مجلس الوزراء

(مصطفى النحاس)

حضرة صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا ، رئيس مجلس الوزراء بالمملكة المصرية .

تلقيت كتاب دولتكم ، الخاص بالقواعد التى اتفق عليها فى جنسية المصريين الذين كانوا مقيمين بأراضى المملكة العربية السعودية ، فى وقت صدور نظام التابعية الحجازية ، وجنسية العرب السعوديين الذين كانوا مقيمين بأراضى المملكة المصرية ، فى وقت صدور قانون الجنسية المصرية .

وأتشرف بالاعراب عن الموافقة عليها وهى كما يأتى :

يمنح لكل من الفريقين ، المتقدم ذكرهما ، مهلة قدرها ستة أشهر ،

لاختيار الجنسية المصرية أو العربية السعودية . ويجرى الاتفاق على الكشوف النهائية المتضمنة أسماء المصريين ، فى المملكة العربية السعودية ، والعرب السعوديين ، فى المملكة المصرية ، فى خلال الثلاثة الأشهر التالية للمهلة المشار اليها .

ولن يترتب على اختيار أحد المقيمين فى بلد لجنسية البلد الآخر أى مساس بحقه ، فى البقاء أو الاستقرار ، فى أراضى البلد الذى يقيم فيه .

وغنى عن البيان أن المصريين ، أو العرب السعوديين ، الذين هبطوا أراضى البلد الآخر ، منذ صدور قانون الجنسية الخاصة به ، باقون على جنسيتهم الأصلية .

وتفضلوا دولتكم بقبول فائق الاحترام ؟

وكيل وزارة خارجية
المملكة العربية السعودية
(فؤاد حمزه)

الحجاج والرسوم والعوائد

حضرة صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا ، رئيس مجلس الوزراء بالمملكة المصرية .

بمناسبة ما أعربتم عنه دولتكم من رغبة الحكومة المصرية فى الوقوف ، قبل دخول موسم الحج ، على مقدار الرسوم والعوائد والتكاليف ، التى تقرر على الحجاج فى كل عام ، أتشرف بأن أحيط دولتكم علماً بأن السلطات المختصة ، فى حكومة المملكة العربية السعودية ، تضع تعريفة مفصلة العوائد والرسوم والتكاليف المقررة ، وتعلنها قبل موسم الحج من كل عام .

ويسر حكومة جلالة الملك أن تبلغها إلى الحكومة المصرية ، عقب صدورها ، لكى تعلنها فى الوقت المناسب على الراغبين فى الحج من رعاياها .
وتفضلوا دولتكم بقبول فائق الاحترام ؟

وكيل وزاة خارجية
المملكة العربية السعودية

(فؤاد حمزه)

القاهرة فى ٤ رمضان سنة ١٣٥٥ « ١٨ نوفمبر سنة ١٩٣٦ »

ملحق للاتفاق

وتضمن الاتفاق الذى عقد بين حكومتى مصر والحجاز ملحقاً ، بشأن المسائل التى جرت عنها المفاوضات الأخيرة بين الحكومتين .

وتتلخص نصوص الملحق فيما يلى :

عند وصول الباخرة التى تقل الكسوة الشريفة والمحمل ، الى ميناء جدة ، يستقبلان استقبالا رسمياً من حكومة الحجاز ، ويحيان بالتحية العسكرية ، ويستبق المحمل فى جدة ، فى مكان لائق يتفق مع كرامة البعثة وموفديها ، حتى ينتهى موسم الحج .

أما الكسوة فسيكون استقبالها عند الوصول إلى باب الحرم الشريف استقبالا رسمياً ، ويجرى تسليمها إلى رجال الحكومة الحجازية رسمياً ، ويقدم أمـــير الحج الى وكيل وزارة الخارجية الحجازية بياناً بكشوف الأوقاف المستحقة للحجاز ، وأوجه انفاقها ، وأسماء المفوضين المصريين ، الذين تكلفهم الحكومة المصرية توزيعها ، ويزور أمير الحج المصرى ، فى أثناء إقامته فى الحجاز ، صاحب الجلالة ملكها ، ويقدم إليه كتاباً من صاحب الجلالة ملك مصر ، ويحمل رد جلالته عليه .

كلمة مصر :

بين مصر والحكومة العربية السعودية

اتفاق الحكومتين يعود بأعظم الخير على البلدين

أخيراً تم الاتفاق بين الحكومتين « السعودية » و « المصرية » وسيراجع الفريقان المشروع ، فيسدل الستار على خلاف طويل ، وفتور ظلا عشر سنين ، أو حوالى ذلك ، وقد خسرت الحجاز ، وخسرت مصر ، بهذا الجفاء العقيم ، الذى لم يكن له من داع فى الحقيقة ، فالا تكونا خسرتا فما نعرفهما ربحتا شيئاً به . وكل اتفاق بين دولتين يكون عبارة عن تسوية إذا لم يكن ثم غالب ومغلوب ، ومنصور ومهزوم ، ولاشىء من هذا فيما بين الدولة السعودية ومصر ، وإنما كان الخلاف على أمور تركت معلقة على أثر حادثة المحمل الشهيرة ، وقد استغلها البعض واتخذ منها تكأة لابطال عادة المحمل ، ووقف إرسال الكسوة ، وحبس أموال الأوقاف عن الجهات التى شرط الواقفون صرفها لها . وظلت النبوة هذه السنوات الطويلات كلها . فالآن يزول كل هذا ، ويعود الأمر إلى ماينبغى أن يكون عليه بين دولتين اسلاميتين ، شقيقتين ، وجارتين كريمتين ، متحابتين .

وليس من وراء هذا الاتفاق ربح مادى لاحدى الحكومتين ، كما توهم بعض الكتاب عندنا مع الأسف ، فان أموال الأوقاف لاتستولى عليها الحكومة السعودية ، أو تختص نفسها بشىء منها ، لأن الجهات التى تنفق

فيها هذه الأموال معينة فى شروط الواقفين . فالمستحقون فى هذه الأموال ممن ذكرت صفاتهم فى الوقفيات مثل المطوفين ، والسدنة ، والمؤذنين فى الحرمين ، الخ ، يأخذون نصيبهم ، والأعمال المنصوص على إجرائها ، والقيام بها يذهب فيها الباقى ، وكل مصلحة الحكومة السعودية أن صرف هذه الأموال فيه تخفيف عن فريق من رعاياها ، ورفع لكلفة بعض الأعمال الخيرية عنها .

ولكن الربح الأدبى جزيل ، إذا كانت الفائدة المادية معدومة .

ولا يخفى أن الحج يجتمع فيه مئات من كل الأمم الاسلامية ، ولا نظن أن هناك دعاية أعظم وأوفى لمصر ، من أن توضع كسوة مصر على الكعبة الشريفة . ويظل لمصر هذا الشرف الرفيع على مدار العام ، سنة بعد سنة ، إلى آخر الزمن .

على أن هناك ربحا أدبيا آخر ، كان متعذرا فى سنوات الخلاف والجفاء ، وذلك أن الحكومة السعودية قد تحتاج إلى معلمين ، أو مهندسين ، أو أطباء ، أو اخصائيين ، فى علوم أو فنون أخرى ، وقد استخدمت فى الماضى فريقاً من المصريين . ولكنها لم تأخذهم — كما يمكن أن تأخذهم الآن — عن طريق الحكومة المصرية . ولذلك لم ترض عن بعضهم ، فعدلت عن الاستعانة بمصر .

أما الآن ، فان فى وسعها ، بعد أن استقرت العلاقات بينها وبين مصر ، على حدود الود والتعاون ، وزال كل خلاف ، أن ترسل بعثاتها التعليمية إلى مدارس مصر ، وأن تستعين بحكومة مصر ، على انتقاء من تحتاج إليهم من الرجال الوافرى العلم ، والحسنى السيرة ، والمشهود لهم بالكفاءة

والمقدرة والاخلاص، فى الاضطلاع بالواجبات، وحمل الأمانات، كما فعلت وتفعل حكومة العراق.

وليس فى هذا ربح مادى، فان الحكومة المصرية تدفع إعانة لمن تندبهم للعمل فى بلاد أخرى، ولكن فيه ربحا أدبياً جزيلا، كما هو واضح. وهو بعد ذلك مظهر من مظاهر التعاون بين الدولتين تعاوناً نرجو أن يتوج، فى المستقبل القريب، بالدخول فى الحلف الدفاعى، الذى عقد بين الدولة العربية السعودية والعراق، والتى ستنضم اليه على التحقيق، سوريا بعد أن توضع معاهداتها مع فرنسا موضع التنفيذ، فتصبح بذلك الأمم العربية صفا واحداً متضامناً فى الدفاع عن مصالحه، وحقوقه، واستقلاله، إذا هم بالعدوان عليه أحد.

ولا يسعنا إلا أن نحمد لصاحب الدولة « النحاس باشا » ما أبداه من الغيرة على توثيق روابط الصداقة، والاخاء بين مصر، والدولة العربية السعودية، وما أظهره من حسن الاستعداد، وصدق الرغبة، فى الوصول إلى اتفاق سريع، وجزى الله « فؤاد بك حمزة » خير الجزاء، فقد أعانت حكمته، وصدق سريرته، وشدة حرصه، على محو أسباب الخلاف، واحلال الصداقة، والتآزر، محل الجفاء والتنافر، على تحقيق آمال أمتين شقيقتين، كان يحز فى نفوس أبنائهما ما يرون من التنائى والتباعد لغير علة مفهومة، أو سبب معقول.

ولو كنا نملك أكثر من الحمد والشكر لجزيناه بأكثر منهما، ولكنه يستطيع أن يكون على يقين من أن المصريين سيحفظون له فى قلوبهم شكر هذا السعى، الذى وفق فيه بحمد الله. وما كان يستطيع الا أن ينجح، وهو

تحدوه ذلك الروح الواسع الذى ينم عليه قوله : « ليس منا فى هذه المحادثات من كان يعمل على انتزاع شىء من الآخر ، فان دولة النحاس باشا يرمى إلى ما فيه الخير للملكة العربية السعودية فكأنه سعودى يتحدث ، وكذلك أنا لا أريد من وراء المحادثات إلا ما يتفق مع مصلحة مصر ، فكأنى مصرى يتحدث . وبهذه الروح تجرى المباحثات بيننا »

وما دامت هذه هى روح الفريقين ، كيف كان يمكن أن ينتهى الأمر إلا بالاتفاق ؟

ولله الشكر والحمد .

(نقلا عن جريدة البلاغ الغراء فى ٤ رمضان سنة ١٣٥٥)

كلمة الحجاز

نحن ومصر

أسفرت المفاوضات الأخيرة بين حكومتنا ، وحكومة مصر ، عن الاتفاق التام والنجاح المنتظر لها من الجانبين ، اذ قد سويت المسائل المعلقة بين البلدين الشقيقين ، بصورة حققت لهما ما كانا يرتقبانه من أمد طويل .

فجاءت هذه النتيجة دليلا جديدا على مقدار وثوق الصلة ، والحرص على تقويتها ، باخلاص متبادل ، ونية خالصة ، لا تزال تظهر آثارهما لدى كل مناسبة جديدة ، وفى كل حين .

ويهمنا اليوم أن نسجل ذلك ، مشيدين بالجهود الكبيرة المبذولة فى سبيل التصفية ، وتمكين الروابط على أساس واضح بين قطرين شقيقين ، لا تفلح الأيام – مهما جهدت – فى التفرقة ، أو تكدير العلاقة بينهما .

كما يهمنا أن نستعرض أهم ما فى تلك المسائل على ضوء الواقع المنير ، مرددين صدى الشعب المغتبط بالنهاية الحسنة ، التى طالما منى النفس بالفوز بها ، إجابة لداعى الود المكين ، وتوكيداً لأسبابه القوية ، وأثرها فى القلوب . فكفلت الظروف الطيبة له تحقيق ذلك الآن ، بفضل جهود المخلصين لأمتهم وبلادهم .

ولعل أهم ما فى تلك النقاط التى كانت – من قبل – سببا مباشرا فى عدم التوافق ، وخلق الاختلاف الشكلى على مظاهرها العرضية : مسألة المحمل المرافق عادة لحمل الكسوة ، فهى عادة متبعة ، أصبحت بمرور الوقت الطويل ، ضرورة لابد من مراعاة اعتباراتها المعنوية ، وظروفها . .

وقد كان الاتفاق الأخير على حلها غاية فى التوفيق ، وسداد الرأى ، حيث تقرر أن يكون المقر النهائى للمحمل ذاته مدينة جدة ، ومن هناك يحتفل باستقبال الكسوة ، ووضعها على الكعبة ، بما يليق . وهو حل لاريب فى أنه أرضى وجهتى النظر على خير مايمكن أن يكون .

وكذلك كان الحال فى خصوص صرف الصدقات المقررة ، تحت إشراف من تنتدبه الحكومة المصرية للقيام بتوزيعها ، واعتزام انفاق فاضل غلة الأوقاف على عمارة الحرمين الشريفين ، وإصلاح المرافق المتصلة بهما ، بالنظر إلى مراعاة وجوب ارجاع الحقوق الشرعية الى أصحابها ، على الطريقة الخاصة المزمع فعلها ، والى ضرورة ملاحظة أمر الاصلاح اللازم .

وان من المسر حقا، أن يتعاون الطرفان على تسهيل أمر هذه النقطة الدقيقة وفضها، بطريقة تتجلى فيها الرغبة الخالصة من كليهما، في الحرص على تنجيز سداد هذه الأمانة الموقفة، واستمرار أدائها المطرد بشكل ثابت. وأن يضاف إلى تلك الطريقة نفع ديني، وعمراني عظيم، لا شك في أن العناية بتقدير قيمته كفيلة بضمان فائدته الكبرى، الجديرة بالتقديس، والرعاية، من كل مسلم صادق العقيدة والنظرة . . .

أما قانون الجنسية الوارد في الاتفاق فقد كان في روحه صورة ناطقة على مبلغ تعلق هاتين الأمتين ببعضهما، وبرهانا ساطعا على مقدار التسامح المبذول. ليكون الاتفاق مبنيا على قاعدة المساواة الأخوية العادلة، وتمكين الولاء بحكم هذه الاجراءات الكفيلة بخلقه في النفوس وتثبيته فيها.

وليس لنا إزاء كل ذلك، إلا الاعجاب بنزاهة غاية القائمين بهذا الاتفاق، وحرارة إخلاصهم المتجلية في جزئياته، والا الاشادة بكفاآتهم الشخصية، ومقدرتهم الفائقة على تسوية الأمور، بما أرضى جانب الحق، والمساواة والاخاء.

وإنا لنهنئ الشعبين العزيزين بهذا التوفيق الجديد ونتيجته المرجوة المثمرة ونتمنى لهما حياة سعيدة، نرجو دوامها لكل قطر عربي نبيل ؟

(نقلا عن جريدة صوت الحجاز)

(في ١٠ رمضان سنة ١٣٥٥ و ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٣٦)

اهتمام الحكومة الحجازية

براحة الحجاج

اذاعت المملكة العربية السعودية بيانا مطولا عن الحج فى هذا العام ، وما اتخذته الحكومة الحجازية من التدابير ، والاحتياطات الادارية ، والصحية ، والاقتصادية ، الكفيلة براحة قصاد البيت الحرام .

وقد رأت الحكومة العربية ، لاستمرار الأزمة العالمية ، أن تعفى الحجاج فى هذه السنة من ربع الرسوم المقررة للمطوفين ، وأجور البيت ، والسيارات ، والجمال وغيرها ، كما كان فى العام الماضى .

كما أنها ضاعفت اهتمامها بالعناية بأمور الحجاج ، وترقية أحوالهم ، والترفيه عنهم ، فى كل زمان ومكان . ووكلت إلى « شعب وهيئات رسمية » السهر على راحتهم وأمنهم ، وتفقد أحوالهم ، حتى فى مساكنهم الخاصة ، منعا لأسباب الشكوى .

وجعلت لكل حاج الحق فى الرجوع إلى هذه الهيئات ، فى كل صغيرة وكبيرة ، كما أن له أن يتصل بالجهات الحكومية الأخرى ، كالحكام الاداريين ، أو دوائر الشرطة ، أو النيابة العامة .

وأفاضت النشرة فى بيان الترتيبات المنوعة لراحة الحجاج ، وأمنهم ، واطمئنانهم ، سواء من وجهة الانتقال بالسيارات أو الاقامة فى مكة المكرمة ، أو المدينة المنورة ، الى الترتيبات الصحية المتخذة فى كل مكان ، إلى الارشادات والنصائح المتعلقة بالحج ومناسكه ، والطواف ، واستلام الحجر ، وطلعة عرفات ، الخ

عوائد الحجاج

حديث مع وكيل المالية السعودية

بقلم مكاتب البلاغ بمكة المكرمة

سأل مكاتب البلاغ وكيل المالية السعودية، حضرة صاحب السعادة «فؤاد حمزه بك»، عن التعديلات التى أدخلت على عوائد الحجاج السنوية، فأجاب سعادته بما يأتى:

إن مالية الحكومة السعودية مرتبطة كل الارتباط بما يرد سنوياً عليها، بسبب الحجاج الكرام، ولذلك فهى تهتم بهم كل الاهتمام، وترى من واجبها الأول أن تريح هؤلاء المجاهدين، وأن تيسر لهم جميع مايطلبون، وهى لاتألو جهداً فى طلب حبهم بعمل كل مايعود عليهم بالسرور والحبور، ولذلك فانها لم تغير شيئاً منها، بل أبقت الأجور على ما كانت عليه فى العام الماضى، وهى أجور كما تراها مناسبة ومتدرجة، ليستطيع الفقير، ومتوسط الحال، والغنى أن يركب مايريد مع راحة الجميع.

— هل تتفضلون بذكر المساعدات التى أمرتم بها لهم؟

— إن أول مافكرت فيه الحكومة هو إبقاء خصم الربع من جميع الرسوم، كما خفضت ذلك السنة الماضية، رغم المشقات التى حصلت من ذلك التخفيض.

كما فكرت فى أن قسما غير قليل، من أصناف الحجاج، يودون الراحة

بركوب سيارات جديدة فخمة ، مع زيادة الأجرة عليهم . فأمرت الشركة العربية بشراء عربات جديدة من طراز جيد ، لتحقيق هذه الفكرة التى يجب تنفيذها ، وقد نفذناها فعلا . وستجد الطائفة الممتازة من الراحة فى ركوبها ما كانوا يؤملونه .

كما أمرت الحكومة أيضا بانشاء خطوط أهلية للسيارات « الامنيبوس » داخل البلدة ، لتوفر على الحجاج مشقة الذهاب والاياب ، أو دفع أجور كبيرة لسيارات خاصة . وشيدنا « جمركا » جديداً لراحة الحجاج خاصة ، وعملنا تعديلات هامة فى جميع الشئون التى تختص بالحجاج . ونرجو أن تكون وافية بالغرض المقصود ، ان شاء الله تعالى .

— رأيت ضمن البيانات الرسمية ضريبة خاصة لاصلاح الطرق ، إجابة لرغبات بعض الحجاج . فهل المقصود من الاصلاح الاصلاح الهندسى الفنى الحديث ؟

— نعم : إن المقصود من إصلاح الطرق هو إصلاحها وتعبيدها ، على أحدث طراز صالح وملائم للجو وكثرة السيول فى الصحراء ، فان الاصلاحات الوقتية لم تفدنا شيئا ، بل أخذت من الخزينة نفقات كثيرة ، ولم تعد بالاصلاح المرغوب فيه . ومن أجل ذلك فاننا قد بعثنا فى طلب مهندسين إخصائيين فى إصلاح الطرق ، حتى يكون عملنا مبنياً على أساس متين ، وصالح للزمان .

— هل بدأتم باصلاح هذه الطرق ، أو من المنتظر أن يتم شىء من إصلاحها هذه السنة ؟

— لم نزل ننتظر المهندسين المطلوبين ، وإذا حضروا وأخذوا فى درس عملهم ، فلا شك أننا نبدأ فى الاصلاح دون توان . ولا يخفى عليك أن إصلاح

الطرق يتطلب وقتاً طويلا وحكمة واناة ، والعجلة لا تنتج خيراً كثيراً . وأملنا فى الله كبير فى إنجاز الاصلاح الذى يتطلبه كل مسلم .

— ألا ترون سعادتكم أن بعض الحجاج قد لا يرضون عن المساعدة فى مثل ذلك ؟

— إن هذا عمل إنسانى وخيرى ، قبل كل شىء . وإن الحاج الذى يخرج من بيته للخير ، ويدفع كل هذه المصروفات فى سبيل الخير ، لا يعوزه أن يعاون فى هذا المشروع الخيرى الحيوى العظيم . وإن الاشتراك فى الخير مرغوب فيه ، ويحبه كل انسان .

— هل من الطرق التى يراد اصلاحها طريق عرفات أيضا ؟

— إن الاصلاح سيجرى على جميع الطرق التى يجتازها الحاج . ونرجو أن يتم ذلك سريعا ، بحول الله تعالى ، ثم بهمة جلالة المليك المعظم أيده الله بالنصر .

الحج الى بيت الله الحرام

لم يكن أيسر منه فى هذا الزمان

أتى على الناس زمان كان الحج فيه أعسر الأمور . بل لقد كان مجازفة ، لا يقدم عليها إلا أولو العزم ، وقليل ماهم .

كان نقل الحجاج من السويس إلى جدة تحتكره شركات أجنبيه ، لاهم لها إلا استنزاف أموال الحجاج بكل مايمكنها من وسيلة . فكانت تستخدم سفن البضاعة ، وتحشر فيها الحجاج حشراً ، مكدسين ، حتى يضطر كثير من ركاب الدرجة الأولى إلى النزول إلى العنابر القذرة ، وإلاضاع عليهم

الحج . وتستخدم فى تلك السفن عمالا قل أن يعرفوا شيئا من اللغة العربية ، أومن العادات والأخلاق الاسلامية . فما كان الحجاج يصلون إلى جدة إلا بعد أن يذوقوا الأمرين . فاذا مانزلوا بثغر جدة ، رجوا أن يجدوا من سرعة الوصول إلى أمنيتهم وسهولة المركب مايذهب عنهم عناء ما القوا فى السفن . لكنهم لا يلبثون أن يجدوا من الجمل الهزيل الضعيف ، وقسوة الجمّال ، وسوء أخلاقه ، وسلبه ونهبه ، وقطاع الطريق ، مايزيدهم هماً على هم ، وألماً على ألم . فيشرفون على مكة وقد كادت أرواحهم تزهق ، ويؤملون أن يلقوا من كرم الضيافة ، وحسن المعاملة من المطوفين ، مايوفر على نفوسهم الطمأنينة ، لتتفرغ للنسك ، خاشعة مؤمنة ، ولتجد لذة العبادة الى القلب سبيلها خاليا ، فتسعى إليه وتملؤه بالسرور والغبطة . ولكن هيهات . والمطوف ينتظر الحاج انتظار السبع لفريسته ، فما يلقاه حتى يعمل على استلاب البقية الباقية من ماله وراحته . فيباشر الحاج نسكه ضجراً بكل مالقى ، فلا يكاد يجد لعمله وعبادته لذة العبادة ، ولا نعيم الايمان .

ولا يكاد يفرغ من نسكه حتى يفر إلى بلده ، وهو ممتلىء من كل مالقى بالهموم والأحزان . وإذا ما حلّ بين أهله — وما كان يصدق بعد ما رأى أهوال الطريق ، وقتلى الأعراب ، واغتصاب المطوّفين ، أن سيرجع إلى وطنه وأهله سالماً — كان أول مايرد به التحية : أن يقول : « الله لايعودها ولا يورى عدو ، ولا حبيب ، ما رأيناه » ولقد كان أهل الحاج ، حين يسمعون بوصوله إلى الطور ، يعدّون الأفراح ويرسلون رسولا ليلقاه ، ثم يسبقه اليهم ، ليبشرهم بعد عودته حيًّا سليما معافى .

كان ذلك سببا فى ركود حركة الحج ركوداً كاد يؤدى إلى تعطيل هذه

الشعيرة الاسلامية . خصوصاً عند أهل النعمة والأعيان والوجهاء ، الذين لم يتعودوا المشاق .

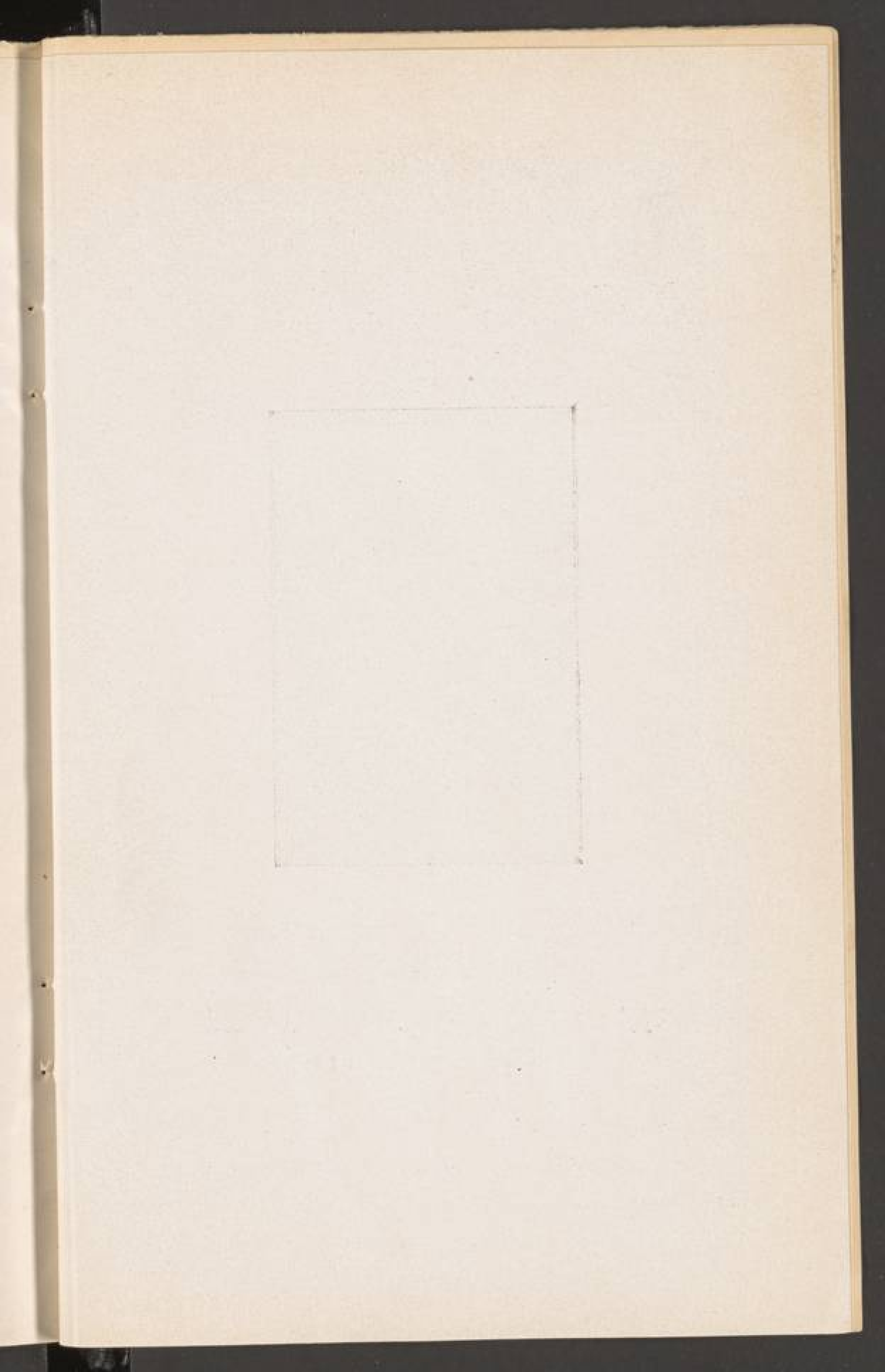
ولكن اليوم تغير كل ذلك إلى عكسه تماماً . فقد تولت شركة مصر للملاحة نقل الحجاج فى البحر على سفنها الواسعة الرحبة . فحين يضع الحاج قدمه فى «زمزم» أو «كوثر» يرى دنيا واسعة ، وقصراً فخماً مزيناً بأحسن الأثاث . مقسمة أمكنة الدرجة الثالثة فيه الى أقسام منظمة بديعة ، كأنها غرف الدرجة الثانية فى السفن المنحوسة الأولى . لا والله ، انها لأجمل وأوسع . وقد بلغت سعتها إلى حد أن ركاب الدرجة الثانية ، قد يجدون أمكنة فى الدرجة الأولى ، وركاب الأولى قد يجدون فى « اللوكس » ، ويجدون من كرم المسيرى بك ، ورجال بنك مصر ، وسماحة نفوسهم ، مايزيد فى راحتهم وهناءتهم . ثم هم فوق هذه السعة ، والنظافة ، والنظام ، بين إخوان مسلمين ، فى منتهى الأدب وكرم الأخلاق ، متيقظين كل التيقظ لتلبية أى طلب ، من أصغر حاج . يلاطفونهم ، ويسألون عن حاجتهم ، ويتحسسون كل صغيرة وكبيرة فى السفينة . وكل فوج من الحجاج يلقى أمامه على باب السفينة رجل الاحسان والانسانية ، زعيم مصر الاقتصادى العظيم « محمد طلعت حرب باشا » يحييهم أجمل تحية ، ويودعهم أطيب وداع ، فيملأ نفوسهم سروراً وحبوراً . فما تلبث أيام البحر أن تقضى مسرعة فى سرور وحبور . فاذا مانزل فى ثغر جدة ، وجد أمامه « بنك مصر » ببركاته وخيراته وحسن عنايته . وجده قد أعد قوارب كبيرة يقودها « زورق بخارى » حتى الشاطىء ، فيصل الحاج بمنتهى الراحة والهدوء ، مهما كان العدد كثيرا . فيلقى لجنة الحج قد هيأتها الحكومة السعودية

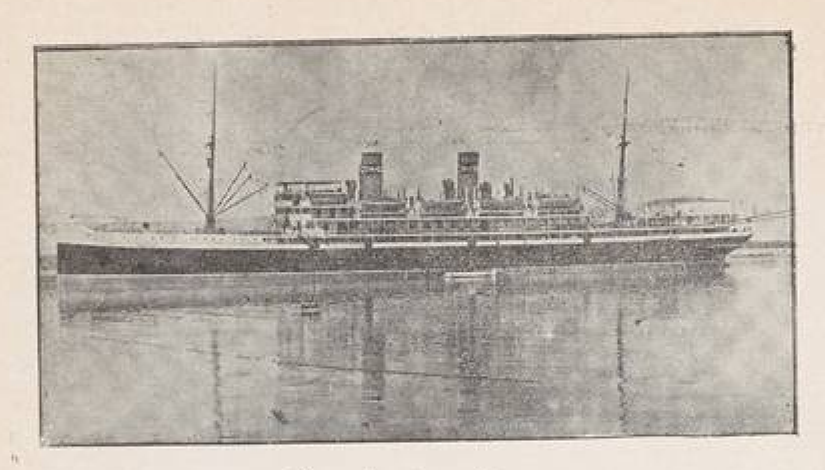


حضرة صاحب السعادة زعيم مصر الاقتصادى

محمد طلعت حرب باشا

أحد مؤسسى بنك مصر ، وصاحب المشروعات الجليلة





« زمزم » إحدى باخرات شركة مصر

تقطع المسافة من السويس إلى جدة فى ٤٥ ساعة وطولها ١٦٥ مترا ، وعرضها ١٦ مترا ، وبها تسع طبقات -١- وهو الأعلى خاص بالقبطان والادارة -٢- خاص بركاب الدرجتين الأولى والثانية ، ومكان رياضتهما ، وبعض حجر للضباط -٣- خاص بحجرات الدرجة الأولى -٤- به صالة الطعام للدرجة الأولى تسع ١٨٠ شخصا ، يتناولون الطعام فى وقت واحد ، للرجال قبل النساء . وفيه حجر ركاب الدرجة الثانية . وفى جانب منه المطبخ البخارى ، والمعجن الأوتوماتيكى ، والمخبز الكهربائى ، ومخازن الثلج ، وبجانبها مصانع للبن والغازوزة الخ -٥- به صالة الطعام لركاب الدرجة الثانية ، وبعض حجرات الدرجة المذكورة وفى جانب منه توجد عنابر لركاب الدرجة الثالثة ، ومرافق وحمامات كثيرة . -٦- به عنابر الدرجة الثالثة -٧- به المسجد ويسع نحو ٨٠٠ مصلى فى وقت واحد -٨- به مخازن للباخرة ٩ - به سينما

وبالباخرة عدا ذلك مستشفى يتوفر فيه الهواء الطلق والراحة والعناية ، بالمرضى ومعين به طبيبان وممرضون وممرضات ، وتصرف الأدوية مجانا لجميع الركاب

وبها حوانيت لبيع مايلزم للحجاج من بقالة وفواكه ومنسوجات شركة مصر

وبها ايضا مصرف لتبديل النقود ، ومكتب للبريد ، ومذياع (راديو) ،

وبها محطة إذاعة ومكتبة . ومقهى فى الطابق الثالث لركاب الدرجة الثالثة

وعلى العموم فهى مؤثثة بأفخر الأثاث ، حائزة للكماليات التى لاتقل عما فى أفخر البيوتات الراقية ، وكل من عرفها أظهر ارتياحه لنظافتها ونظامها

وكل ذلك بهمة الزعيم الاقتصادى حضرة صاحب السعادة محمد طلعت حرب باشا ، ورجال بنك مصر المؤسسين

الموفقة . يلق من رجالها وجوهاً باسمة ، وصدوراً رحبة . وهكذا تسلمه لجنة الحج الى عمال « الجمرك » وكل يرحب ويؤهل ويسهل . حتى يلق المطوف ، فيجد روحاً غير الروح ، ونفساً غير النفس ، التى كان يسمع عنها فى الأيام الأولى . ويجد حكومة الحجاز قد أصدرت أوامرها باعداد أطيب المساكن ، وأرحبها ، وأوفرها راحة للحجاج .

ويجد بنك مصر قد سبقه باحسانه وفضله إلى جدة ، فهيأ بها نزلا فخما ، جمع كل أسباب الرفاهية والراحة ، فى فراشه وأثاثه ، وأكله وشربه ، وخدمه ، ولا يلبث إلا ساعة أو ساعتين ريثما يصلى فرضه ، ويأكل ويستريح ، حتى تجيئه السيارة إلى باب نزله ، فيمتطيها بسم الله مسيرها. وبعد ساعتين أو ثلاثة إذاهو أمام بيت الله الأشرف ، وكعبته المعظمة ، وقد خلا قلبه من كل المشاغل ، وليس فيه هم بشىء ، حتى ولا بمتاعه . فانه قد تولاه المطوف الذى كان ينتظره عند باب مكة ، فما يفرغ من نسكه إلا وقد ذاق حلاوة ذلك ولذته ، وذهب إلى بيت جميل نظيف ، أو إلى « نزل بنك مصر » الجميل الفخم المهيأ بكل أسباب الراحة والرفاهية . وهكذا أيها الأخ المسلم أصبح الحج نزهة من أمتع النزه ، ورياضة من أجمل الرياضات ، بما بذلت الحكومة السعودية من أمن شامل ، وتعبيد للطرق ، واختيار للمطوفين ، وحرص على كل ما يحمل الحاج فى أكرم ضيافة وأنعم عيشة . وبما بذل « بنك مصر » ورجاله الأكرمون من راحة وعناية ، فى السفن والفنادق ، وغيرها ، مما أقام الله عليك به الحجة ، ويسر به السبيل . متعنا الله بحج بيته الأشرف فى هذا العام ؟

محمد حامد الفقى

رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية

نداء من الحجاز

لتأدية فريضة الحج

لحضرة الفاضل السيد عبد القادر الغزاوى

يسرنى أن أشكر الفرصة التى أتاحت لى شرف التحدث إلى إخواننا أبناء مصر ، كما أتاحت لى شرفاً آخر ، هو تبليغ الرسالة التى حملنى إياها إخوانى أبناء العروبة فى الأقطار الاسلامية المقدسة . ألا وهى تحيتهم الكريمة لمصر والمصريين ، وحبهم الطبيعى لاخوانهم أبناء وادى النيل العظيم . ولقد ودّوا ، حين كلفونى بابلاغ هذه الرسالة ، ان ييسر الله لهم زيارة مصر قائدة النهضة العلمية فى الشرق ، كما ودّوا أن يزور المصريون تلك الأراضى المقدسة ، التى هى مهبط الوحى ، وقبلة الاسلام والمسلمين.

والواقع أن تبادل الزيارة بين القطرين الشقيقين مما يزيد الصلة بين الشعبين ، ويقوى العلائق بينهما . فما أحوجنا فى إبان نهضتنا أن نعمل للتكاتف والاتحاد ، وتبادل الرأى ، فان ذلك من أنفع الوسائل المؤدية الى سعادة الاسلام ورفاهيته .

وإننا لنأخذ هذا المغزى السامى من تشريع الحج وفريضته ، إذ أن فيه الاتصال الروحى ، وتبادل الآراء بين عصبة الأمم الاسلامية ، التى تفد كل عام إلى الأراضى المقدسة من كل فج عميق ، مايعود على الأمم الاسلامية بالرقى والتقدم ، فيتحقق بذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « مثل

المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم ، كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »

هذا إلى مافى الحج من أسرار عالية ، وحكم سامية ، لا يحصيها عدّ ولا تشملها إحاطة . وكفى أن يكون من حكمته تساوى الجميع فى هـذا الموقف العظيم . لا فرق بين كبير أو صغير . إذ ترى هذا الجمع ، المختلف الألوان والمشارب ، قد طرح ثيابه ، ونبذ زينته ، والتحف بثياب بيضاء ، إشارة إلى ترك الدنيا المليئة بالمتاعب والمشاق . وأى إنسان فى هذه الدنيا ، تحمّل الذنوب والخطايا ، ولا يرغب فى محوها . بل أى امرىء لا يسر برضاء الله ومغفرته ، وليس بعد رضائه غاية لانسان . إذ قال الله تعالى وهو أصدق القائلين :

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور ليس جزاءه إلا الجنة »

وكذلك روى البخارى : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من حج فلم يرفث ، ولم يفسق ، رجع كيوم ولدته أمه »

هذا بيان من الله ورسوله للناس ، وليس بعده بيان . وإن من تتبع آراء الحج الدقيقـة تجلى له ، بأظهر بيان ، بأن فريضة الحج جمعت من المزايا ماليس فى غيرها من الفرائض . فليس لمستطيع بعد هذا شبه عذر ، خصوصاً

بعد أن أصبحت وسائل السفر ميسورة بكل أسباب الراحة ، بحيث لا يجد المسافر مشقة ولا تعباً . وذلك بفضل الترتيبات التى اتخذها زعيم الاقتصاد سعادة « محمد طلعت حرب باشا » وزملاؤه الأجلاء فى بنك مصر .

فلا يكاد المسافر يفارق أرض مصر حتى يجد نفسه فى باخرة مصرية ، هى قطعة من وطنه ، يرفرف عليها علمه الخفاق . وأينما تحول نظره يجد وجوهاً محببة إليه ، وهى وجوه إخوانه وأبناء جلدته ، فيشعر حقاً بأنه لم يفارق وطنه ، حتى إذا انقضت أيام الباخرة ، ووجد نفسه فى الموانىء الحجازية ، وجد نفس السهولة فى الانتقال التى ألفها فى وطنه ، فهناك السيارات الفخمة المتعددة ، تنتقل بين مكة والمدينة ، وبينهما وبين الموانىء الحجازية ، فتطوى به المراحل التى كان يقطعها فى أيام عديدة على ظهور الابل ، فى ساعات قليلة ، كما أن هناك ملاحظة جديرة بالاهتمام ، وهى وجود الفنادق الحديثة فى كل مدينة حجازية ، وهى مزودة بكل وسائل الراحة والرفاهية مما يتطلبه الحاج فى إقامته ، مع رخص أجورها بما يتساوى مع أجور المساكن العادية .

وقد يظن كثير من الناس أن بلاد الحجاز لا يوجد بها مصيف يتعادل جوه مع مصايف البلدان الأخرى ، لكونها قطعة من صحراء بلاد العرب . ولكن هذا بعيد عن الحقيقة كل البعد ، إذ يوجد ببلاد الحجاز المصيف العظيم الذى يضارع أحسن المصايف ، ألا وهو مصيف الطائف ، وقد اشتهر بجوه اللطيف المعتدل فى أشد أيام الصيف ، وحدائقه الغناء ، وفواكهه المتنوعة ، ومائه العذب ، الذى يخرج من الآبار والعيون فى أشهر الصيف كأنه خارج من إحدى الثلاجات — فليجرب إخواننا المصريون هذا المصيف ، ولهم بعد ذلك حكمهم .

فاذا ما سافر الشخص إلى بلاد الحجاز ، واختلط بأهلها ، وعاشرهم ، شعر بأنه استبدل أهلا بأهل وإخواناً بإخوان .

أولئك أبناء الأقطار المقدسة ، وجيران بيت الله الحرام ، ورسوله المحبوب صلوات الله عليه وسلامه .

أولئك الذين جبلوا على إكرام الضيف وإعزازه ، واحترامه . لا يشعر بينهم بضيق أو تعب ، بل يجد كل راحة فى المعاملة ، ولطف فى الأخلاق . ولا أدل على ذلك من قوله تعالى : « وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ »

على أن الظاهرة البارزة ، التى يلمسها كل حاج ، هى استتباب الأمن . وحفظ النظام فى المملكة العربية السعودية كلها ، مما لا قبل له فى أرقى الممالك ،

ويكفى أن يعلم الانسان أن الشىء قد يفقد ، أو ينسى منه فى الطريق ، فتمر به السابلة فلا تمتد إليه أيديهم ، حتى يتفقده صاحبه ويعود إليه ، أو يمر به صاحب الشرطة فيذهب به إلى مقر الشرطة إلى أن يسأل عنه صاحبه ، فيتسلمه .

يكفى هذا المثل الصغير ، ليدلك على مبلغ استتباب الأمن ، وحفظ النظام ، والأمثلة على ذلك من الكثرة بحيث لا تحصى .

وليس بنا حاجة للرجوع إليها ، إذ أن هذا الموضوع أصبح معروفاً للخاصة والعامة ، ويشهد به كل من كرمه الله تعالى بزيارة بلاده المطهرة المقدسة . وذلك كله بفضل عناية مليكنا المعظم ، بطل الجزيرة العربية ، وأسدها المغوار ، حضرة صاحب الجلالة الملك « عبد العزيز ال سعود » ، الساهر على رعاية الاسلام ومصالحه ، والحريص على العناية بخدمة وفود

بيت الله الحرام ، ورجال حكومته الحازمة الرشيدة — وعلى رأسها صاحب السمو الملكى الأمير « فيصل » نائب جلالة الملك المحبوب — التى قطعت دابر المفسدين ، وضربت على أيدى اللصوص والأشرار . وكفى بتنفيذ الأحكام الشرعية ، وإقامة الحدود الاسلامية رادعاً وزاجراً .

ولم تقف عناية جلالة مولاى الملك « عبد العزيز » المعظم عند هذا الحد . فان عنايته بالشئون الصحية ، التى تتعلق بالمحافظة على الأنفس ، لا تقل عن عنايته بالمحافظة على الأموال ، ولذلك فقد اعتنى جلالته بايجاد الوسائل الصحية الكفيلة بالمحافظة على وفود بيت الله الحرام .

فأمر بايجاد الأطباء الفنيين ، وتنظيمهم بما تشهد به فى كل عام المجالس الصحية الدولية ، التى تقرر سلامة الحج من الأوبئة .

ومن شاء فليراجع تقاريرها الصادقة . فان عندها الخبر اليقين .

وكذلك اعتنى جلالته بايجاد الاسعاف والطب الخيرى بالحجاز ، حتى أصبح الاسعاف فى الحجاز يؤدى عمله الانسانى على أكمل وجه . حيث يشرف على إدارته إخصائيون من نوابغ الحجاز بين الوطنيين ، الذين وقفوا أنفسهم بخدمة وفود بيت الله الحرام .

أما مصاريف الحاج فقد يتساءل البعض عما يتكلفه الحاج فى حجه وزيارته . ويمكننى أن أجيب على هذا السؤال ، بأن الحاج يستطيع أن يقوم بتأدية الحج والزيارة ، بما يمكنه من النفقات .

وأعتقد أن ٢٥ جنيها مصريا ، فاقل ، تكفى لمصاريف الحج والزيارة فى حدود الاعتدال . وذلك بعد التخفضات المحسوسة التى أجرتها الحكومة العربية السعودية ، فى جميع أبواب المصاريف ، بتخفيض الربع منها فى العام الماضى . وهذا المبلغ هو كما قلنا للانفاق فى حدود الاعتدال

أما من كان ذا سعة فلينفق كل ذى سعة من سعته ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؟

خادم وفود بيت الله الحرام بمكة المكرمة

عبد القادر الغزاوى

الحج في هذا العام

منشور وزارة الداخلية

وقع دولة وزير الداخلية المصرية منشوراً خاصا بأجور سفر الحجاج هذا العام ، والتأمينات التى ينبغى عليهم إيداعها خزائن المحافظات ، والمديريات قبل السفر ، وهذه خلاصته :

« نظراً لحلول موسم الحج هذا العام ، ورغبة فى زيادة توفير سبل الراحة للحجاج ، واقتصاداً فى الوقت ، وفى نفقات السفر للحج والزيارة بالأقطار الحجازية ، رأت الوزارة أن تتبع التعليمات الآتية :

تقوم شركة مصر للملاحة البحرية ، بدلا من الحجاج - بدفع جميع نفقات الحج والزيارة ؛ سواء أكان بالجمال ، أو بالسيارات على أنواعها ، وكذا جميع الرسوم التى تتقاضاها الحكومة الحجازية من الحجاج نظير تحصيلها بمعرفة الحكومة المصرية ، وتسليمها لبنك مصر ، وبعد انتهاء الموسم تحاسب الحكومة الشركة ، وترد للحجاج ما يتبقى لهم — كما يحصل عادة فى صرف التأمينات .

وقد اتفق بنك مصر مع الحكومة الحجازية على ذلك .

ولما تبين للوزارة أن الحجاج عند ما يرغبون فى العودة إلى المملكة المصرية ، بعد انتهاء الفريضة . ينتظرون بجدة أياماً عديدة ، يتكبدون فيها مصاريف لا داعى لها حتى تكمل حمولة الباخرة ؛ فقد اتفقت مع شركة مصر للملاحة البحرية على أن تقوم الباخرة من جدة بمجرد وصول ٧٠٠ حاج فقط ، بدون انتظار باقى حمولة الباخرة ، وذلك نظير مبلغ ١٠٠ مليم يدفعها كل حاج .

وقد قبلت الشركة هذا رغبة منها فى زيادة راحة الحجاج .

يخصم ٢٠ فى المائة من أجور السفر بحرا فقط ، لمستخدمى الحكومة العاملين فى إدارتها ، ولمن يسافر للحج معهم ممن يعولون من والديهم وزوجاتهم وأولادهم ، على أن لا يزيد العدد فى كل حالة عن خمسة أشخاص بما فيهم المستخدم ، بشرط أن يقدموا شهادة دالة على ذلك ، من المصالح التابعين لها ، وترفق هذه الشهادة بحافظة توريد النقدية . ولا يشمل هذا التخفيض ثمن الغذاء بالباخرة أثناء السفر ، ولا مبلغ المائة مليم الاضافى .
وحرصاً على صحة الحجاج ، فى أثناء وجودهم بالحجاز ، وضعت وزارة الصحة العمومية نظاما لبعثتها الطبية ، الموفدة للأقطار الحجازية ، لجعلها قريبة من الحجاج ، بمكة المكرمة ، ومنى ، وعرفات . وسيصير تخصيص مكان فى منطقة واحدة للمصريين الذين يقيمون فى الخيام بمنى ، على أن يكون هذا المكان بجوار السبيل المصرى ، حيث تقيم البعثة الطبية المصرية ، وحيث السبيل المصرى ، يأخذ منه الحجاج ما يلزمهم من المياه .

كما أن شركة مصر للملاحة البحرية ستتفق ، مع حكومة الحجاز ،

على تخصيص مكان آخر للحجاج المصريين بعرفات . وقد طبعت وزارة الصحة إرشادات واضحة لتوزيعها عليهم مجاناً قبل السفر .

وأما أجور السفر بحراً ، ذهاباً وإياباً ، بما فيها ثمن الغذاء بالباخرة وقدره (٣) جنيه بالدرجة الأولى ، و(٢) جنيه بالدرجة الثانية ، و(٤٠٠) مليم فى الدرجة الثالثة فهى كما يأتى :

مليم	جنيه	
١٠٠	١٥	فى الدرجة الأولى
١٠٠	١٠	« الثانية
٥٠٠	٥	« الثالثة

وأجور الانتقالات ، لمن يريد الحج فقط كما يلى :

مليم	جنيه	
٦٣٨	١٣	بالسيارة « الأجرة »
٨١٤	٩	بالسيارة الكبيرة
٨١٥	٦	بالجمل

ولمن يريد الحج والزيارة كما يلى :

مليم	جنيه	
٤٤٣	٣٣	بالسيارة « الأجرة »
٢٤٤	٢٣	بالسيارة الكبيرة
٥٨٥	١٣	بالجمل

الحج

« الحج » مؤتمر إسلامى عام . يجدد فيه حبل الاسلام ، وتؤلف فيه القلوب فى ذات الله ، ويؤاخى فيه بين الشعوب .

الحج . ركن اجتماعى من أركان الدين ، يقوم عليه الأمر بين الفرد والجماعة ، ويقيم على التعارف ، والألفة .

الحج . أصبح ميسورا لديك أيها المسلم ، فليس لك عنه محيص . فهو فريضة عين لاتحول عن أدائها عقبة ، ولا يسوغ لك فى تركها معذرة . فأنت تستطيع بالمال اليسير ، وفى الزمن القصير ، أن تحج على الباخرة ، والسيارة ، والطيارة ، دون أن تعرض حياتك للموت ، وثروتك للنهب ، وصحتك للمرض .

وهذه « شركة مصر للملاحة البحرية » تتعهد لك بـ « زمزم » و « كوثر » أن تكفلك ، وتحملك ، وتعلمك ، وتغذيك ، وتؤويك ، وتحميك ، فى البحر والبر ، تحت علم دولتك ، ورعاية مواطنيك . لاتكابد وعث الصحراء ، وعبث الأشقياء ، ولاتقاسى بعد الشقة ، وطول الغربة ، ولا يهولنك أمر — وقد أعذر من أنذر .

فاتقوا الله أيها المسلمون ، وحجوا . فحج بيت الله ، والانفاق فيه ، وشد الرحال إلى الأقطار المقدسة الطاهرة ، التى وطئتها أقدام مجدكم ، وعزتكم ، وسؤددكم . خير من بلاد الكفار ، التى اليها ترحلون ، وتسارعون ، وتنفقون . « إِنَّهَا لَاتَعْمَى الأَبْصَارُ ، وَلَكِنْ تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ » .

فاللهم أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك — تذكرهم — «إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون»

فياحر قلبي ... ليت قومي يعلمون !! ...»

ابراهيم الجبالى

فريضة الحج

الحج خامس دعائم الاسلام ، بعد الشهادة ، والصلاة ، والزكاة ، والصوم ، حيث يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث شريف :

« بنى الاسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا »

وقوله صلى الله عليه وسلم « من استطاع اليه سبيلا » يفيد أنه أقل الدعائم تشديداً فى الفرض . حيث لايكلف به إلا من يستطيعه . وذلك نزولا على قول الله تعالى: (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ »

وكان فرضه على المسلمين ، كما هو مشهور فى السنة التاسعة من الهجرة على صاحبها أفضل الصلاة وأتم السلام . وفرض مرة واحدة فى العمر ، على مستطيعه . حيث روى أبو هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبهم ، فقال :

« ياءيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا » فقال رجل : أكل عام

يارسول الله » ؟ فسكت ، حتى قالها ثلاثاً . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو قلت نعم لوجبت ، ولما استطعتم »

ولكن الحج ، مع ذلك ، ركن عظيم من أركان الدين الاسلامى ، قد أمر به الله تعالى ، ودعا إليه الرسول الكريم ، وبشر بالخير من أداه ، وأوعد من امتنع عنه وهو قادر . ولمن يقوم به خير وبركة من الله ، وغفران للسيئات ، ولمن يتركه ، وهو مستطيع للقيام به ، الوعيد بأشد العقوبات ، وأسوأ النهايات . ولذلك . يعقب الله بعد قوله : « وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حَجُّ الْبَيْتِ » — الآية بقوله تعالى : « وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ » . ويقول النبى الكريم صلوات الله عليه : « من ملك زادا وراحلة تبلغه الى بيت الله ، ولم يحج ، فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً »

وقد فرض الحج على الجميع ، رجالا ونساء . حيث سألت السيدة عائشة رضى الله عنها الرسول صلى الله عليه وسلم بعد قوله : « بنى الإسلام على خمس » الحديث - بقولها : يارسول الله ، هل على النساء من جهاد ؟ فأجابها : « نعم عليهن جهاد لاقتال فيه ، الحج والعمرة »

وقال « عمر بن الخطاب » رضى الله عنه : « لقد هممت أن أبعث رجالا إلى هذه الأمصار ، فينظروا كل من له جدة (غنى) ولم يحج ، فيضربوا عليهم الجزية . ماهم بمسلمين »

وللحج أحكام وفروض ، نرى من اللياقة ، أن نترك الكلام فيها لعلماء الدين الافاضل ، عملا بمعنى الآية الكريمة « وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا » ، وأمناً على أنفسنا من الزلل فى البحوث التى لم نتخصص فيها

لذلك ننقل إلى القراء عن مجلة « هدى الاسلام » فى الأعداد (٩ و ١٠ و ١١) من السنة الثالثة كلمة جامعة لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير « الشيخ ابراهيم الجبالى » رئيس البعثة الاسلامية إلى الهند ، فى موضوع الحج ، وفريضته ، وشروطه ، وأحكامه . وفيها الكفاية لما يجب علمه عن هذا الغرض الدينى الجليل .

قال فضيلته ، جزاه الله عن المسلمين خيراً . بعد أن ذكر آيات من القرآن الكريم تشير إلى الحج ، وأحاديث شريفة :

الحج أحد أركان الاسلام الخمسة الواردة فى قوله صلى الله عليه وسلم : « بنى الاسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا . »

وكذلك هو الوارد فى تفسيره صلى الله عليه وسلم للاسلام حين سأله جبريل عليه السلام : ما الاسلام ؟ فقال : أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة . وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا .

والحج فرض عين باجماع المسلمين . يجب على كل من قدر عليه ، فان حجّ وهو غير مستطيع ، وتكلف من المشقة فوق طاقته ، أجزأه ذلك ، وكان له من الثواب ما الله به عليم .

وأصل معنى الحج فى اللغة : القصد ، وقيل إنما يستعمل فى قصد الأمر العظيم أو الرجل الخطير الشأن . ومعناه فى الشرع قصد البيت الحرام للنسك .

والعمرة فرض عين عند الشافعى ، وأحمد . وكما أوجب الله تعالى الحج

أوجب العمرة لقوله تعالى : (وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ) وهى سنة عند مالك ، وأبى حنيفة ، لقوله صلى الله عليه وسلم « بنى الاسلام على خمس » المتقدم ، فقد عدّ الحج ، ولم يعدّ العمره ، وأيضاً لما جاءه السائل يسأله ما الاسلام ؟ قال : أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، الخ ما كتب أولا ، فلم يقل وأن تعتمر . وأجابوا عن استدلال الشافعى بالآية بأن فى الآية الأمر باتمامها . وهذا شأن العبادة متى شرع فيها .

واستند الشافعى أيضا فى فرضية العمرة إلى ماروى من أنه صلى الله عليه وسلم لما نزل قوله تعالى : «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً » قال : اثنان : حجة وعمرة ، فمن قضاهما فقد قضى الفريضة ، وروى كذلك فى بعض طرق رواية سؤال جبريل عليه السلام عن الاسلام ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى الجواب : وتحج وتعتمر .

وأعمال العمرة هى : الاحرام ، والطواف ، والسعى ، كالحج ، وليس فيها وقوف بعرفة ، ولاتختص بوقت من السنة ، بل كل السنة وقت لها .

وللحج شروط صحـــة ، وشروط وجوب ، وشروط وقوعه عن حجة الاسلام .

فشروط صحته هى : « الاسلام ، والوقت » فلا يصح من غير مسلم ، ولا فى غير وقته . وأما البلوغ ، والعقل ، فلا يشترطان فى صحة الحج ، بل يصح الحج ولو من مجنون وصبى ، وإن لم يبلغ درجة التمييز ، ويحرم عنهما وليّهما ، فان كان الصبى مميزاً أحرم بنفسه ـ ومعنى أحرم أى نوى الحج ـ وهذا مذهب الشافعى . وحجته أن امرأة رفعت صبياً إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقالت : يارسول الله ألهذا حج ؟

فقال : نعم . ولك أجر .

ومنعه بعض الأئمة قياساً ، من جهة أن أصل العبادات انها لاتصح إلا من مميّز ، فهذا يكون مما تعارض فيه الأثر والقياس . وينبغي ألا يختلف فى صحته من الصبي المميّز .

وأما شروط وجوبه : فالاسـلام ، والبلوغ ، والعقل ، والحرية ، والاستطاعة ، وأمن الطريق . فلا تجب على صبي ، ولا مجنون ، ولا عبد ، ولا عاجز . غير مستطيع ، والاستطاعة معناها القدرة على السفر ، مع وجود الزاد والراحلة ، زائداً عن نفقة من تلزمه نفقته . ولا يجب عليه الاستدانة لأداء الحج .

واختلف الأئمة فيمن يستطيع التكسب فى الطريق وليس معه مال . فقال بعضهم : يجب عليه متى وثق بذلك ، وقال آخرون : لايجب . وكذلك إذا كان الطريق غير مأمون ، بأن كان الغالب على المسافر فيه العطب فلا وجوب . أما مجرد احتمال العطب نادراً فلا يقدح فى الاستطاعة ، فان تعرض المرء لعطب محتمل فى كل زمان ، وفى كل مكان ، فالمخل بالاستطاعة هو غلبة العطب .

ومتى توافرت فيه شروط الوجوب استقر الحج فى الذمة . فقال بعضهم : يجب أداؤه على الفور . وقال بعض آخر : بل يجب وجوباً موسعاً ، فله تأخيره الى عام قابل . وحجة القائلين بالفورية أن وقته يشبه آخر وقت الصلاة ، فى أنه لو أخره لخرج الى وقت لايمكن فيه العبادة . ولا شك أن تأخير الصلاة عن وقتها حتى يخرج محرم . فكذلك هذا .

وحجة الفريق الثانى أن الحج فرض قبل حجة الوداع بمدة طويلة ، وأخره صلى الله عليه وسلم الى عام حجة الوداع ، ولو كان التأخير لعذر لبينه .

وأجابوا عن حجة الأولين بأن الفرق بين وقت الحج ووقت الصلاة أن الصلاة تتكرّر بتكرّر الأوقات ، فلكل وقت صلاته . وأما الحج فلا تكرر فيه بتكرر الوقت ، بل هو حجٌ واحد يأتى فى زمنه من أى سنة كانت . وعند من يرى وجوبه على التراخى لو استطاع فى سنة ولم يحج ، ثم فقد الاستطاعة حتى مات ، مات عاصياً . ولذا ينبغى المبادرة به لمن استطاع . وعليه يحمل ماورد : « حجوا قبل أن تحجوا » أى من استطاع فليبادر الى الحج قبل أن يفجأه ماليس له فى حسبان . فيمنعه من الحج .

ووجود تفسير لها بأن يقعد أعرابها على أفواه طرقها ، من باب التمثيل لا من باب الحصر . والمرء لايدرى هل يدوم له ما أنعم الله به عليه من نعمة الاستطاعة لأداء هذه الفريضة ؟ فلا ضمان لحال أن يبقى على ماهو عليه

وناهيك بما ورد فى شأنه مما سبق لنا ذكره . وقد قال بعض السلف عند تلاوة قوله تعالى : (لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ) : « غفر لهم ورب الكعبة » أى والله فأى منفعة تضاهى منفعة المغفرة ، فإنها هى مجمع المنافع ، ولو لم يظفر الحاج بمنفعة سوى المغفرة ، والرجوع إلى بيته كيوم ولدته أمه ، لكفاه مقابلاً لما تكبّد من مشاق ، فكيف وقد جاء قوله صلى الله عليه وسلم : « الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » .

وإنك لتجد فى الحج من تقوية الروابط بين الأمم الاسلامية ، فى مشارق الأرض ، ومغاربها ، واستفادة بعضهم من بعض فى شؤنهم الدينية

والدنيوية ، وتقوية روح التساند ، والتساعد ، مايشرح لك منافع الحج التى ذكرها الله فى قوله . « لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ » . وإن أبيت إلا أن تستشهد بما يجرى بين يديك ، فانظر الى ما ابتكرته الأمم من إنشاء المعارض والمؤتمرات العامة ، يدعى اليها أفراد من جميع الأمم ، والملل ، يجتمعون فى صعيد واحد ، تعرض كل أمة منهم أفضل ما امتازت به ، فتستفيد دعاية لنفسها ، ومجداً لقومها ، ورواجا لمصنوعاتها ، وتنويها بشرفها ، واحتراما لمكانتها . ثم تستفيد مما عرضه غيرها ، فتضم ما استفادته الى ما أفادته . وهكذا كل أمة تفيد وتستفيد ، وتعلم وتتعلم ، وتفتخر أو تتألم ، فيكون الجميع عونا للجميع ، ويكمل الأحساس بالألم ، والمساعدة على العمل ، والسعى لبلوغ الأمل . وهنا يكون الجميع كأعضاء الجسد الواحد ، يحسّ بالاحساس الواحد . فهل فى هذا زيادة على ما دعا اليه الدين الاسلامىّ من توحيد القلوب ، وتوحيد الوجهة ، وتوحيد الجهود ، حتى يتعاون الجميع على نفع الجميع ، وحتّى يكونوا موحّدين لخالقهم ، متحدين فى مصالحهم .

أنظر الى مشروعية صلاة الجماعة لأهل الحىّ الواحد فى اليوم خمس مرات ، ثم الى مشروعية الجمعة لأهل البلد الواحد فى الأسبوع مرة ، وقد جعلت جمعة البلد الواحد واحدة لا تعدّد فيها لتكون أعون على اجتماع الكلمة ، واجتماع القلوب ، وتمام التعارف .

ثم انظر إلى الحج الأعظم ، يدعى فيه المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها ، ليجتمعوا فى السنة مرة فى مكان واحد ، فى ساعة واحدة ، فأنه يجب عليهم ، فوق وجوبه على كل فرد ، أن يحيوا هذا الاجتماع كل سنة ، وأن يحج من المسلمين جمع يكون فيه إحياء لهذه الشعيرة ، بل لهذه الفريضة

المقدسة ، حتى لو قصروا فى ذلك لأثموا جميعاً ، ولو سبق لهم حج فريضة الاسلام.

وتأمل فى أن جعل الله مكان الحج وادياً غير ذى زرع ـ ليكون القصد فيه الى النسك والعبادة ، ولكيلا يكون محل التكالب على عرض الحياة الدنيا.

ثم تأمل جعل شعائره للرجال ثيابا غير مخيطة ، ليذكّر الناس يوم عرضهم على ربهم ، كأنهم فى ثياب أكفانهم قد تجردوا عن الدنيا وزخرفها ، ولكيلا ينكسر قلب الفقير اذا بدا ذلك الغنى فى زينته وأبهته . فقرب ما بينهم ما أمكن ، حتى يكون اقتراب الزى مدعاة لاقتراب الأرواح والقلوب .

ولنرجع الى ذكر الاحكام الفقهية المتعلقة بالحج ، وقد ذكرنا شيئاً منها أول المقال ، فنقول : وللحج شروط لوقوعه عن حجة الاسلام المفروضة ، وهى : الاسلام ، والبلوغ ، والعقل ، والحرية ، ولا تشترط الاستطاعة فمن حج وهو عاجز ، ولكنه تكبد من المشاق ما لا يلزمه ، أجزأه حجه . ثم من مات ولم يؤد الحج ، وكان قد استطاع أداءه ، وجب على ورثته انابة من يحج عنه من تركته . ويقدّم على نصيب الورثة كاداء الديون ، ومثل الميت المريض الذى لا يرجى له برء ، فانه يجب عليه أن ينيب من يحج عنه ، إذا كان قد جاءه وقت كان فيه مستطيعا ولم يحج. ويسمّى هذا النوع من الاستطاعة استطاعة بالغير ، وهى انما توجب الحج اذا سبق له استقرار فى الذمة بأن استطاع بنفسه ولم يحج . أما اذا كان كل زمنه عاجزا عن السفر فلا يجب عليه ، وإن كان يمكنه أن ينيب عنه بماله ، ومع ذلك فلو مضى وقته كله لا يستطيع السفر بنفسه وهو قادر على أن ينيب غيره عنه ، صح له الانابة ، وأجزأت عن حجة الاسلام اذا لم يقدر له الاقتدار على السفر بنفسه بعد ذلك .

والأصل فى الحج عن الغير وهو حىّ ما رواه الشيخان : أن امرأة من خثعم قالت : يارسول الله : إن فريضة الله على عباده فى الحج ، أدركت أبى شيخا كبيراً لا يثبت على الراحة ، أفأحج عنه ؟ قال : نعم .

وروى الترمذى : أن أبا رزين أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال إن أبى شيخ كبير لا يستطيع الحج ولا العمرة ولا الظعن . قال : حجّ عن أبيك واعتمر .

والأصل فى الحج عن الميت أن امرأة قالت للنبى صلى الله عليه وسلم : إن أمى ماتت ولم تحج قط ، أفأحج عنها ؟ قال . حجى عنها .

وروى الشيخان : أن رجلا جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله : إن أختى نذرت أن تحج وماتت قبل أن تحج ، أفأحج عنها ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : لو كان على أختك دين أكنت قاضيه ؟ قال : نعم قال : فاقضوا حق الله فهو أحق بالقضاء .

فترى من مجموع هذا مبلغ اهتمام الشارع الحكيم بأداء فريضة الحج .

وأما أركانه : فهى : الأحرام ، والوقوف بعرفة ، والطواف بالبيت ، والسعى بين الصفا والمروة ، وترتيب معظم الأفعال .

وزاد بعضهم حلق الرأس ، أو تقصير الشعر .

وأركان العمرة : هى أركان الحج ما عدا الوقوف بعرفة .

وللحج واجبات غير الأركان ، والفرق بين الركن والواجب فى باب الحج أن الركن إذا تركه بطل الحج ، والواجب إذا تركه لا يبطل الحج ، وإنما يجب عليه دم .

وللحج مع العمرة كيفيات ثلاث : الأفراد ، والتمتع ، والقران .

فالأفراد أن يحرم بالحج ، وبعد أدائه يخرج الى الحل فيحرم بالعمرة ويؤدى أركانها ، وذلك أفضل الكيفيات عند الشافعي .

والتمتع أن يحرم بالعمرة ثم يؤدى اعمالها ويحلل . ثم يحرم بالحج ويؤدى أعماله : من وقوف بعرفة وطواف بعده ، وسعى بين الصفا والمروة ، وحلق أو تقصير .

والقران أن يحرم بهما معاً . فيطوف ، ويسعى ، ويقف بعرفة ، فتندرج أعمال العمرة فى أعمال الحج ، والتمتع فضل من القران ، لأن فيه تكرار للأركان ، وفى القران اندراج أحد النسكين فى الآخر .

وأما المبيت بالمزدلفة ، وبمنى ، ورمى الجمار ، فمن الواجبات ، لامن الأركان . وعلى ذكر رمى الجمار والمبيت بهذه الأماكن نشرح لك معنى طالما تحير فيه كثير من الناس ، وهو أن الحج يحتوى على أفعال تعبدية ، أى لا يظهر لهـا فى بادىء الرأى حكمة مشروعية ، وذلك كرمى الجمار وتحديدها بسبع ، وأمثال ذلك .

هذه الأفعال قد أمر بها الشارع فنؤديها كما أمرنا بها ، وكما رأيناه صلى الله عليه وسلم يفعلها ، وإن لم تصل عقولنا إلى حكمة مشروعيتها .

وأداء هذه الافعال وأمثالها ، هو الذى يظهر به التعبد حقا ، والامتثال لأمر الشارع ، لأنه أمر الشارع . فان المرء اذا كان لا يتمثل الا مافهم وجه الحكمة فيه . لم يظهر معنى العبودية الصحيحة ، بل يكون كأن له فى كل عبادة غرضاً . فيفعل الزكاة مثلا لأن فيها جبراً للمساكين ، وجمعاً للقلوب حوله بالمحبة . ويفعل الصيام لأن فيه تطهيرا لنفسه وتنقية لبدنه من الأدران . ويفعل الطهارة

لأن فيها تطييبا لبدنه ، وتنزيها عن الأنجاس والأقذار . ويصلى لأن فيها مناجاة للواحد القهار، واحياء للقلوب بهذه المناجاة ، واشعاراً للنفوس بعزة الوقوف بين يدى العزيز الجبار . فهى أعمال ترى النفس فيها حظاً لها ، فتسارع الى امتثالها ، لما تعرف من حكمتها وفوائدها .

ولكن العبودية الحقيقية انما تظهر فى امتثال ما لم يظهر له حكمته سوى امتثال الأمر والخضوع للتشريع . ولذلك جاء أنه صلى الله عليه وسلم قال فى احرامه : « لبيك بحجة حقًا ، تعبداً ورقًا » إظهارا للعبودية الخالصة ، وانقياداً لمجرد الأمر ، وامتثالاً له خالصًا كما أمر - من غير أن يستأنس العقل منه بما يميل إليه ، ويحث عليه — فهو تعبد محض لا مدخل للحظوظ والأغراض فيه ، فمقصود الشارع فيه الابتلاء بالعمل ليظهر العبد رقة وعبودية ، وكمال خضوعه بامتثال ما لا يفهم له معنى ، وإن أردت استيضاح ذلك فانظر الى قول الشاعر

لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... للنائبات على ما قال برهانا

والى قول بعضهم فى وصف عظيم : « هذا الذى اذا غضب غضب له ألف سيف ، لا يسألون فيم غضب » فالعبودية الحقة لا تظهر إلا فى امتثال ما لم يظهر سرّه للعقول ، وإن كان فى الواقع لا بد له من سر . وهذا لا ينفى أن الحج فى جملته وفى كثير من أفعاله معقول المعنى ، فقد سمعت جملة من حكمة مشروعيته فى جملته . ويزيد على ذلك أن فيه تعظيما للمشاهد التى قدسها الله تعالى ، وجعل التوجه إليها رمزاً لوحدة الوجهة عند الأمة الأسلامية ، حتى تتوحد وجهة قلوبهم المعنوية تبعا لاتحاد وجهتهم الحسّية ،

فليس فى هذا عبادة مكان ، ولا اختصاص للحق جلّ وعلا بجهة . فقد قال تعالى : « فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ » . وقال عمر رضى الله عنه حين قبل الحجر الأسود : « والله إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك » .

ولقد قال له قائل : بل يضر وينفع ، فقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنه يشهد لمن قبله يوم القيامة » .

ولا تعارض بين هذا وبين ما قاله عمر رضى الله عنه ، فعمر ينفى الضرر والنفع اللذين كان يعتقدهما الجاهلية فى أوثانهم . والرادّ يريد النفع الذى ناطه الله بأمره بتعظيم هذا الحجر ، وتقبيله ، ابتلاء وتعبداً كما سمعت ، وامتثال مالم يعقل معناه أدل على العبودية الخالصة .

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من عباده المخلصين ، وأن يرزقنا التوفيق لما يرضاه رب العالمين ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين . وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين

ابراهيم الجبالى

الحج فى الجاهلية

وديانات العرب

كانت العرب فى جاهليتها فرقاً ، منهم الموحِّد المقرّ بخالقه ، المصدّق بالبعث والنّشور ، والثواب والعقاب .

ومنهم من أقرّ بالخالق ، وكذّب بالرسل والبعث ، ومال إلى قول أهل الدهر ، وهم الذين قال الله عنهم : « وَقَالُوا مَاهِيَ إلاَّ حَيَوتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَي وَمَا يُهْلِكُنَا إلاَّ الدَّهْرَ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إنْ هُمْ إلاَّ يَظُنُّونَ »

ومنهم من مال إلى اليهودية ، أو النصرانية .

ومنهم الباقى على فطرته ، الراكب لهمجيته .

وقد كان منهم صنف يعبدون الملائكة ويزعمون أنها بنات الله ، فكانوا يعبدونها لتشفع عند الله لهم ، وهم الذين أخبر الله عنهم بقوله : « وَيَجْعَلُونَ لِلهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ »

وقوله : « أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى »

فمن كان مقرّاً بالتوحيد ، مثبتاً للوعيد ، تاركاً للتقليد ، « عبد المطلب ابن هاشم » وكان عند ماحفر بئر زمزم ، بعد ماطمّت ، استخرج منها غزالتين من ذهب عليهما الدرّ والجوهر ، وغير ذلك من الحلى ، وسبعة أسياف قلعية ، وسبعة أدرع سوابغ ، فضرب من الأسياف باباً للكعبة ، وجعل

إحدى الغزالتين صفائح ، والأخرى فى الكعبة ، وجعل باب الكعبة ذهباً .

وكان يأمر أولاده بترك الظلم والبغى ويحثهم على مكارم الأخلاق ، وينهاهم عن دنيّات الأمور .

وكان يقول : لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى يُنتقم منه ، وتصيبه عقوبة إلى أن هلك رجل ظلوم من أهل الشام لم تصبه عقوبة ، فقيل لعبد المطلب فى ذلك ، ففكر وقال : « والله ان وراء هذه الدار داراً يجزى فيها المحسن باحسانه ، ويعاقب المسىء باساءته » وقد رفض فى آخر عمره عبادة الأصنام ووحّد الله سبحانه وتعالى . وعنه تؤثر سنن جاء القرآن بأكثرها ، وجاءت السنة بها ، منها الوفاء بالنذر ، والمنع من نكاح المحارم ، وقطع يد السّارق والنهى عن قتل الموؤدة ، وتحريم الخمر والزنا ، وأن لا يطوف بالبيت عريان .

ومنهم من أقر بالخالق ، وأثبت حدوث العالم بالبعث والنشور ، وأنكر الرسل ، وعكف على عبادة الأصنام ، وهم الذين حكى الله عنهم بقوله : « مَا نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إلَيَ اللهِ زُلْفَى » وكانوا يحجون إلى الأصنام ويقصدونها وينحرون البُدن (الأبل) وينسكون لها النسائك .

وكان الذى حدا بهم إلى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم ، تعظيماً للحرم وصبابة بمكة . فحيثما حلوا وضعوه ، وطافوا به كطوافهم بالكعبة ، تيمناً منهم وحباً ، وفوق ذلك هم يعظمون الكعبة ومكة ، ويحجون ويعتمرون ، على شعيرة ابراهيم واسماعيل ، عليهما الصلاة والسلام .

ثم تمادى بهم الحال إلى أن عبدوا ما استحبوا ، ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين ابراهيم واسماعيل غيره

فعبدوا الأوثان ، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم ، وتركوا ما كان يعبد منها قوم نوح عليه السلام . على ما بقى فيهم من ذكرها . وفيهم على ذلك بقايا من عهد ابراهيم واسماعيل يتنسّكون بها : من تعظيم البيت والطواف به ، والحج ، والعمرة ، والوقوف على عرفة ومزدلفة ، وإهداء البدن ، والاهلال بالحج والعمرة .

فكانت «نزار» تقول إذا ما أهلّت ، لبيّك اللهم لبيّك . لبيك لاشريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك (١) .

فيوحدونه بالتلبية ، ويدخلون معه آلهتهم ويجعلون ملكها بيده . ويقول الله عنهم لنبيه : « وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ . »

وكانت تلبية « عكّ » — إحدى قبائلهم — إذا خرجوا حجّاجاً ، قدموا أمام ركبهم غلامين أسودين من غلمانهم ، فيقولان : « نحن غرابا عك » فتقول « عك » من بعدهما : « عك اليك عانية ، عبادك اليمانية ، كيما نحج الثانية »

وكان أبو خزاعة «عمرو بن لحيّ (١)» الأزدى قد بلغ فى العرب من الشرف مالم يبلغه عربىّ فى الجاهلية قبله ولا بعده ، وهو أول من أطعم الحج بمكة شرائف (أسنام) الأبل ولحومها على الثريد ، وذهبت شهرة عمرو فى العرب كل مذهب ، حتى صار قوله ديناً متّبعاً لايخالف .

وقال بعضهم : صار عمرو للعرب ربّا لايبتدع لهم بدعة إلا اتخذوها شرعة ، لأنه كان يطعم الناس ويكسوهم فى الموسم ، وقد كان أحياناً ينحر

---

(١) أول من ادخل الشرك فى التلبية عمرو بن لحى

لهم فى الموسم عشرة آلاف بدنة ، ويكسو عشرة آلاف حلة. وهو أول من غيّر دين إبراهيم ، وشرّع للعرب الضلالات ، فعبد الأصنام ، ووصل الوصيلة ، وسيب السائبة ، وبحر البحيرة ، وحمى الحامية (١)

وقيل أول من بحر البحيرة رجل من بنى مدلج كانت له ناقتان فجدع أذنيهما وحرم ألبانهما .

وعمرو أول من أتى بصنم يدعى « هبل » من أرض الجزيرة ونصبه فى بطن الكعبة ، كانت العرب تستقسم عنده بالأزلام .

وهو أول من أحل أكل الميتة ، فان كل القبائل من ولد اسماعيل لم تزل تحرم أكل الميتة ، حتى جاء عمرو المذكور فزعم أن الله تعالى لا يرضى تحريم أكل الميتة ، قال كيف لا تأكلون ماقتل الله لكم وتأكلون ما قتلتم ؟

---

(١) البحيرة الناقة إذا ولدت خمسة أبطن لم يركبوها ، ولم يجزوا وبرها ، ولم يمنعوها الماء والكلأ ثم نظروا الى خامس ولدها فان كان ذكراً نحروه ، وأكله الرجال والنساء ، وان كانت أنثى شقوا اذنها وتركوها وحرموا على النساء منافعها ، وكانت منافعها للرجال خاصة ، فاذا ماتت حلت للرجال والنساء .

وقيل : كانت الناقة اذا تابعت ١٢ سنة أناثا سيبت فلم يركب ظهرها ، ولم يجزوا وبرها ، ولم يشرب لبنها الا ضيف . فما نتجت بعد ذلك من أنثى شق أذنها ، ثم سيبت مع أمها ، و يفعل بها كما يفعل بأمها .

وقيل : السائبة البعير الذى يسيب لآلهتهم ، وذلك أن الرجل من أهل الجاهلية كان اذا مرض ، أو غاب له قريب ، نذر ، فقال : ان شفانى الله ، أو شفى الله مريضى ، أو قدم غائبى ، فناقتى هذه سائبة ثم يسيبها ، فلا تحبس عن ماء ، ولا مرعى ، ولا يركبها أحد ، فهى بمنزلة البحيرة .

والوصيلة من الغنم كانت الشاة اذا ولدت سبعة أبطن ، نظروا ، فان كان السابع ذكراً ، ذبحوه ، وأكل منه الرجال ، والنساء ، وان كانت أنثى ، تركوها فى الغنم ، وان كانت ولدت ذكراً وأنثى قالوا : وصلت أخاها ، واستحيوا الذكر ، فلم يذبحوه من أجل الأنثى

والحامى هو الفحل اذا ركب ولد ولده ، وقيل : هو الفحل اذا نتج من صلبه عشرة أبطن ، قالوا . حمى ظهره ، فلا يركب ، ولا يحمل عليه ، ولا يمنع من ماء ، ولا مرعى ، فاذا مات أكله الرجال والنساء . هكذا كانت تفعل العرب فى جاهليتهم ، فلما جاء الاسلام أبطل ذلك بقوله تعالى :

« مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلاَ سَائِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ »

وقد مكث عمرو بن لحىّ المذكور فى ولاية البيت هو وولده من بعده ٥٠٠ سنة

وكان الحارث جد عمرو المذكور يلى أمر الكعبة . فلما بلغ عمرو بن لحى ، نازعه فى الولاية ، وقاتل جرهما ببنى اسماعيل فظفر بهم وأجلاهم عن الكعبة ، ونفاهم من بلاد مكة وتولى حجابة البيت بعدهم .

ثم إنه مرض مرضاً شديداً ، فقيل له : إن بالبلقاء من الشام حَمّة (عيناً حارة) ان أتيتها برأت ، فأتاها فاستحمّ بها ، فبرأ . ووجد أهلها يعبدون الأصنام فسألهم عنها ، فقالوا : هذه أرباب نتخذها نستسق بها المطر ، ونستنصر بها على العدو ، وكل من سألها يعطى . فطلب منهم أن يعطوه منها ، فأعطوه « هبل » فقدم به مكة ونصبه على الكعبة ، ودعا الناس إلى تعظيمه وعبادته ، ففعلوا ذلك .

وكان هذيل بن مدركة « وقومه » أول من اتخذ تلك الأصنام ، من ولد اسماعيل وغيرهم من الناس ، وسمّوها بأسمائها ، على مابقى فيهم من ذكرها حين فارقوا دين اسماعيل فقد اتخذوا « سُوَاعاً » وكان موضعه بأرض ينبع . وكانت سدنته بنو لحيان .

واتخذت كلبٌ « وَدّاً » بدومة الجندل .

وقد وصفه «مالك بن حارثة» فقال : « كان تمثال رجل كأعظم مايكون من الرجال . قد نُقش عليه حلتان ، مؤتزر بحلة . مرتد بأخرى عليه سيف قد تقلده ، وقد تنكب قوساً ، وبين يديه حربة فيها لواء . ووفضة (جعبة) فيها نبل »

واتخذت « مُذْحجُ » وأهل « جُرَشٍ » «يَغُوثَ»

واتخذت « خَيْوَانُ » « يعُوقَ » فكان بقرية لهم يقال لها « خيوان » من صنعاء على ليلتين ، مما يلى مكة

واتخذت « حِمْيَرُ » « نَسْرًا » فعبدوه بأرض يقال لها « بَلْخَع »

وكان لحمير أيضاً بيت بصنعاء يقال له « رِئَام » يعظمونه ، ويتقربون عنده بالذبائح

وكانوا يدعون أنهم يُكَلَّمون منه. فلما انصرف « تُبَّعُ » من مسيره الذى سار فيه إلى العراق ، قدم معه الحبران اللذان صحباه من المدينة ، فأمراه بهدم « رئام » قال : شأنكما به . فهدماه . وتهوّد تبع وأهل اليمن .

هذه الخمسة الأصنام التى كان يعبدها قوم نوح . فذكرها الله عز وجلّ فى كتابه العزيز بقوله : « قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا »

فلما صنع هذا « عمرو بن لحى » دانت العرب للأصنام ، وعبدوها واتخذوها . فكان أقدمها « مناة » [1] — معبودة أنثى — وقد كانت العرب تسمى عبد مناة ، وزيد مناة .

وكان تمثالها منصوباً على ساحل البحر من ناحية المُشَلَّل بِقُدَيْد بين المدينة ومكة .

---

(١) هذه المعبودة كانت معروفة لدى قدماء المصريين باسمها هذا . وقد جلبت اليهم من أواسط بلاد العرب وأدخلت ضمن معبوداتهم الكثيرة

وكانت العرب جميعا تعظمها وتذبح حولها وتهدى لها

وكان اولاد مَعَدّ على بقية من دين اسماعيل . وكذلك ربيعه ومضر .

ولم يكن أحد أشد إعظاماً لمناة المذكورة من الأوس والخزرج ، ومن يأخذبأخذهم من عرب أهل يثرب وغيرها .

فقد كانوا يحجون فيقفون مع الناس المواقف كلها ، ولا يحلقون رؤسهم فاذا نفروا أتوا صنمها فحلقوا رؤسهم عنده ، وأقاموا . ولا يرون لحجهم تماماً إلا بذلك .

ومناة هذه هى التى ذكرها الله جل شأنه فى سورة النجم فقال : « وَمَنَوٰةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ » وكانت لهذيل وخزاعة .

غير أن قريشاً وجميع العرب كانت تعظمها فلم تزل على ذلك حتى خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة سنة ثمان من الهجرة لفتح مكة . فبعث علياً . فهدمها ، وأخذ ما كان لها ، فأقبل به إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فكان فيما أخذ سيفان كان أهداهما اليها الحارث بن أبى شمر الغسّانى ملك غسّان : أحدهما يسمى « مِخْذَماً » والآخر « رَسُوباً » وهما سيفا الحارث نفسه . فوهبهما النبى صلى الله عليه وسلم لعلىّ

ثم اتخذوا « اللاتَ » بالطائف ، وهى أحدث من « مناة » ، وكانت صخرة مربعة ، وسدنتها من ثقيف ، بنو عتاب بن مالك . وكانوا قد بنوا عليها بناء . وقد عظمتها قريش وجميع العرب . وبها تسمى « زيد اللات » « وتيم اللات » .

وكانت فى موضع منارة مسجد الطائف اليسرى .

هذه اللات هى التى ذكرها الله تعالى فى سورة النجم بقوله :

« أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى » فلم تزل كذلك حتى اسلمت ثقيف ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم « المغيرة بن شعبة » فهدمها وحرقها بالنار

ثم اتخذوا « العُزّى » وهى أحدث من « اللات » « ومناة » . وقد سمت بها العرب أيضاً .

وكان الذى اتخذها هو « ظالم بن أسعد » . وكانت بواد يقال له حُراض عن يمين المصعد الى العراق من مكة . فبنى عليها بيتاً وسميت العرب وقريش بها « عبد العُزّى »

وكانوا يزورونها ، ويهدون لها ، ويتقربون عندها بالذبح . حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم : لقد أهديت للعُزّى شاة عفراء وأنا على دين قومى :—

وكانت قريش تطوف بالكعبة وتقول : « واللات والعُزّى ، ومناة الثالثة الأخرى ، فانهن الغرانيق العُلى ، وان شفاعتهن لترتجى »

وكانوا يقولون : عنها انها بنات الله (عز وجل عن ذلك) وهن يشفعن اليه .

فلما بعث الله رسوله أنزل عليه : « أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَوٰةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ »

وكان « عمرو بن لحى » يخبر قومه بأن الرب يشتى بالطائف عند اللات ، ويصيف عند العزى ، فكانوا يعظمونهما ويهدون الى العزى كما يهدون الى الكعبة .

وكانت قريش قد خصصت لها موضعاً ، من وادى حُراض ، يقال له سُقام . يضاهون به حرم الكعبة .

وكان لها منحر يقال له « الغَبْغَب » ينحر فيه أهلها الهدايا . فكانوا يقسمون لحوم هداياهم فيمن حضر وكان عندها .

وكان سدنة « العزى » بنو شيبان بن جابر بن مُرَّة . وكان آخر من سدنها منهم « دُبَيَّة بن حَرَمِيّ السُّلَمِي »

ولم تزل العُزَّى معظمة حتى بعث الله نبيه ، فعابها ، وغيرها من الأصنام ونهاهم عن عبادتها ، ونزلت عليه الآية السالفة الذكر ، وهى « أفَرَأيْتُمُ اللّاتَ وَالْعُزَّى . . . »

فعزّ ذلك على قريش . ولما مرض « أبو أُحَيْحَة سعيد بن العاص بن أمية » مرضه الذى مات فيه ، ودخل عليه « أبو لهب » يعوده فوجده يبكى : قال « ما يبكيك يا أبا أحيحة ؟ » أمن الموت تبكى ، ولا بدَّ منه ؟ » قال : « لا » ولكنى أخاف أن لا تعبد « العزى » بعدى . قال أبو لهب : « والله ما عبدت فى حياتك لأجلك ، ولا تترك عبادتها بعدك لموتك » فقال أبو أحيحة : « الآن علمت أن لى خليفة » وأعجبه شدة استمساكه بعبادتها .

فلما كان عام الفتح دعا النبى صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد رضى الله عنه فقال : « انطلق إلى شجرة ببطن نخلة (١) فاعضدها » . فانطلق ، فأخذ دُبَيَّة فقتله ، وكان سادنها ، وهدم البيت وكسر الوثن وقطع الشجرة .

ولم تكن قريش بمكة ومن أقام بها من العرب ، يعظمون شيئاً من الأصنام تعظيمهم « العزى » ثم « اللات » ثم « مناة » .

وخصت قريش « العزى » دون غيرها بالزيارة والهدية لقربها منهم .

---

(١) نخلة الشآمية فى طريق العراق للذاهب من مكة

وقد شاركهم فى ذلك أيضا « غنىّ » و « باهلة » وخصت ثقيف « اللات » كخصوصية قريش « العزى »

وكانت الأوس والخزرج تخص « مناة » كخصوصية هؤلاء الآخرين على أنهم جميعاً كانوا خاصة يعظمون العزى .

وكان لقريش أصنام فى جوف الكعبة وحولها أعظمها عندهم « هبل » وكان من عقيق أحمر على صورة الانسان ، أدركته قريش مكسور اليد اليمنى فجعلوا له بدلها يداً من ذهب .

وكان أول من نصبه، خزيمة بن مدركة بن إلياس ، فيقال « هُبَل خُزَيمة »

وكان فى جوف الكعبة تجاهه سبع قداح ، قدح مكتوب فيه « العقل » اذا اختلفوا فيمن يحمله منهم ضربوا به ، فعلى من خرج حمله .

وقدح مكتوب فيه « نعم » وقدح فيه « لا » . وذلك الأمر الذى يريدونه . وقدح فيه « منكم » وقدح فيه « من غيركم » اذا اختلفوا فى ولدهل هو منهم أولا . وقدح فيه « بها » وقدح فيه « ما بها » اذا أرادوا أرضا يحفرونها للماء

فاذا اختصموا فى أمر . أو أرادوا سفراً أو عملا ، أتوا « هبلا » فاستقسموا بالقداح عنده ، فما خرج عملوا به وانتهوا اليه .

وعند « هبل » هذا ضرب « عبد المطلب » بالقداح على ابنه عبد الله والد النبي صلى الله عليه وسلم .

وكان لهم « أساف » « ونائلة » وهما حجران وضعا عند الكعبة ، أحدهما بلصقها ، والآخر فى موضع « زمزم » ، فنقلت قريش الأول الى الثانى ، فكانوا ينحرون ويذبحون عندهما وصار من يطوف يتمسح بهما يبدأ باساف ويختم بنائلة . حلف بهما « أبو طالب » حين تحالفت قريش

على بنى هاشم فى أمر النبى صلى الله عليه وسلم فقال :

« وأحضرت عند البيت رهطى وإخوتى

وأمسكت من أثوابه بالوصائل

وحيث ينيخ الأشعرون ركابهم

بمُفضى السيول من أساف ونائل »

ويوجد فى عتبة باب السلام الخارجة بالحرم المكى حجر ضخم ، أشبه شىء بدرجة سلم غير منتظمة ، نازلة فى الأرض ، يطؤه الناس بنعالهم ، يقول أهل مكة عنه إنه « أساف » الذى كان يعبد فى الجاهلية .

وقد كانت العرب فوق تسميتهم بمن ذكرنا من المعبودات يسمون بأسماء أخرى من معبوداتهم ، مثل : « عبدياليل » و « عبد غنم » و « عبد كلال » و « عبد رُضَى »

فلما ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة ، دخل المسجد والأصنام منصوبة حول الكعبة ، قيل وكان عددها ٣٦٠ صنما ، فجعل يطعن بسية قوسه فى عيونها ووجوهها ، ويقول : « جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا »

ثم أمر بها فكفئت على وجوهها ، ثم أخرجت من المسجد وحطمت .

ولم تكن الحائضات من النساء تدنو من أصنامهم ، ولا تمسح بها . بل كانت تقف ناحية منها

و « عبد مناف » من أجداد الرسول صلى الله عليه وسلم كان يلقب « قمر البطحاء » كانت أمه « حُبَّى » قد أخدمته « مناة » ، فسمى منسوباً إليه

« عبد مناة » . ثم وجد « قصيّ » أبوه انه يوافق « عبد مناة بن كنانة » فحوله الى « عبد مناف »

وكان فى كل دار بمكة صنم خاص يعبده أهل الدار . فاذا أراد أحدهم السفر كان التمسح به أول وآخر مايصنع ذاهباً وآيبا

فلما بعث النبى صلى الله عليه وسلم دعاهم للتوحيد ، فقالوا : « أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ » ، يعنون الأصنام

واستهترت العرب فى عبادة الأصنام . فمنهم من اتخذ بيتاً ، ومنهم من اتخذ صنما ، ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت نصب حجراً أمام الحرم ، وأمام غيره مما استحسن ، ثم طاف به كطوافه بالبيت . وسموها الأنصاب جمع نُصُب وهى الحجارة تنصب ويصب عليها دماء الذبائح . وتعبد وقد جاء ذكرها فى آية من سورة المائدة وهى : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ الى قوله تعالى : وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ »

وقوله تعالى : « إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ » والأزلام واحدها « زَلَم » ، وهو القلم . وهى شبيهة بالقداح المتقدم ذكرها « وأن تستقسموا بالازلام » اذ يلقون اقلامهم . وكانت الازلام سبع قداح مستوية مكتوب على واحد منها « أمرنى ربى » وعلى آخر « نهانى » وعلى ثالث « منكم » وعلى رابع « من غيركم » وعلى خامس « ملصق » وعلى سادس « العقل » والسابع « غفل » أى ليس عليه شيء .

وكانت العرب فى الجاهلية إذا أرادوا سفراً ، أو تجارة ، أو نكاحاً ، أو اختلفوا فى نسب ، أو أمر قتيل ، أو تحمل عقل ، أو غير ذلك ، من الأمور

العظام ، جاءوا إلى « هبل » وكانت أعظم صنم لقريش ، بمكة ، كما قدمنا وجاءوا بمائة درهم ، وأعطوها صاحب القداح حتى يجيلها لهم . فان خرج « أمرنى ربى » فعلوا ذلك الأمر ، وان خرج «نهانى ربى» لم يفعلوه . وان أجالوا على نسب ، فان خرج « منكم » كان وسطاً فيهم ، وإن خرج « من غيركم » كان حلفا فيهم ، وإن خرج « ملصق » كان على حاله . وإن اختلفوا فى العقل وهو الدية ، فمن خرج عليه قدح العقل تحمله ، وإن خرج الغفل أجالوا ثانياً ، حتى يخرج المكتوب عليه . فنهاهم الله عن ذلك وحرّمه وسماه فسقاً .

ويؤخذ من ذلك أن كل مسألة لها ثلاثة أقداح أحدها غفل .

وقيـــل : الأزلام كعاب فارس والروم التى كانوا يقامرون بها . وقيل : كانت الأزلام للعرب ، والكعاب للعجم ، وهى النرد ، وكلها حرام لايجوز اللعب بشىء منها .

والاستقسام بالازلام هو طلب معرفة ماقسم لهم دون مالم يقسم .

فاذا كانت الأنصاب تماثيل دعوها الأصنام ، والأوثان ، وسموا طوافهم « الدّوّار » فكان الرجل إذا سافر فنزل منزلا ، أخذ أربعة أحجار ، فنظر إلى أحسنها ، فاتخذه ربّا ، وجعل ثلاث أثافىّ لقدره . وإذا ارتحل تركه ، فاذا نزل منزلا آخر ، فعل مثل ذلك .

فكانوا ينحرون ويذبحون عندها ويتقربون اليها ، وهم مع ذلك عارفون بفضل الكعبة عليها ، يحجونها ويعتمرون اليها .

وكان الذين يفعلون ذلك فى أسفارهم إنما كان للاقتداء منهم بما يفعلون عندها ولصبابة بها .

وكانوا يسمون ذبائح الغنم التى يذبحون عند أصنامهم وأنصابهم تلك « العتائر » جمع « عتيرة » أى ذبيحة . والمذبح الذى يذبحون فيها لها « العتر »

وكان « بنو مُلَيح » من خزاعة - وهم رهط طلحة الطلحات - يعبدون الجن . وفيهم نزلت آية : إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ »

وكان لخوْلان صنم يقال له « عُمْيَانس » بأرض خولان يقسمون له من أنعامهم ، وحروثهم ، قسما بينه وبين الله عز وجل بزعمهم . فما دخل فى حق الله من حق « عميانس » ردّوه عليه ، وما دخل فى حق الصنم من حق الله الذى سموه له تركوه للصنم .

وفيهم نزلت آية : « وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَي اللهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ »

وكان لبنى « الحارث بن كعب » كعبة بنجران يعظمونها .

وكان « لاياد » كعبة أخرى بسنداد من أرض بين الكوفة والبصرة .

وكان « لقضاعة ، ولخم ، وجذام ، وأهل الشام ، صنم يقال له « الأُقَيْصِر » كانوا يحجون اليه ، ويحلقون رؤسهم عنده .

وكان لطيّء صنم يقال له « الفَلْسُ » كان على شكل إنسان نائئا أحمر اللون فى وسط جبلهم الأسود الذى يقال له « أجأ » وكانوا يعبدونه ، ويهدون اليه ، ويعترون عنده عتائرهم ، ولا يأتيه خائف إلا أمن عنده ، ولا يطرد أحد طريدة فيلجأ بها إليه الا تركت له ولم تخفر حويّته .

وكانت العرب ، فى الجاهلية وأول الاسلام ، إذا أحرم الرجل منهم لم يدخل حائطا (بستانا) ولا داراً ، ولا فسطاطاً ، من بابه . فان كان من أهل

المدر[1]، نقب نقبا فى ظهر بيته يدخل منه ويخرج ، أو يتخذ سلما يصعد منه .

وإن كان من أهل الوبر ، دخل وخرج من خلف الخباء ، ولا يدخل ولا يخرج من الباب ، ويرون ذلك براً .

وكانت العرب فريقين : « حلة ، وحمس » فالحمس : قريش ، وكنانة ، وخزاعة ، والأوس ، والخزرج ، وقضاعة ، وجديلة ، وغطفان ، وعدوان ، وغيرهم من قبائل العرب الذين دانوا بدينهم ، وقد سموا حمسا لتشديدهم فى دينهم ، من الحماسة وهى الشدة ، والشجاعة ، أو لأنهم احتموا بالحمساء وهى « الكعبة » .

هؤلاء العرب كانوا إذا أحرموا لا يدخلون بيتا ألبتة ، ولا يستظلون بظل ، فاذا أهلوا بالعمرة ، لا يحول بينهم وبين السماء شىء ، وكان الرجل يخرج مهلا بالعمرة فتبدو له الحاجة بعدما يخرج من بيته ، فيرجع ولا يدخل من باب الحجرة حتى لا يحول سقف الباب بينه وبين السماء بل يفتح الجدار من ورائه ، ثم يقوم من حجرته ، فيأمر بحاجته ، فتخرج اليه من بيته .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل ذات يوم بيتاً ، فاذا برجل من الأنصار ، يقال له « رفاعة بن تابوت » يدخل على إثره من الباب وهو محرم ، فأنكروا عليه . فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : لم دخلت من الباب وأنت محرم ؟ فقال : رأيتك دخلت . فدخلت على أثرك ، فقال الرسول : « إنى أحمسى » فقال الرجل : إن كنت أحمسياً فأنا أحمسى ، رضيت بهديك وسمتك ودينك ، وكانوا كما قلنا يعدون ذلك الصنع براً ، فأنزل الله بصدد

---

(١) القرية أو المدينة المبنية بالطين واللبن .

ذلك آية « وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا ، وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ ، وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا — الآية » .

وكان من عادة الحمس أيضاً إذا أحرموا أن لا يأتقطوا الأقط (١) ولا يأكلوا السمن ، ولا يسلوه ، ولا يمخضوا اللبن ، ولا يأكلوا الزبد ، ولا يلبسوا الوبر ، ولا الشعر ، ولا يغزلوه ، أو ينسجوه ، أو يستظلوا به ما داموا حرما ، وما كانوا كذلك يأكلون شيئا من نبات الحرم .

وكانوا يعظمون الأشهر الحرم ، ولا يخفرون فيها الذمة ولا يظلمون .

وقالوا لأنفسهم : لا تعظموا شيئا من الحل كما تعظمون الحرم ، فانكم إن فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمكم ، وقالوا : قد عظموا من الحل مثل ما عظموا من الحرم . فتركوا الوقوف على عرفة والافاضة منها ، وجعلوا موقفهم بطرف الحرم من جهة « نمرة » يظلون بها عشية « عرفة » ، ويفيضون منه إلى « المزدلفة » فاذا عممت الشمس رءوس الجبال وقفوا ، وكانوا يقولون نحن أهل الحرم لا نخرج من الحرم ، ونحن الحمس . فعلوا ذلك وأقروا سائر العرب على الوقوف بعرفة والافاضة منها . وتلك شريعة « ابراهيم » عليه السلام يعرفونها حق المعرفة . ولكن ترفعهم ومغالاتهم ، تنكب بهم عن سبيلها ، فشرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله .

ومنشأ ذلك الغلو حادثة الفيل الآتى بيانها ، وتعظيم العرب لقريش وأهل مكة إذ قالوا عنهم : أهل الله قاتل عنهم . من أجل ذلك ازدادوا فى تعظيم الحرم ، والمشاعر الحرام ، والأشهر الحرم ، ووقروها ، ورأوا أن دينهم خير الأديان ، وأحبها إلى الله تعالى .

---

(١) طعام يتخذ من المخيض الغنمى يطبخ ثم يترك حتى يمصل أى يخرج ماؤه . والاقط مثلثة ككتف ورجل وابل

وكان قريش وأهل مكة يقولون نحن أهل الله وبنو ابراهيم الخليل ، وولاة البيت الحرام ، وسكان حرمه وقطانه ، فليس لأحد من العرب مثل حقنا ، ولامثل منزلتنا ، ولا تعرف العرب لأحد مثل ماتعرف لنا . فابتدعوا عند ذلك احداثا فى دينهم أداروها بينهم فكان منها ماتقدم .

ومنها انهم ما كانوا يجيزون لأحد من أهل الحلة — الفريق الآخر — أى غـــير الحمس أن يطوف بالبيت أول طوافه إلا إذا لبس ثوباً أحمسياً يشتريه أو يستأجره أو يستعيره ، فاذا ما أتى الواحد منهم باب المسجد رجلا كان أو امرأة قال : من يعير مصونا ، من يعير ثوبا — الخ — فان وفق لثوب أحمسى لبسه وطاف به ، وان لم يوفق ألقى ثيابه بباب المسجد من الخارج ثم دخل للطواف عريانا ، فيبـــدأ باساف (المعبود السالف الذكر) ثم يستلم الركن الأسود ، ثم يأخذ عن يمينه . ويطوف جاعلا الكعبة عن يمينه . فاذا ختم طوافه سبعا استلم الركن ، ثم استلم « نائلة » (المعبودة السالفة الذكر أيضا) فيختم بها طوافه . ثم يخرج ، فيجد ثيابه كما تركها لم تمس ، فيأخذها ، ويلبسها ، ولا يعود بعد ذلك إلى الطواف عريانا

وكان بعض النساء يلبسن درعاً مفرج الوجه والخلف ، ومنهن من تتخذ سيوراً تعلقها فى حقوتها ، وتستتر بها ، وتقول :

اليوم يبدو كله أو بعضه   وما بدا منـــه فلا أحله

وكانت العادة أن يطوف العراة من الرجال نهاراً ، ومن النساء ليلا .

وكان من له فضل ثياب من الحلة ولم يجد ثوباً أحمسياً يطوف فيه ، طاف فى ثيابه التى قدم بها من الحل ، فاذا ماأتم طوافه نزعها ، فجعلها لقا (جمع لقية)

يطرح بين « أساف ونائلة » فلا يمسها أحد ، ولا ينتفع بها ، حتى تبلى من وطء الأقدام والشمس والرياح والمطر .

وقد كان بعض فتيان مكة ينظر إلى النساء العراة وهن فى طوافهن ، فمن أعجبه حسنها منهن دخل معها فى الطواف عريانا ، ويؤول أمرهما أحيانا إلى الزواج من قريش . وقد أتى الاسلام على هذه العادة السيئة فهدمها . وقضى عليها فى سنة تسع من الهجرة كما سيجىء .

***

ومن عادة العرب فى جاهليتهم أيضا أن البنت إذا بلغت ألبسها أهلها من الثياب أحسن مايجدون ، وجعلوا عليها من الحلىّ مايقدرون ، ودخلوا بها المسجد الحرام سافرة الوجه . فتطوف بالبيت ، والأبصار ترنو إليها ، والناس يتساءلون من هذه ؟ فان كانت حرة قالوا : فلانة بنت فلان ، وإن كانت مولدة قالوا : مولدة فلان ، قد بلغت أن تخدر فى بيتها ، وأراد أهلها أن تستكنّ فى كنّها . فاذا قضت طوافها خرجت تشيعها الأبصار العفيفة ، فاذ ذاك يرغب الناس فى التأهل بها ان كانت من الحرائر ، وفى شرائها إن كانت من الاماء .

وبعد أن تصل إلى بيتها تحتجب فيه ، فلا تخرج منه إلاّ إلى بيت زوجها أو إلى حظيرة سيدها ، فكانوا يعطون للخاطب فرصة يتعرف فيها جمال المخطوبة ، وجعلوا ذلك فى جوار البيت ، ليأمنوا النظرات الخبيثة .

وكانت قريش ، إذا زوجت عربيًّا من بناتهم ، شرطوا عليه أن كل من ولدت منه فهو أحمسىّ على دينهم ، ويرون أن ذلك أحفظ لشرفهم ، وأبسط لسلطانهم . وكانت لهم فى العرب ميزة لم تكن لغيرهم ، هى الكمال فى أخلاقهم

وكونهم حلفاء متآلفين ، ومتمسكين بكثير من شريعة إبراهيم عليه السلام ، ولم يكونوا كالأعراب الأجلاف ، ولا كمن لا يوقره دين ، ولا يزينه أدب ، وكانوا يختنون أولادهم ، ويحجون البيت ، ويقيمون المناسك ، ويكفنون موتاهم ، ويغتسلون من الجنابة ، وقد تباعدوا فى المناكح من البنت وبنت البنت والأخت وبنت الأخت ، غيرة وبعداً من المجوسية ، ونزل القرآن بتوكيد صنيعهم ، وحسن اختيارهم .

وكانوا يتزوجون بالصداق والشهود ، ويطلقون ثلاثاً .

وكان من عادتهم أيضاً أن يدخلوا الكعبة لابسى أحذيتهم ، حتى سن لهم « الوليد بن المغيرة » خلع الخف والنعل إذا مادخلوا ، فاستن العرب بسنته إعظاماً للكعبة وإجلالا ، وقد سبقهم بهذه العادة اليهود إذ جاء القرآن مخاطباً لسيدنا موسى عليه السلام بقوله : « اخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى »

واقعة الفيل

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ، أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ، وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ، تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّنْ سِجِّيلٍ ، فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ »

« قرآن كريم »

لما تغلب أبرهة بن الصباح بن يكسوم الحبشى على اليمن ، ورأى الناس يتجهزون أيام الموسم إلى مكة لحج بيت الله عز وجلّ ، بنى بصنعاء كنيسة لم ير الناس مثلها فى زمانها سماها القُلَّيس ، صنعت من الرخام وجيد الخشب المذهب ، وكتب إلى النجاشى « أصحمة » يقول : « إنى قد بنيت لك بصنعاء كنيسة لم يبن لملك مثلها ، ولست بمنته حتى أصرف اليها حاج العرب »

فلما علم العرب بذلك ، غضب رجل من النسأة من بنى فقيم ، فخرج حتى أتى الكنيسة فأحدث بها ، ثم لحق بأهله . فبلغ أبرهة مافعل ، فحلف ليسيرن إلى البيت فيهدمه . وأمر الأحباش فتجهزوا ، وخرج معهم بالفيل وسمع العرب بذلك فرأوا جهاده حقاً عليهم . فسار « أبرهة » حتى إذا مر على الطائف بعثت ثقيف معه « أبا رغال » يدله على الطريق ، حتى أنزله بالمغمس فلما نزل فيه مات « أبو رغال » ودفن هناك ، فرجمت العرب قبره ، وصار قبره هذا يرجم إلى اليوم .

وبعث « أبرهة » إلى مكة من ساق أموال أهلها ، وأصاب فيها مائتى بعير

لعبدالمطلب بن هاشم . ثم أرسل « حناطة الحميرى » إلى مكة ليخبر سيد قريش أنه لم يأت للحرب ، إنما جاء لهدم هذا البيت . فان لم تمنعوا عنه فلا حاجة له بقتالكم

فلما سمع « عبد المطلب » ذلك التبليغ قال له : « والله مانريد حربه . هـذا بيت الله ، وبيت خليله « ابراهيم » فان يمنعه فهو يمنع بيته وحرمه ، وإن يخل بينه وبينه فوالله ماعندنا من دفع »

فقال له « حناطة » إنطلق معى الى الملك ، فانطلق معه . وكان « عبدالمطلب » رجلا عظيما جليلا وسيما . فلما رآه « أبرهة » أجله ، وأكرمه ، وسأله بوساطة ترجمانه عن حاجته ، فطلب أن يرد الملك اليه إبله . فازدراه « ابرهة » وقال له : « أتكلمنى فى ابلك ، وتترك بيتاً هو دينك ، ودين آبائك ، وقد جئت لهدمه ؟ فقال « عبـد المطلب » : « أنا رب الابل ، وللبيت رب يمنعه » فأجابه : « ما كان ليمنع منى » ، وأمر برد ابله .

فلما أخذ الابل قلّدها النعال ، وجعلها هدياً ، وبثها فى الحرم لكى يصاب منها شىء ، فيغضب الله . وانصرف « عبد المطلب » الى قريش ، وأخبرهم بالأمر وهو يقول :

« يا أهل مكة قد وافاكم ملك   مع الفيول على أنيابها الزرد
هذا النجاشى قد سارت كتائبه   مع الليوث عليها البيض تتقد
يريد كعبتكم والله مانعه   كمنع تبّع (١) لما جاءها حرد »

ثم قام فأخذ بحلقة باب الكعبة ، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وهو يقول :

---

(١) وذلك ان تبعا بن حسان ملك ملوك حمير وهو عائد من حرب الاوس والخزرج بيثرب ، أراد أن يهدم الكعبة ، وكان يهودياً ، فنعه أحد أحبارهم . فكساها وعاد الى بلاده

« يارب لا أرجو لهم سواكا   يارب فامنع منهم حماكا
ان عدو البيت من عاداكا   فامنعهمو أن يخربوا قراكا »

ويقول :

يارب ان المرء يمنع رحله   فامنع رحالك
لا يغلبن صليبهم   ومحالهم عدوا محالك

ثم خرجوا من مكة وتحرزوا فى رءوس الجبال ينظرون ما يفعل « ابرهة » بمكة إذا دخل اليها .

فلما تهيأ « ابرهة » لدخول مكة ، ووجه الأحباش الفيل اليها ، سقط الفيل إلى الأرض ، فضربوه ، فأبى ، فوجهوه راجعاً الى اليمن ، فقام يهرول ووجهوه الى الشام ، ففعل كذلك . ووجهوه الى المشرق ، ففعل . وأخيراً وجهوه الى مكة فسقط الى الأرض ، ويقال انه مات هناك ودفن بمكانه المشهور بباب « جرول » (الذى كان يخيم عنده « المحمل المصرى ») . وكانت له قبة كسرها الشريف « عون الرفيق » الذى ولى على مكة سنة ١٢٩٩ هجرية . واسم هذا الفيل عند العرب « محمود » وهو لفظ يصح أن يكون هنديًا ان لم يكن مغوليا ، كان يطلق على نوع عظيم الخلقة من الفيلة ، ولا يزال هكذا مستعملا فى اللغات الافرنكية Mamouth وأرسل الله عليهم طيراً أبابيل (١) من البحر ، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار ، من سجيل (وهو طين خلط بحجارة بمقدار حبة العدس) يحمل حجراً فى منقاره ، وحجرين فى رجليه . فقذفتهم بها ، فلم تصب تلك الحجارة أحداً منهم الا هلك .

(١) قال الجاحظ انها اشباه اليعاسيب . وفى الرحلة الحجازية انها مثل صغار العصافير السود ، ونوعه لا يزال موجودا بالحرم يعيش فى قبابه . وهو معروف فى مكة باسم « أبابيل » .

وقد فشا فيهم داء الجدرى ، الذى أصابهم ولا شك من ميكروب كان كامناً فى الحجارة التى كانت تتساقط عليهم من تلك الطيور .

ويؤيده قول عكرمة : « إن من أصابته الحجرة جدّرته » .

ولعل هذه الحجارة كانت فى بيئة مجدورة فى بلاد العرب ، أو فى غيرها فتشربت من هذه الميكروبات ، وحملتها الطيور إلى هذه الجهة ، فكان منها ما كان .

ولم يكن يعرف مرض الجدرى ببلاد العرب قبل هذا الوقت .

وذكر المؤرخ « بروكوبيوس » (Procope) الذى ولد سنة ٥٠٠ من الميلاد ، ووصل الى رتبة الوزارة فى القسطنطينية فى سنة ٥٦٦ م أن أول ظهور الجدرى فى مصر كان سنة ٥٤٤ م فى مدينة « بيلوز » ـ الفرما ـ وهى مدينة أثرية بالقرب من بورسعيد ، ونقلت جراثيمه الى القسطنطينية سنة ٥٦٩ م . وهى نفس السنة التى ظهر فيها المرض فى جيوش أبرهة حول مكة ، ولا يبعد أن الرياح أو الطيور نقلت إليها ميكروبها فى تلك الأثناء .

وقد أرسل الله سيلا ألقاهم ـ أى جيش أبرهة ـ فى البحر . وخرج من سلم منهم مع أبرهة هاربين ، يبتدرون الطريق الذى جاؤا منه . فكانوا يتساقطون بكل منهل . وأصيب « أبرهة » فى جسده ، فسقطت أعضاؤه عضواً عضواً ، ومات بصنعاء .

ولما أهلك الله الأحباش ، نزل « عبد المطلب » من الغد إليهم لينظر ما يصنعون ، وكان معه « أبو مسعود الثقفى » فلم يسمعا حسًّا ، فدخلا معسكرهم فرأيا القوم هلكى .

ولما ردّ الله الأحباش عن الكعبة ، وأصابهم ما أصابهم ، عظمت العرب

قريشاً ، وقالوا : أهل الله قاتل عنهم .

وفى هذه الواقعة نزلت سورة الفيل التى صدرنا بها هذه الكلمة .

وقد اختلفوا فى تاريخ عام الفيل ، فقيل : كان قبل مولد النبى صلى الله عليه وسلم بأربعين سنة ، وقيل : بثلاث وعشرين سنة .

والأصح الذى اتفق عليه أكثر المؤرخين ، وأهل التفسير ، وعلماء السيّر ، أنه كان فى العام الذى ولد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فانهم يقولون : ولد عام الفيل ، جاعلينه تاريخاً لمولده صلى الله عليه وسلم وكانت تؤرخ به العرب إلى الهجرة ، فيقولون وقع الأمر الفلانى قبل الفيل أو بعده بكذا سنين .

الكعبة المعظمة

« جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ » قرآن كريم

وصف الكعبة : الكعبة بناء مكعب قائم فى وسط المسجد الحرام بمكة ، يبلغ ارتفاعه ١٥ متراً ، وطول ضلعه الشمالى ٩٫٩٢ أمتار ، والجنوبى ١٠٫٢٥ أمتار ، والشرقى ١١٫٨٨ متراً ، والغربى ١٢٫١٥ متراً .

وبابها فى الضلع الشرقى وارتفاعه متران ، ويعلو عن الأرض نحو مترين ، يصعد إليه على مدرج من الخشب مصفح بالفضة — متنقل على عجل فى أسفل قوائمه .

وفى الركن الجنوبى الشرقى للكعبة من الخارج « الحجر الأسود » الذى هو مبدأ الطواف ، وسيأتى الكلام عليه .

ويواجه هذا الركن من البلاد الجزء الجنوبى من بلاد الحجاز إلى عدن وهرر ومدغشقر واستراليا وجنوب الهند والصين .

وركن الكعبة الشمالى الشرقى يسمى بالركن الشامى والعراقى . ويواجهه من البلاد الجزء الأكبر من بلاد الحجاز والعجم وتركستان والعراق وشمالى الهند والسند والصين وسيبريا .

وركن الكعبة الشمالى الغربى ، ويسمى بالركن الغربى ، يواجهه من الجهات غرب الروسيا وجميع أوربا والأستانة وبلاد المغرب ومصر إلى الشلال .

وركن الكعبة الغربى الجنوبى ، ويسمى بالركن اليمانى ، يواجهه من البلاد الجزء الجنوبى من أفريقيا من سواكن على البحر الأحمر والرأس الأخضر على المحيط الأطلسى إلى رأس الرجاء الصالح .

وعلى هذا فكل صقع من الأصقاع يستقبل من الكعبة ركناً .

قال الله تعالى : « وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ »

والكعبة مبنية من الحجارة الصماء ذات الحجم الكبير ، واللون الأزرق وفى داخلها أعمدة ثلاث من خشب العود القاقلى (الماوردى) الجيد ، قطر الواحد منها ٢٥ ر. متر (ربع متر) مقامة صفاً واحداً فى وسط البيت من الشمال إلى الجنوب .

وعلى يمين الداخل فى زاوية الركن الشمالى الشرقى باب يصعد منه على مدرّج إلى أعلى الكعبة ، يقال له : « باب التوبة » عليه ستارة من الحرير المزركش ، مكتوب بها بعد البسملة آية : وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم » الخ بخط المرحوم السيد عبد الله الزهدى المتوفى سنة ١٢٩٦ هجرية .

وفى وسط الستارة من أسفل مكتوب : « أمر بتجديد هذه الستارة الشريفة صاحب الجلالة ملك مصر فؤاد الأول ابن إسماعيل باشا ابن الحاج ابراهيم باشا » بخط المرحوم الخطاط الشهير الشيخ مصطفى الحريرى . — أنظر الرسم الآتى .

كتب على الستارة التى وجهت فى عامنا هذا إلى الحجاز إسم مولانا حضرة صاحب الجلالة فاروق الأول بدلاً عن المغفور له فؤاد الأول ، بخط صديقنا المفضال حضرة صاحب العزة مصطفى غزلان بك رئيس قلم التوقيع بالخاصة الملكية وخطاط حضرة صاحب الجلالة الملك .

رسم ستارة باب التوبة داخل الكعبة

الخمسة الأسطر العليا بخط المرحوم عبد الله الزهدى . والثلاثة الأسطر السفلى بخط صديق المرحوم الشيخ مصطفى الحريرى كتبت سنة ١٣٤٤هـ



(م – ٦)

وسقف الكعبة منقوش بالنقوش العربية البديعة ، ومعلق به تحف فنية من الجواهر الثمينة ، والنفائس الغاليـــة ، مما كان يهديه الى الكعبة الخلفاء والسلاطين والملوك .

وسطحها رصف فى سنة ١٢٩٥ هجرية بالواح من الرخام المرمر .

وبدائره من الجهات الأربع حلق لربط الكسوة من الخارج ، حتى تنسدل عليها بانتظام .

وفى الشاذروان [١] حلقات من نحاس أصفر أيضاً ، لربط الكسوة من أسفل . وقد عدّها المرحوم اللواء ابراهيم رفعت باشا أحد امراء الحج المصرى فاذا هى ١٤ فى الجهة الغربية و١٢ فى الجنوبية و١٤ فى البحرية و٨ فى الشرقية وقال : وفى الغالب مثل ذلك فى الأعلى - راجع مرآة الحرمين

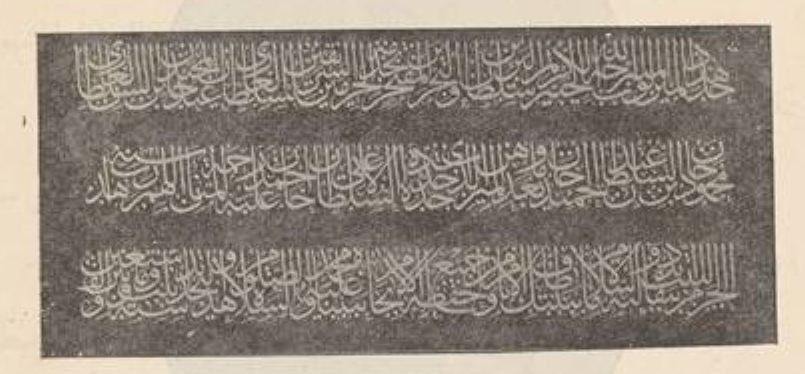
وفى منتصف نهاية الجدار الشرقى من أعلى يوجد الميزاب ، الموضوع لتصريف ماء المطر الذى ينزل على سطح الكعبة . وهو من الذهب ، أرسله السلطان عبد المجيد سنة ١٢٧٣ هجرية . وقد كتب عليه بالقلم الثلث الخطاط الشهير المرحوم عبدالله الزهدى ما نصه : « جدد هذا الميزاب المنير لوجه الله الكريم سلطان البرين والبحرين المفتخر بخدمة الحرمين الشريفين السلطان الغازى عبد المجيد خان ابن السلطان الغازى محمود خان ابن السلطان عبد الحميد خان بعد ما وهن الميزاب الذى جدده جده الأعلى السلطان أحمد خان عليه رحمة المنان سنة ١٠٢١ اللهم رب هذا البيت الحرام أيد بيقاء دولته الاسلام ما طاف ببيتك

---

(١) الشاذروان بناء من الرخام يلاصق جدار الكعبة ، أقيم تقوية للجدران . ويختلف ارتفاعه وعرضه فارتفاعه ما بين ٢٢ إلى ٥٠ سنتيمترا ، وعرضه ما بين ٣٩ إلى ٨٧ سنتيمترا وهو أشبه برصيف عال حول الكعبة . كانت العرب تعمل حاجزاً من التراب يطيف بالدار ، لتمنع الماء أن يدخلها ، ويقال له « تؤى »

الأنام واحفظه من جميع الآلام بجاه نبينا محمد عليه الصلوة والسلام وهذا التجديد سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف »

أنظر الشكل الآتى : —



رسم الكتابة التى على الميزاب

وبما أن المرحوم عبد الله الزهدى كانت له شهرة عظيمة بين الخطاطين ويعد من أساتذة الخط المعروفين فى زمنه ، ولما له من المكانة الأدبية بكتابة الحرمين والكسوة بالحجاز وسبيل أم عباس بالقاهره ، فقد آثرت أن أضع صورته الفوتوغرافية هنا اعترافا بفضله على الخط . وإن كان من شىء يؤخذ عليه فهو عدم سهولة قراءة بعض مايكتبه ، لأنه كان يراعى دائماً الوضع الهندسى للحروف بصرف النظر عن القراءة ، كما يشاهد فى كتابة هذا الميزاب ، التى تستعصى قراءتها .

استمر المرحوم عبد الله بك يخدم الخط ويجوده حتى توفى بمصر سنة ١٢٩٦ هجرية .



عبد الله بك زهدى الخطاط كاتب الحرم الشريف النبوى ، والكسوة الشريفة والميزاب بالكعبة .

وقد نقش على قبره هذه الأبيات : —

مات علم الخط والأقلام قد نكست أعلامها حزنا عليه

وانثنت من حسرة قاماتها بعد ان كانت تباهى فى يديه

ولذا قد قلت فى تاريخه مات زهدى رحمة الله عليه

١٢٩٦

الميازيب بسطح الكعبة

ولا بأس من ذكر الميازيب التى كانت بسطح الكعبة :

فمنها ميزاب عمله الشيخ أبو القاسم رامشت صاحب الرباط المشهور بمكة ، وصل به خادمه بعد موته ٥٣٧ هـ .

وميزاب انفذه الخليفة المقتفى بالله أبو عبد الله محمد بن احمد العباسى سنة ٥٤١ جعل عوض الميزاب السابق .

وميزاب عمله الناصر لدين الله أبو العباس احمد العباسى من خشب مبطن بالرصاص فى الموضع الذى يجرى فيه الماء وظاهره مما يبدو للناس مطلى بالفضة ، وقد حلى هذا الميزاب فى سنة ٧٨١ بمعرفة سودون باشا اثناء عمارته المسجد الحرام

ثم عمل بعد ذلك ميزاب من نحاس ، ثم جعله السلطان سليمان القانونى ، العثمانى من فضة سنة ٩٥٩

وفى سنة ٩٦٢ ورد من مصر ميزاب من ذهب وضع موضع الميزاب الفضة ، وأخذ الأول إلى الخزانة العالية للتبرك به .

وفى سنة ١٠٢١ غيره السلطان أحمد العثمانى بآخر من الفضة منقوش بالذهب والمينا اللازوردية .

وفى سنة ١٢٧٣ جعله السلطان عبد المجيد من ذهب وهو الموجود الآن الذى سبق التكلم عليه .

وأول من حلى الميزاب بالذهب الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموى

فقد أرسل لعامله على مكة ٣٦ ألف دينار ، يضرب منها على باب الكعبة ، وعلى الميزاب ، وعلى الأساطين التى داخلها ، وعلى أركانها من داخل .

وفى سنة ٤٥٥ أخذ بنو الطيب الميزاب وحملوه إلى اليمن فابتاعه صاحب اليمن الذى امتلك مكة أيضاً فى السنة المذكورة ، ورده إلى مكانه .

باب الكعبة

وحيث استطرد بنا الكلام لذكر الميازيب ، فلا بأس أيضاً من أن نذكر على قدر الأمكان الأبواب التى صنعت للكعبة .

فمن تلك الأبواب باب عمله الجواد وزير صاحب الموصل سنة ٥٥٠ هـ وركب سنة ٥٥١ ، وكان منقوشاً عليه اسم الخليفة المقفتى بالله أبو عبد الله محمد بن احمد العباسى

وباب عمله الملك المظفر صاحب اليمن ، لما حج سنة ٦٥٩ وكان عليه صفائح فضة زنتها ٦٠ رطلا صارت لبنى شيبة

وباب من الخشب السنط الأحمر عمله الناصر محمد بن قلاون المتوفى سنة ٧٤١ ، ركب على الكعبة بعد قلع باب المظفر ، وكان عليه من الفضة ٣٥٣٠٠ درهم

وباب من خشب الساج عمله الناصر حسن بن محمد بن قلاون سنة ٧٦١ . وزيدت حليته سنة ٧٧٦ ، فكان مقدارها لا يزيد على ٣٠٠٠٠ درهم . وزيدت مرة أخرى ٢٠٠ درهم .

وطلى الباب بالذهب فى أيام الملك المؤيد أبى النصر شيخ المحمودى سنة ٨١٦

وفى سنة ٩٦١ أمر السلطان سليمان بتصفيح الباب بالفضة .

وفى سنة ٩٦٤ أمر بعمل باب جديد ، فجىء بالأول وركب عليه ألواح من الخشب الآس الأسود ، مصفحة بالفضه المطلية بالذهب .

وقد قدر الذهب بمبلغ ٢٧١٠ أشرفى (دنانير) ، والفضه بنحو ٤ قناطير ووضعت الفضة على أصل الباب القديم المصنوع من الساج ، وأعطى السلطان المذكور بنى شيبة ١٠٠٠ اشرفى عوض الفضة القديمة .

وفى سنة ١٠٤٥ فى أيام السلطان مراد الرابع غير الباب ، وجعل فيه من الحلية الفضية مازنته ١٦٦ رطلا . وطلى بالذهب البندقى بما قيمته ١٠٠٠ دينار .

بناء إبراهيم للكعبة

هذه الكعبة بناها خليل الرحمن « ابراهيم » النبيّ الكريم بمساعدة ولده « إسماعيل » عليهما الصلاة والسلام ، فى الموضع الذى سكنت فيه « هاجر » زوج إبراهيم ، بجوار زمزم ، حيث كان تركها وولدها اسماعيل ، وقصد الى فلسطين ، وأمره الله ببناء الكعبة عند عودته اليهما ، وفى ذلك يقول الله تعالى

« وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ »

وكان ذلك من الله عز وجل ، ليكون البيت الحرام مثابة للناس وأمناً وليكون قبلة للنسّاك والمتعبدين .

فكانت الكعبة التى أمر الله تعالى بأن يولى المسلمون وجوهم شطرها ، بقوله : « فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وجُوهَكُمْ شَطْرَهُ » .

ويشير الله تعالى إلى البيت بقوله : « وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ » .

وكان البيت الحرام أول مسجد أسس للناس ، وفيه يقول الله تعالى :

« إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا »

الكعبة فى أول عهدها

يرجع تاريخ الكعبة إلى نحو ٢٢ قرنا قبل الأسلام ، فانّ سيدنا ابراهيم عليه السلام كان قد ترك قومه كما قدمنا فى « كنعان » ببلاد « أشور » بأرض الجزيرة ، وهاجر إلى « مدين » بأعلى الحجاز حتى حدود العقبة . وهناك جاءه الأمر من الله تعالى بأن يهاجر بزوجه وولده إسماعيل عليه السلام إلى داخل بلاد العرب ، فاستقروا بمكة ، وأقاموا فيها . وكانت معيشتهم إذ ذاك فى الخيام والمضارب

وفى أثناء إقامة « هاجر » وولدها « اسماعيل » بوادى مكة ، عثرت على بئر زمزم ، التى أصبحت للوادى حياة جديدة هامة . وكان يحيط بالبقعة التى سكنتها هاجر قوم من البدو . عرفوا بالعمالقة ، وبنى جرهم .

وكانت أرض وادى مكة قاحلة نادرة المياه ، فسألوها أن تسمح باقامتهم معها ، على أن يكون لها ولولدها الحكم عليهم . فقبلت . وكان فى أثناء ذلك قد ابتنت بيتاً يأويها وإسماعيل . وكان إبراهيم عليه السلام يتردد عليهما من فلسطين زائراً ، فأمره الله تعالى بأن يطهر هذا البيت ، ويجعله مصلًّى للناس ، حيث قال الله تعال : « وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا . . . » الآية ففعل ابراهيم ذلك . ثم أمره الله برفع قواعد هذا البيت ، فهدمه ابراهيم ورفع مع ولده اسماعيل على قواعده الكعبة المعظمة ، وفى ذلك يقول الله تعالى :

« وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرٰهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمٰعِيلُ — الى قوله تعالى . إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ »

ثم أمره الله بعد ذلك بأن يؤذن فى الناس بالحج ، حيث قال : « وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ »

وكان هذا أول العهد ببناء الكعبة المعظمة ، ومن ثم ابتدأت شهرة البيت الحرام ، وذاعت فى التخوم التى كانت تجاور جزيرة العرب . حتى أن كلمة « مكة » نفسها — مكا — بابلية الأصل . ومنعاها « البيت »

وقد جاء ارتفاع البناء ٩ أذرع ، وطول ضلع وجهة البيت الذى فيه الحجر الأسود ٣٢ ذراعاً ، وطول الضلع الآخر الذى فيه الميزاب ، والذى يسمى الركن العراقى ٢٢ ذراعاً ، وطول الضلع الثالث الذى هو مواز للوجه ٣١ ذراعاً ، وطول الضلع الرابع ٢٠ ذراعاً .

وجعل الباب لاصقا بالأرض غير مرتفع عنها بغير مصراع .

وجعل فى بطن البيت على يمين من دخله حفرة لتكون خزانة للبيت يوضع فيها ما يهدى إلى البيت .

وكان ابراهيم عليه السلام يبنى ويساعده ولده اسماعيل حتى وصل البناء إلى موضع الحجر الأسود . فقال ابراهيم لولده : ائتنى بحجر أضعه هنا يكون علماً للناس يبتدئون منه الطواف ، فأتاه بالحجر الأسود الذى سنتكلم عليه بعد .

وقد رصّ ابراهيم الحجر رصا بدون ملاط (مونة) ولم يسقّفه .

الكعبة فى الجاهلية

وظلت الكعبة على البناء الذى وضعه سيدنا ابراهيم الخليل عليه السلام حتى جددها العمالقة ، ثم بنوجرهم ، وهدمت فى القرن الثانى قبل الهجرة الشريفة ، وبنيت من جديد ، عند ما آل أمر البيت إلى « زيد المنعوت بقُصِىّ بن كلاب » أحد أجداد النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد أحكم قصى بناءها على قواعد ابراهيم ، وسقفها بخشب الدوم وجريد النخل .

وكانت خزاعة مستولية على البيت ، وعلى مكة ، وكان كبيرهم « خليل ابن جيشة » الخزاعى بيده مفتاح البيت الشريف ، وسدانته ، فخطب قصى إلى خليل ابنته المسماة « عيسى » فتزوجها ، وكثرت أولاده وأمواله ، وهلك خليل وأوصى بمفتاح البيت لابنته فقالت : لا أقدر على السدانة ، فجعلت ذلك « لأبى غبشان » وكان سكيراً يحب الخمر ، فأعوزه فى بعض الأوقات ما يشربه من الخمر ، فباع مفتاح البيت بزق خمر ، فاشتراه منه قصى وأشهد عليه

ولما علمت خزاعة ذلك أنكرته ، فحاربهم وانتصر عليهم وأخرجهم من مكة ، وولى قصى أمر الكعبة ومكة ، وجمع قومه فملكوه على أنفسهم ، وكانوا يحترمون أن يسكنوا مكة ويعظمونها ، على أن يبنوا بها بيتاً مع بيت الله ، فكانوا يكمنون بمكة نهاراً ، فاذا أمسوا خرجوا إلى الحل ، ولا يستحلون الجنابة بها

ثم قسم جهات البيت الاربع بين طوائف قريش ، وأذن لهم ان يبنوا بمكة بيوتاً حول الكعبة من جهاتها الأربع ، وأن يسكنوها ، وأن يجعلوا أبوابهم إلى جهة البيت الشريف .

وقال لهم : إنكم إن سكنتم الحرم حول البيت ، هابتكم العرب ولم تستحل قتالكم ، ولا يستطيع أحد إخراجكم . فقالوا له انت سيدنا ورأينا تبع لرأيك . فجمعهم حول البيت ، وفى ذلك يقول القائل : —

أبوكم قصى كان يدعى مجمعاً   به جمع الله القبائل من فهر

وأنتم بنو زيد وزيد أبوكم   به زيدت البطحاء فخراً على فخر

وقد تركوا للطواف حول البيت مقداراً يقال أنه المفروش الآن حول البيت الشريف بالحجر المنحوت المسمى بالمطاف .

وقد شرعوا أبواب بيوتهم إلى نحو البيت ، وتركوا ما بين كل بيتين طريقاً ينفذ منه إلى المطاف ، على أن يكون لكل بطن منهم باب ينسب إليه ، كباب بنى شيبة ، وباب بنى سهم ، وباب بنى مخزوم ، وباب بنى جمح . وابتدأهم قصى ، فبنى « دار الندوة » .

وقد اجتمع لقصى مالم يجتمع لغيره من المناصب ، فكان بيده « الحجابة (١) » « والسقاية (٢) » و « الرفادة (٣) » و « النـــدوة (٤) » و « اللواء (٥) » و « القيادة (٦) » .

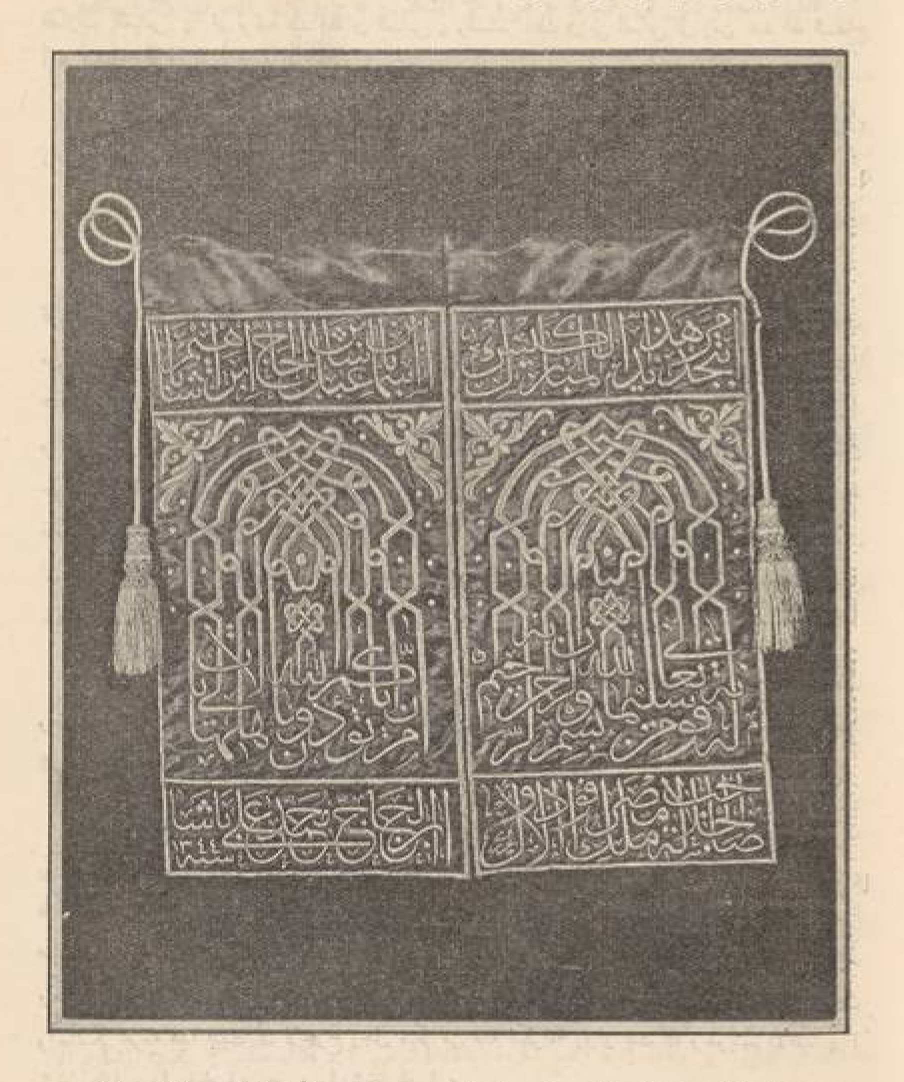
---

(١) الحجابة هى سدانة الكعبة الشريفة أى تولية مفتاح بيت الله وخدمتها والقيام بشأنها ، ولم تزل السدانة فى ذرية « عبد الدار » ولد قصى . حتى مات عثمان بن طلحة ولم يعقب . فصارت الى ابن عمه شيبة بن عثمان . ولا تزال فى يد ولده الى الآن .

وقد حدث فى سنة ٩٩٦ هـ ان فتح الشيخ عبد الواحد الشيبى الكعبة لزيارة النساء جريا على العادة ، فسرق منه المفتاح . وكان مصفحا بالذهب ، فبحثوا عنه فلم يعثروا عليه . ثم وجده سنان باشا باليمن مع رجل اعجمى ، فجز رأسه ورد المفتاح الى الشيخ عبد الواحد . وقد جرت العادة ان يصنع مع الكسوة كيس لمفتاح الكعبة ، يحفظ فيه عند اكبر بنى شيبة ، وقد أطلعنا على صورة كيس عمل سنة ١٣٤٤ منقوش فى احدى جهتيه : بخط الشيخ مصطفى الحريرى قوله تعالى « إنه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم » وفى الوجه الآخر : « ان الله يامركم ان تودوا الامانات الى اهلها » وفوق هذين الآيتين وتحتهما

امر بتجديد هذا الكيس المبارك صاحب الجلالة ملك مصر فؤاد الاول ابن اسماعيل باشا ابن الحاج ابراهيم باشا ابن الحاج محمد على باشا سنة ١٣٤٤

وقد استبدل اسم « فؤاد » « بفاروق» وتاريخ سنة ١٣٥٦ بخط صديقنا المفضال حضرة صاحب العزة مصطفى غزلان بك . واليك صورته



(٢) السقاية هى اسقاء الحجيج كلهم الماء العذب ، وكان عزيزاً بمكة يجلب إليها من الخارج من الآبار فى المزاود والقرب قبل حفر زمزم ، فتوضع فى حياض من أدم توضع بفناء الكعبة ، وربما قذف فيها التمر والزبيب فى غالب الأحوال ، لسقى الحاج أيام الموسم حتى يتفرقوا

ولما حفر عبد المطلب زمزم صار ينقل الماء منها لتلك الأحواض ، ويقذف فيها التمر والزبيب أيضاً ثم بعده قام بها ولده أبو طالب .

واتفق أن أملق أبو طالب فى بعض السنين ، فاستدان من أخيه العباس ١٠٠٠٠ درهم إلى الموسم الآخر ، فصرفها أبو طالب فى الحجيج عامه ذلك فيما يتعلق بالسقاية

فلما كان العام المقبل لم يكن مع أبى طالب شىء ، فقال لأخيه العباس : أقرضنى ١٤ ألفا إلى العام المقبل لأعطيك جميع ذلك . فلما جاء العام الآخر لم يكن مع أبى طالب ما يعطيه لاخيه العباس ، فترك له السقاية فصارت للعباس ، ثم لولده عبد الله بن العباس ، واستمر ذلك فى بنى العباس الى زمن عبد الله السفاح أول الخلفاء العباسيين ، ثم ترك بنو العباس ذلك .

وهذه السقاية الآن حجرة كبيرة شرق الكعبة وجنوبى زمزم ذات نوافذ وسقفها جملى (جمالونى) مرفرف على جدرها ليستظل به الناس .

وقد ذكر القاضى : أن مقدار ما بينها و بين الحجر الاسود ٨٠ ذراعا بالذراع الحديد .

(٣) الرفادة : هى اطعام الحاج ايام الموسم حتى يتفرقوا . وقد قال قصى فى موسم الحج لقريش : قد حضر الحج وقد سمعت العرب بما صنعتم ، وهم لكم معظمون . ولا أعلم مكرمة عند العرب أعظم من الطعام ، فليخرج كل انسان منكم من ماله خرجا ، ففعلوا ، ودفعوه اليه ، فجمع من ذلك شيئا كثيرا . فلما جاء اوائل الحج نحر على كل طريق من طرق مكة جزورا ، ونحر بمكة ، وجعل الثريد واللحم ، وسقى الماء المحلى بالزبيب ، وسقى اللبن ، فكان يأكل ويشرب من لم يكن معه زاد ولا سعة ، حتى قام بها ولده عبد مناف ، ثم بعد عبد مناف ولده هاشم . واتفق انه اصاب الناس سنة جدب شديد فخرج هاشم الى الشام ، وقيل بلغه ذلك وهو بغزة من الشام ، فاشترى دقيقا وكعكا ، وقدم به مكة فى الموسم ، فهشم الخبز والكعك ، ونحر الجزور ، وجعله ثريدا ، واطعم الناس حتى أشبعهم ، فسمى بذلك هاشما . واسمه الحقيقى « عمرو العلا » وكان يحمل ابن السبيل ويؤمن الخائف

وكان اذا هل هلال ذى الحجة قام صبيحته ، وأسند ظهره الى الكعبة من تلقاء بابها ، ويخطب ويقول فى خطبته : « يامعشر قريش : إنكم سادة العرب ، أحسنها وجوها ، وأعظمها أحلاماً ، وأوسط العرب أنسابا ، وأقرب العرب بالعرب أرحاما .

يامعشر قريش : انكم جيران بيت الله تعالى ، أكرمكم الله تعالى بولايته ، وخصكم بجواره ، دون بنى اسماعيل ، وانه يأتيكم زوار الله يعظمون بيته ، فهم أضيافه ، وأحق من أكرم أضياف الله أنتم ، فأكرموا ضيفه ، وزواره ، فانهم يأتون شعثاً غبراً ، من كل بلد ، على ضوامر كالقداح ، فأكرموا ضيفه وزوار بيته . فورب هذه البنية ، لو كان لى مال يحتمل ذلك لكفيتكموه ، وأنا مخرج من طيب مالى وحلاله مالم يقطع فيه رحم ، ولم يؤخذ بظلم ، ولم يدخل فيه حرام ، فمن شاء منكم أن يفعل مثل ذلك فعل وأسألكم بحرمة هذا البيت أن لا يخرج رجل منكم من ماله لكرامة زوار بيت الله وتقويتهم الاطيبا ، لم يؤخذ ظلما ، ولم يقطع فيه رحم ، ولم يؤخذ غصبا »

فكانوا يجتهدون فى ذلك ويخرجون من أموالهم ، فيضعونه فى دار الندوة .

ثم بعد هاشم قام ولده عبد المطلب ، ثم ولده أبو طالب ، وقيل ولده العباس ، ثم استمر ذلك الى زمن النبى صلى الله عليه وسلم وزمن الخلفاء الراشدين بعده ، ثم زمن الخلفاء الامويين والعباسيين الى أن انقرضت الخلافة من بغداد ، ثم من مصر .

احترام الكعبة

قال المسعودى فى كتابه « مروج الذهب » : « إن العرب كانت تحترم مكان الكعبة قبل بناء ابراهيم عليه السلام لها ؛ وإن قوم عاد كانوا يعظمون موضع الكعبة ، وكان ربوة حمراء ، فوفدوا إلى مكة يستسقون ، ولكنهم عكفوا فيها على شرب الخمر . . . ، الخ

فان صح ذلك تكون الكعبة قد احترم مكانها قبل بناء ابراهيم لها ، على أن بعض المؤرخين قد غالى فنسب بناءها إلى أبينا آدم عليه السلام . ولكن الظاهر أن أرض مكة كانت مقدسة عند العرب فى كل تاريخهم .

وكان الفرس يحترمون الكعبة من قديم الزمان ، ويحجون اليها ، بدليل قول احد شعرائهم بعد الاسلام :

« ومازلنا نحج البيت قدماً   ونلقى بالأباطح آمنينا

وقال قطب الدين الحنفى فى كتابه « الاعلام » المؤلف سنة ٩٨٥ : وأما فى زماننا فلا يفعل شىء من ذلك ، ولا أدرى متى انقطع .

(٤) دار الندوة : كانت قريش تجتمع فيها للشورة فى أمورها ولا يدخلها الامن بلغ الاربعين . وكانت سنة قصى أن لاينكح رجل امرأة من قريش الا فى دار الندوة ، ولا يعقد لواء حرب الا فيها ، ولا تدرع جارية من قريش الا فى تلك الدار ، فيشق عنها درعها ، ويدرعها بيده .

فكانت قريش بعد موت قصى يتبعون ما كان عليه فى حياته كالدين المتبع ، فلا زالت هذه الدار فى يد « عبد الدار » الى أن صارت الى « حكيم بن حزام » فباعها فى الاسلام بمائة ألف درهم ، فلامه عبد الله بن الزبير ، وقال : « أتبيع مكرمة آبائك وشرفهم ؟ » فقال حكيم : ذهبت المكارم الا التقوى ، والله لقد اشتريتها فى الجاهلية بزق خمر ، وقد بعتها بمائة ألف ، وأشهدكم أن ثمنها فى سبيل الله تعالى ، فأينا المغبون ؟

(٥) اللواء : راية يلوونها على رمح ، وينصبونها علامة للعسكر اذا توجهوا الى محاربة عدو ، فيجتمعون تحتها ويقاتلون عندها .

(٦) القيادة : أمارة الجيش ، اذا خرجوا الى حرب

وساسان بن بابك سار حتى ... أتى البيت العتيق يطوف دينا

فطاف به وزمزم عند بئر ... لأسماعيل تروى الشاربينا

كما قال غيره :

زمزم الفرس على زمزم ... وذاك من سالفها الأقدم

وتعبد اليهود فى الكعبة على دين ابراهيم عليه السلام ، واحترموها كما احترمها النصارى من العرب ، وكان لهم فيها صور وتماثيل ، منها تمثال ابراهيم واسماعيل وفى ايديهما الأزلام ، وصورة « العذراء والمسيح » حتى انه كان اجتمع على سطح الكعبة من الاصنام ٣٦٠ صنما .

فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة عام الفتح فى السنة الثامنة للهجرة ، أمر بازالة الاصنام التى عليها ، ودعى بماء فجعل يمحو الصور المرســومة على جدرانها ، وكان يطوف بالكعبة حينئذ وهو يقول : « جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً »

وكانت قريش قبل بناء منازلهم حول البيت يحترمونه ، ولا يبيتون فيه ليلا ، وإذا أراد أحدهم قضاء حاجته خرج الى الحلّ ، وقد جاء أنه صلى الله عليه وسلم لما كان بمكة إذا أراد قضاء حاجته خرج إلى « الْغِمسْ » وهو على بعد ثلثى فرسخ من مكة

واستمر الأمر على أنه ليس حول البيت إلا قدر المطاف ، وليس حوله جدار زمن النبى صلى الله عليه وسلم وزمن خليفته ابى بكر الصديق . وقد ادخلت هذه الدور فى المسجد الحرام ، كما سيجىء الكلام عليه .

وقصى هذا هو أول من أوقد النار بمزدلفة ، ليراها الناس من عرفة ليلة

النفر . فلما كبر قصى وضعف بدنه أعطى ولده عبد الدار كل ما كان بيده من أمر قومه . ولما هلك قام على أمره بنوه من بعده .

ثم إن بنى عبد مناف هاشما ، وعبد شمس ، والمطلب ، ونوفلا ، أجمعوا على أن يأخذوا ما بأيدى بنى عبد الدار من الحجابة ، واللواء ، والسقاية ، والرفادة ، ورأوا أنهم أولى بذلك منهم لشرفهم عليهم وفضلهم .

وتفرقت قريش ، فكانت طائفة منهم يرون أن بنى عبد مناف أحق من بنى عبد الدار ، وطائفة يرون إبقاء بنى عبد الدار على ما جعله قصى لأبيهم . فأجمعوا على الحرب . ثم اصطلحوا على أن تكون السقاية ، والرفادة ، لبنى عبدمناف . والحجابة ، واللواء ، والندوة ، لبنى عبدالدار ، وتحالفوا على ذلك . فولى الرفادة والسقاية هاشم . وكان عبد شمس سفارا مقلا ذا ولد ، وكان هاشم موسرا ، وهو أول من سن الرحلتين لقريش : « رحلة الشتاء والصيف » قال الشاعر :

عمرو الذى هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف
سنت إليه الرحلتان كلاهما سفر الشتاء ورحلة الأصياف

ولما هلك هاشم ولى الرفادة والسقاية أخوه المطلب عبدمناف ، وكان ذا شرف وكرم ، وكان يسمى « الفيض » لسماحته ، وكرمه ، وفضله . وكان أصغر من عبد شمس . فتوفى المطلب بدومان من أرض اليمن ، وتوفى عبد شمس بمكة ، وتوفى نوفل بالعراق .

ثم ولى عبد المطلب بن هاشم « السقاية والرفادة » بعد عمه المطلب ، فأقام لقومه ما كانت تقيمه آباؤه من قبله ، وشرف فى قومه شرفا لم يبلغه أحد من آبائه ، وأحبه قومه .

وكان أكبر أولاده « الحارث » لم يكن له أول أمره غيره ، وبه كان يكنى . فقال عدى بن نوفل بن مناف : « ياعبد المطلب : أتستطيل علينا وأنت فذ لاولد لك ؟ » فقال عبد المطلب : أو بالمقلة تعيرنى ؟ فوالله

لئن آتانى الله عشرة من الولد لأنحرن أحدهم عند الكعبة . فلما كمل له عشرة جمعهم ثم أخبرهم بنذره ، ودعاهم إلى الوفاء بذلك ، فأطاعوه ، وقالوا له : « أوف بنذرك ، وافعل ما شئت » قال : ليأخذ كل واحد منكم قدحا فيكتب فيه اسمه ، ثم ائتونى . ففعلوا . ودخل بهم على « هبل » فقال عبدالمطلب لصاحب القداح : اضرب على هؤلاء بقداحهم ، وأعطاه كل واحد قدحه

وكان عبد الله بن عبدالمطلب أصغرهم سنا ، وأحبهم إلى والده ، ثم ضرب صاحب القداح فخرج السهم على عبد الله ، فأخذ عبد المطلب بيده ، وأخذ الشفرة ثم أقبل به على « اساف » ليذبحه عنده . فجذب العباس عبد الله من تحت رجل أبيه ، حتى أثر فى وجهه شجة لم تزل فى وجه عبدالله إلى أن مات .

فقامت قريش من أنديتها ، وقالوا : « لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتى بابنه فيذبحه . فما بقى الناس على هذا ، ولكن اعذر فيه ، فنفديه بأموالنا »

وكان بالحجاز « عرافة » كاهنة لها تابع من الجن ، فانطلقوا حتى قدموا عليها ، وقص عليها عبد المطلب خبر نذره ، فقالت لهم : « ارجعوا عنى اليوم حتى يأتينى تابعى فأسأله » فرجعوا ، ثم غدوا عليها . فقالت : « كم الدية فيكم »؟ فقالوا : عشرة من الابل . فقالت : قربوا عن ولدكم عشرة من الابل ، ثم اضربوا عليها وعلى ولدكم ، واستمروا كذلك إلى أن يخرج السهم على الابل فانحروها عنه ، فقد رضى ربكم ، ونجا ولدكم » فخرجوا حتى قدموا مكة ، فقربوا ١٠ من الابل ، وضربوا القداح ، فخرج القدح على عبدالله ، فزادوا ١٠ ، فخرج على عبدالله ، واستمروا يزيدون عشرة فعشرة حتى بلغت الابل ١٠٠ فخرج القدح على الابل ، فاعادوها ثانية ، ثم ثالثة فخرج القدح على الابل فاتى بها فنحرت ، ثم تركت لا يمنع من لحومها آدمى ، ولا وحش ، ولا طير .

قال الزهرى : وكان عبد المطلب أول من سن دية النفس ١٠٠ من الابل فجرت فى قريش ، ثم فى العرب ، وأقرها رسول الله صلى الله عليه وسلم

وعبد الله هذا هو والد رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم .

بناء قريش الكعبة

لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من عمره الشريف ٣٥ سنة ، جاء سيل فاخرب الردم الذى كانوا صنعوه لمنع السيول عن البيت ، ودخل الكعبة ، وصدع جدرانها . وكان قد أصابها من قبل ذلك حريق ، فان امرأة بخرّتها فطارت شرارة فى ثياب الكعبة ، فاحترقت ستورها ، وأكثر أخشابها . فأرادت قريش هدمها واعادة بنائها — لما وجدت من آثار السيل والحريق — وأن يشيدوا بنيانها ، ويرفعوا بابها ، حتى لايدخلها إلا من شاءوا له الدخول

واجتمعت القبائل من قريش تجمع الحجارة ، كل قبيلة على حدة . واعدّوا لذلك نفقة (اكتتابا) من مال حلال .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل معهم الحجارة ، كما روى الشيخان عن جابر بن عبدالله (١) رضى الله عنهم أجمعين

ثم عمدوا اليها ليهدموها ، على شفق وحذر من أن يمنعهم الله تعالى ماأرادوا ، بأن يوقع بهم البلاء

فقال لهم الوليد بن المغيرة : « أتريدون بهدمها الاصلاح أم الاساءة ؟ »

قالوا : « بل نريد الاصلاح » قال : « فان الله لايهلك المصلحين »

قالوا : «من الذى يعلوها فيهدمها ؟ » قال : « أنا أعلوها وأنا أبدؤكم فى

---

(١) لما بنيت الكعبة ذهب النبى صلى الله عليه وسلم وعباس ينقلان الحجارة . فقال عباس للنبى صلى الله عليه وسلم اجعل إزارك على رقبتك يقيك من الحجارة ، فخر إلى الأرض وطمحت عيناه إلى السماء ، ثم افاق فقال : إزارى أزارى ، فشد عليه إزاره . اه

هدمها » . فأخذ المعول ثم قام عليها وهو يقول : « اللهم لاترع » ويقال . «اللهم لانريد إلا الخير » فهدم من ناحية الركنين . فتربص الناس تلك الليلة ، وقالوا : « ننظر فان أصيب لم نهدم منها شيئا ، ورددناها كما كانت ، وإن لم يصبه شيء « هدمناها ، فقد رضي الله ماصنعنا »

فأصبح الوليد من ليلته غاديا إلى عمله ، فهدم ، وهدم الناس معه ، حتى انتهى الهدم إلى الأساس الذى كان وضعه « ابراهيم » عليه السلام .

وكان البحر قد رمى بسفينة انكسرت إلى ساحل جدة ، وكانت لرجل من تجار الروم اسمه « باقوم » وكان بناء نجاراً ، وكان فيها رخام وخشب وحديد سرحها القيصر معه لاصلاح الكنيسة التى حرقها الفرس بالحبشة ، فخرج الوليد ونفر من قريش إلى السفينة ، فابتاعوا خشبها ، فأعدّوه لسقف الكعبة وكلفوا « باقوم » بالبناء . فبناها مدماكا من خشب الساج ، ومدماكا من الحجارة . وزادوا فى ارتفاعها تسعة أذرع ، فصار ١٨ ذراعاً ، ورفعوا بابها من الأرض ، فكان يصعد اليها بدرج ، وجعلوا سقفها من خشب الدوم ، وجريد النخل . ولم يكن لها سقف قبل ذلك كما قدمنا .

وكانت قد ضاقت بهم النفقة عن بنيانها على تلك القواعد ، فأخرجوا منها « الحِجر » وبنوا عليه جداراً قصيراً علامة على أنه من الكعبة .

ولما وصلوا بالبناء إلى موضع « الحجر الأسود » تنازعوا أيهم يضعه حتى أعدوا للقتال . فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً ، ثم تحالفوا هم وبنو عديٍّ على الموت ، بأن أدخلوا أيديهم فى ذلك الدم فى تلك الجفنة ، فسموا « لعقة الدم » .

ومكث النزاع بينهم أربع ليال أو خمساً ، ثم اجتمعوا فى المسجد الحرام

وبينهم « أبو أمية حذيفة بن المغيرة » ، وكان أسنّ قريش كلها يومئذ . فقال لهم : يامعشر قريش «اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه حكماً ، هو أول من يدخل عليكم من باب بنى شيبة » وكان يقال له فى الجاهلية باب بنى عبدشمس ، ويقال له الآن : باب السلام .

فكان أول داخل من ذلك الباب « محمد بن عبد الله » صلى الله عليه وسلم وكانوا يعرفونه بالأمين ، لوقاره ، وهديه ، وصدق لهجته ، واجتنابه المساوىء ، والأدناس . فحكموه فيما تنازعوا فيه ، وانقادوا إلى قضائه . وقد كانوا يتحاكمون إليه صلى الله عليه وسلم فى الجاهلية .

فلما أخبروه الأمر بسط ماكان عليه من رداء ، وقيل : كساء[1] ، وأخذ عليه السلام الحجر .فوضعه بيده الشريفة فى وسطه ، ثم قال لأربعة رجال من قريش وأهل الرياسة فيهم والزعماء منهم : ليأخذ كل واحد منكم بناحية من هذا الرداء ، فأخذوا حتى ارتفع من الأرض ، وأدناه من موضعه . فأخذ عليه السلام الحجر ، ووضعه فى مكانه ، وقريش كلها حضور . وأعادوا الصور الملونة التى كانت فى حيطانها ، وهى صور الأنبياء ، ومن جملتهم ابراهيم واسماعيل والملائكة ومريم والمسيح عليهم السلام .

وقد جعلت قريش ارتفاع البيت ١٨ ذراعاً بزيادة ٩ أذرع على ماعمره الخليل ابراهيم ، ونقصوا من عرضها أذرعاً من جهة الحجر لقصر النفقة الحلال التى أعدّوها لعمارة البيت ورفعوا بابها عن الأرض ، ليدخلوا من شاءوا ، ويمنعوا من أرادوا . وكبسوها بالحجارة ، وجعلوا فى داخلها ست

---

(١) الرداء ما يلف على أعلى الجسم ، والكساء ما يلف على أسفل الجسم

دعائم فى صفين ، ثلاث فى كل صف ، من الشمال إلى الجنوب ، وجعلوا من داخلها فى ركنها الشامى مرقاة يصعد منها إلى سطح الكعبة ، الذى جعلوا فيه ميزابا يصب فى الحجر

وقد أبقوا الحفرة التى كانت فى داخلها وهى التى حفرها سيدنا ابراهيم وجعلها خزانة للناس يلقون فيها من هداياهم التى تهدى إلى البيت من الحلى والمتاع ، كالطيب .

الحجر الاسود

كان العرب يعتقدون أن « الحجر الأسود » نزل من السماء . وبه أخذ بعض الفقهاء . ولم يسمع عنهم أنهم عبدوه ، مع احترامهم له ذلك الاحترام الذى لايمكن تصويره

ولا ندرى إن كان وصل إليهم من طريق النيازك ، أو من طريق آخر

وكان له عندهم شأن عظيم جدا ، حتى أنه لما حصلت الحرب بين «إياد» و « مضر » ابنى «نزار» ، ودارت رحاها على « اياد » قلعت هذا الحجر ، ودفنته بجبل « أبى قبيس » فرأت ذلك امرأة من «خزاعة» فأخبرت قومها فاشترطوا على «مضر» إن هم ردوا الحجر جعلوا ولاية البيت فيهم . فوفوا لهم بذلك ، فردوه ، ومن ثم صارت ولاية البيت فى « خزاعة »

واحترام الأحجار شائع من قديم الزمان فى كل أمة ، فمنهم من كانوا يعبدونها لذاتها ، ومنهم من كانوا يجعلونها رمزاً لآلهتهم .

وقد ورد كثير منها فى « الرحلة الحجازية » لصديقنا المفضال المؤرخ الثقة ، حضرة صاحب العزة محمد لبيب البتنونى بك .

ومن الحجارة المقدسة المحترمة عند اليهود ، والنصارى ، والمسلمين؛على السواء « صخرة بيت المقدس » التى كانت محل قربات ابراهيم واسحاق ويعقوب وداود وسليمان وغيرهم من أنبياء بنى اسرائيل عليهم السلام وكانت قبلة للمسلمين قبل الكعبة.

ثم صخرة النبى « أيوب » عليه السلام ، فى قرية « الشيخ سعد » على طريق السكة الحديدية بين المزيريب والشام

ويقصد زيارتها والتبرك بها خلق كثير من جميع الآفاق على اختلاف جنسياتهم ودياناتهم .

هذه الحجارة لم تقدس لذاتها ، ولكن لعلاقتها بشيء مقدس محترم — وعليه فالحجر الأسود الذى وضعه سيدنا «ابراهيم» عليه السلام فى الكعبة ، إما أن يكون وضعه تذكاراً لصدعه بأمر ربه برفع قواعد هذا البيت المعظم ، وإما أن يكون للعهد الذى أخذه « ابراهيم » على نفسه ، وولده ، بجعله هذا البيت مثابة للناس ، وإما أن يكون قد أقامه «ابراهيم» حجة عليه وعلى ولده ، بأن هذا البيت قد انتقل من ملكيتهم الى الله تعالى ، ليكون للناس مصلىً ، ومسجدا ، للطائفين ، والعاكفين ، والركع السجود

ووضعه فى الركن الأقرب إلى الباب ، وهو الجنوب الشرقى للكعبة من الخارج . ليكون أول حدود هذا البيت المكرم الذى يبتدىء منه الطائفون . وجعل لونه أسود لسهولة تعيينه ، وتحديد مكانه .

لذلك كان هذا الحجر محترما من «ابراهيم» محترما من ولده ، محترما من المسلمين ، إلى اليوم ، وإلى الغد

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقف عند هذا الحجر ويقول . « إنى لأعلم أنك حجر لاتضرولاتنفع » ثم يقبله . وكان لايزاحم عليه ، ولايخلى له المطاف ، بل كان اذا وجده خالياً قبله ، وإذا لم يجده خالياً أشار إليه بيده أو بعصًا معه .

وقد وقف أمامه « أبو بكر الصديق » رضى الله عنه ، وقال : « إنى لأعلم أنك حجر لاتضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ماقبّلتك » ثم قبّله .

وكذلك فعل « عمر بن الخطاب » رضى الله عنه ، وبعد ماقبله وبكى حتى علانشيجه ، أى غص بالبكاء ، التفت الى ورائه فرأى « عليا » كرم الله وجهه

فقال : ياأبا الحسن ، هاهنا تسكب العبرات ، وتستجاب الدعوات

قال عمر ذلك لأن الناس كانوا حديثى عهد بعبادة الأصنام ، فخشى أن يظن الجاهل أن استلام الحجر الأسود من باب تعظيم الأحجار ، كما كانت العرب تفعل فى الجاهلية ، فأراد أن يعلم الناس أن استلامه اتباع لفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا لأن الحجر يضر وينفع بذاته .

فاذا كان هذا الحجر لا ينفع ولا يضر — كما قال « عمر » تعليما للناس وأقره عليه جميع الصحابة ، وكان استلامه وتقبيله لمحض الطاعة والاتباع لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما يتبع فى سائر العبادات ، فما حكمة جعل ماذكر من العبادة ؟ وهل يصح ماقيل : من أن النبى صلى الله عليه وسلم تركه فى الكعبة — مع أنه من آثار الشرك — تأليفا للمشركين ، واستمالة لهم إلى التوحيد ؟

والجواب : أن الحجر ليس من آثار الشرك ، ولا من وضع المشركين ، وانما هو من وضع إمام الموحدين « ابراهيم » صلى الله عليه وسلم ، جعله فى بيت الله ليكون مبدأ الطواف بالكعبة ، يعرف بمجرد النظر اليها ، فيكون الطواف بنظام لا يضطرب فيه الطائفون ، وبهذا صار من شعائر الله يكرم ويقبل ويحترم لذلك كما تحترم الكعبة لجعلها بيتا لله تعالى وإن كانت مبنية بالحجارة ، فالعبرة بروح العبادة النية والقصد ، وبصورتها الامتثال لأمر الشارع ، واتباع ماورد بلا زيادة ولا نقصان ، ولهذا لا تقبل جميع أركان الكعبة عند جمهور السلف ، وان قال به وبتقبيل المصحف وغيره من الشعائر الشريفة بعض من يرى القياس فى الأمور التعبدية .

وتعظيم الأحجار معروف فى جميع الأمم كما سبق

وعلى ذلك فيكون هذا الحجر أقدم أثر تاريخى دينى ، لأقدم إمام موحد ، وهو سيدنا ابراهيم عليه السلام ، الذى أجمع على تعظيمه مع المسلمين ، اليهود ، والنصارى

وقد علم بهذا أن الحجر له مزية تاريخية دينية ، وإن كان الأصل فى وضعه بلون مخالف للون البناء اهتداء الناس بسهولة إلى جعله مبدأ الطواف . ولنا مع علمنا بهذا أن نقول : إن الله تعالى أن يخصص ماشاء من الأجسام ، والأمكنة ، والأزمنة بما شاء لروابط العبادة والشعائر ، فلا فرق بين تخصيص الحجر الأسود بما خصصه به ، وبين تخصيص البيت الحرام والمشعر الحرام وشهر رمضان والأشهر الحرم بما خصت به ، ومبنى العبادات على الاتباع ، لا على الرأى .

على أنه لم يسمع بكلية عن عرب الجاهلية أنهم عبدوا هذا الحجر فيما عبدوا من الأحجار ، مع احترامهم له كل الاحترام ، وإجلالهم إياه

وعلى كل حال فان الحجر الأسود عند المسلمين محترم مكرم معظم ، لا لذاته ، ولكن لكونه شعاراً لربوبية الله تعالى ، ورمزاً لسلطانه ، يعرض عليه المسلمون ، فيستلمونه ، ويقبلونه ، أو يسلمون عليه من بُعدٍ باحترام واحتشام .

وعليه فهو فى ذلك كأعلام الدول ، التى لا تحترم لكونها قطعة من القماش مرفوعة على قطعة من الخشب ، بل لأنها تمثل سلطان الملوك ، وعظمة الممالك

وقد أشار « أبو طالب » عم النبى صلى الله عليه وسلم إلى هذا الحجر فى قصيدته اللامية الشهيرة التى أولها :

« ولما رأيت القوم لا وُدّ عندهم وقد قطعوا كل العرى والوصائل »

فقال :

وبالبيت حق البيت من بطن مكة وبالله إن الله ليس بغافل
وبالحجر المسودّ إذ يمسحونه [1] إذا اكتنفوه بالضحى والأصائل
وموطىء ابراهيم بالصخر رطبة على قدميه حافيا غير ناعل

وقد مدح بعضهم هذا الحجر فقال :

إلى سيد الأحجار فى الحرم الذى قضى الخالق البارى بتعظيم شأنه
حثثنا مطايا الشوق والسوق فى الفلا فجاءت بنا انسان عين زمانه

استمر هذا الحجر بالكعبة حتى تهدمت ، وبناها القرشيون .

وكان من أمره ما ذكرناه عند ذكر الكعبة ، وكيف أن النبى صلى الله عليه وسلم أعاده إلى موضعه

ولما احترقت الكعبة فى عهد عبد الله بن الزبير تصدع الحجر فكان ثلاث فرق وانشظت منه شظية كانت عند بعض آل بنى شيبة

ولما هدمها ابن الزبير وأعاد بناءها سنة ٦٥ من الهجرة حفظ هذا الحجر عنده مدة العمارة ، وقد شدّه بالفضة ، ما عدا الشظية . ثم تزلزلت الفضة حول الحجر ، وخيف عليه أن ينقض ، فلما اعتمر هرون الرشيد فى سنة ١٨٩ أمر بالحجارة التى بينها الحجر فنقبت بالماس من فوقها ومن تحتها ثم أفرغ فيها الفضة

وفى سنة ٣١٧ سيّر أبو محمد على المقتدر بالله الخليفة العباسى ركب

(١) وفى رواية إذ يلثمونه

الحاج مع منصور الديلمى ، فوصلوا إلى مكة سالمين ، فوافاهم يوم التروية (١)
أبو سليمان القرمطى (٢) فقتل الحجيج قتلا

(١) يوم التروية هو ثامن ذى الحجة ، لأن سقاية الحاج بالمسجد الحرام كانت تملأ فى الجاهلية والاسلام ، ويسق الحجيج منه حتى يروون ، وينهضون إلى «منى» ولاماء بها ، فيتزودون ريّهم من الماء ، وقيل : لأنهم كانوا يحملون الماء من مكة على الروايا ، وهى الجمال التى يستقى عليها الماء ، وقيل : لأن فيه فجر الله لاسماعيل عين زمزم فشرب منها حتى روى وقيل لأن فيه تجلى الرب للجبل ، كما ذكر فى قصة موسى عليه السلام .

(٢) القرمطى نسبة الى (قرمط) رجل ظهر فى أيام أبى الفضل جعفر المتوكل على الله الذى ولى الخلافة سنة ٢٣٢ هـ وقيل فى أيام المعتمد على الله أبى جعفر احمد الذى ولى سنة ٢٥٦ وادعى النبوة ودعا أهل السواد أو البادية ممن ليس لهم عقل ولا دين الى مذهبه فلم يزل يتبعه الناس قليلا قليلا ، حتى اشتدت شوكته ، وعظم أمره فى سنة ٢٧٨ .

وكان مما دعاهم اليه أنه جاء بكتاب فيه « بسم الله الرحمن الرحيم » يقول الفرج ابن عثمان وهو من قرية يقال لها نصرانة ، انه داعية المسيح ، وهو عيسى . وهو الكلمة ، وهو المهدى ، وهو احمد بن محمد بن الحنفية ، وهو جبريل ، وان المسيح تصور فى جسم انسان وقال : انك الداعية وانك الحجة وانك الناقة وانك الدابة وانك يحي بن زكريا وانك روح القدس ، وعرفه أن الصلاة أربع ركعات : ركعتان قبل طلوع الشمس ، وركعتان قبل غروبها ، وأن الأذان فى كل صلاة أن يقول المؤذن : الله أكبر ثلاث مرات ، أشهد أن لا اله الا الله مرتين ، أشهد أن آدم رسول الله ، أشهد أن نوحا رسول الله ، أشهد أن ابراهيم رسول الله ، أشهد أن عيسى رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن أحمد بن محمد بن الحنفية رسول الله ، وأن القبلة الى بيت المقدس ، وأن الجمعة يوم الاثنين ، لايعمل فيها شيء ، ويقرأ فى كل ركعة الاستفتاح وهو المنزل على أحمد بن محمد بن الحنفية ، وهو : « الحمد لله بكلماته ، وتعالى باسمه المتجد لأوليائه بأوليائه قل : ان الأهلة مواقيت للناس ، ظاهرها ليعلم عدد السنين والحساب والشهور والأيام ، وباطنها لأوليائى الذين

عرفوا عبادى سبيلى واتقونى يا أولى الألباب ، وأنا الذى لا أسأل عما أفعل ، وأنا العليم الحليم ، وأنا الذى أبلو عبادى وأمتحن خلق ، فمن صبر على محنتى ، وبلائى واختيارى ، أدخلته فى جنتى وأخلدته نعيمى ، ومن زل عن أمرى وكذب رسلى أخلدته بها مهانا فى عذابى ، وأتممت أجلى ، وأظهرت أمرى على ألسنة رسلى ، وأنا الذى لم يعل جبار إلا وضعته ، ولا عزيز إلا اذللته ، وبئس الذى أجبر على أمره ، ودام على جهالته ، وقال لن نبرح عليه عاكفين ، وبه موقنين ، أولئك هم الكافرون » ثم يركع .

ومن شرائعه أن يصام يومان فى السنة ، وهما المهرجان ، والنيروز ، وأن النبيذ حرام ، والخمر حلال ، ولا غسل من جنابة ، لكن الوضوء كوضوء الصلاة وأن يؤكل كل ذى ناب ، وكل ذى مخلب . اه

ومن القرامطة أيضا « على بن الفضل » ظهر بصنعاء اليمن فى سنة ٢٩٣ وارتكب المحظورات ، وأحل لأصحابه الخمر ، ونكاح البنات وسائر المحرمات .

وكان عنوان كتابه . « من باسط الأرض وداحيها ، ومزلزل الجبال ومرسيها على بن الفضل ، الى عبده فلان » :

وكان يؤذن فى مجلسه . أشهد أن على بن الفضل رسول الله ، وكان ينشد على المنبر بصنعاء . -

خذى الدف يا هذه واضربى وغنى هذا ذيك ثم اطربى
تولى نبى بنى هاشم وهذا نبى بنى يعرب
أحل البنات مع الأمهات ومن فضله زاد حل الصبى
وقد حط عنا فروض الصلاة وحط الصيام ولم يتعب
اذا الناس صلوا فلا تنهضى وان أمسكوا فكلى واشربى
ولا تطلبى السعى عند الصفا ولا زورة القبر فى يثرب
ولا تمنعى نفسك الناكحين من الأقربين أو الأجنبى
فلم ذا حللت لهذا الغريب وصرت محرمة للأب
أليس الفراش لمن ربه وأسقاه فى الزمن المجدب
وما الخمر الا كماء السماء حلال فقدست من مذهب

وهى قصيدة طويلة حلل فيها سائر المحرمات - لعنه الله - وقد هلك مقصودا مسموما فى سنة ٣٠٣ ولم تزل شوكة القرامطة تشتد حتى حصروا دمشق ، فصالحهم أهلها على مال يحملونه اليهم ، فانصرفوا عنهم . ثم حاصروها ثانية وملكوها بالسيف . ثم ساروا إلى « حماه » و «المعرة» وغيرهما ، فقتلوا كل من فيها ، حتى النساء ، والأطفال ، واخذوا أموالهم .

وعهد قرمط الى ابن عمه ، وسماه « المدثر » وزعم أنه « المدثر » المذكور فى القرآن ، وأخافوا البلاد ، وقاوموا الخلفاء وقهروهم .

وفى سنة ٣١٦ انشئوا مدينة « هجر » من البحرين ، وجعلوها دار اقامتهم

ولما ولى الخلافة أبو محمد المكتفى بالله سنة ٢٨٩ بعث اليهم جيوشاً كان النصر حليفها ، فانهزمت القرامطة ، وأخذ « قرمط » و « المدثر » وغيرهما أسرى ، وحملوا الى بغداد ، فضربت أعناقهم وطيف برءوسهم المدينة

ثم أقام القرامطة فيهم رئيساً يدعى « زكرويه » ثم عادوا ففتحوا دمشق عنوة ونهبوها ثم ساروا الى الكوفة ، فبعث اليهم المكتفى ٥٠ الف مقاتل فلم يصمدوا للحرب وانكسروا ، فقوى القرامطة بما نهبوا منهم . ثم ساروا الى العراق ، وأخذوا الحجاج العراقيين ، وقتلوهم عن آخرهم ، وكان عدتهم عشرين ألفا وأخذوا أموالهم .

ثم بعث اليهم المكتفى جيوشاً أعظم من الأولى ، فانهزمت القرامطة ، واخذ « زكرويه » اسيراً ومات .

فأقاموا رجلا يدعى « أبو سعيد الحسن بن بهرام » فظل فيهم مدة مديدة وقتله خادم له .

فاقاموا رئيساً آخر يدعى « أبو طاهر سليمان » ولد أبى سعيد المذكور ، وأغاروا على «البصرة» وقتلوا عاملها ، وأقاموا بها ١٧ يوما يقتلون ويحملون الأموال ثم عاودوا الحجاج العراقيين ، فأخذوا أموالهم ، وتركوهم بلا زاد ولا راحلة حتى هلكوا كلهم بالجوع والعطش

ثم عادوا إلى الكوفة وأقاموا نحو أسبوع ، يقتلون أهلها ويحملون أموالهم . فسار اليهم من « واسط » « أبو الساج » بأربعين ألف مقاتل ، وكان عدة القرامطة ١٥٠٠ فقط . فلما رآهم أبو الساج احتقرهم ، وقال : « صدروا الكتب للخليفة بالنصر ، فهؤلاء فى قبضتنا » إلا أن الدائرة كانت على أبى الساج ، فأخذ أسيراً وقتل مع أكثر العسكر .

ثم استولت القرامطة بعد ذلك على غالب البلاد الفراتية .

ولما ولى الخلافة المقتدر بالله ابو محمد على سنة ٢٩٥ ، بعث فى ولايته اليهم ٥٠ ألف مقاتل فانتصر القرامطة عليهم . ثم توجهوا إلى مكة ، وكبسوا الحجاج يوم التروية ، وقتلوهم عن آخرهم حتى فى المسجد الحرام ، وطرحوا القتلى فى بئر زمزم ، وقتل أمير مكة ابن محارب وقلعوا باب البيت ، وأخذ كسوة البيت وخزائنه وما فيها من الذهب والفضة وما نهبه من اموال الحجاج ، فقسمه من أصحابه ، وأراد أخذ حجر المقام الذى فيه صورة قدم سيدنا « ابراهيم » عليه السلام فلم يظفر به ، لأن سدنة الكعبة أخفوه وغيبوه فى شعاب مكة ، فاغتاظ لذلك ، وأمر جعفر بن ابى علاج البناء بقلع الحجر الأسود ، فقلعه ، وكان يقول ابو طاهر :

فلو كان هـذا البيت لله ربنا ... لصب علينا النار من فوقنا صبا

لأنا حججنا حجة جاهلية ... محللة لم تبق شرقا ولا غربا

وانا تركنا بين زمزم والصفا ... جنائز لا تبغى سوى ربنا ربا

وجاس على باب الكعبة ، والرجال تضرع حوله فى المسجد الحرام وهو يقول :

أنا بالله وبالله أنا ... يخلق الخلق وأفنيهم أنا

ولم يحج فى هذا العام أحد ولا وقف بعرفة الا عدد يسير وقفوا بدون امام ، وأتموا حجهم .

أقام هذا الطاغية بمكة ١١ يوما ، ثم انصرف الى بلده « هجر » وحمل معه الحجر الأسود ، وباب الكعبة ، يريد أن يحول الحج الى المسجد الضرار الذى سماه « دار الهجرة » وعلقه فى الاسطوانة السابعة مما يلى صحن المسجد من الجانب الغربى من المسجد

ولما ايست القرامطة عن تحويل الحجاج الى « هجر » ردوا الحجر الأسود فى سنة ٣٣٩ مع أبى محمد بن سنبر بن الحسين القرمطى الى مكة فى خلافة المطيع لله الفضل بن المقتدر

وقد انقطع الحج فى هذه السنين خشية منهم

وكان قد دفع فيه مدبر الخلافة الاسلامية ببغداد الأمير « بجكم » ٥٠ ألف دينار فما قبلوا ، وكذلك طلب المنصور ابن القائم ابن المهدى الفاطمى من القرمطى أحمد بن سعيد أخى طاهر أن يرد الحجر الأسود ويأخذ ٥٠ ألف دينار ، فلم يقبل وقال القرمطى : « اخذناه بأمر ، وما نرده الا بأمر . فلما ردوه قالوا : « رددناه بأمر من أخذناه بأمره » وكذبوا فان الله تعالى قال : « وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا » فكذبهم الله بقوله : « قُلْ إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ »

وان عنوا بالأمر القدر ، فليس ذلك حجة لهم ، فالله تعالى قدر عليهم الضلال والمروق من الدين ، وقدر عليهم أن يدخلهم النار فلا ينفعهم قولهم : « أخذناه بأمر » .

وكان القرمطى لما تم له فتح مكة أمر أن يخطب لعبيد الله المهدى اول الخلفاء الفاطميين ، فبلغ عبيدالله من ذلك ، فكتب اليه : «ان اعجب العجب ارسالك بكتبك ممتناً بما ارتكبت فى بلد الله الأمين من انتهاك حرمة بيت الله الحرام ، الذى لم يزل محترما فى الجاهلية والاسلام ، وسفكت فيه دماء المسلمين وفتكت بالحجاج والمعتمرين ، ثم تجرأت على بيت الله ، وقلعت الحجر الأسود ، وحملته الى أرضك ، ورجوت أن أشكرك على ذلك ، فلعنك الله ثم لعنك الله ، والسلام على من سلم المسلمون من لسانه ويده وقدم فى يومه ما ينجو به فى غده »

فلما وصل هذا الى أبى طاهر انحرف عن طاعته

ولما أتوا بالحجر الأسود أعطاهم المطيع لله الخليفة العباسى مالا له جرم .

ولما حضر « ابن سنبر » بالحجر الى مكة وجد عليه ضباب فضة قد عملت من طوله وعرضه ، تضبط شقوقا قد حدثت عليه بعد انقلاعه ، فأحضر له صانعاً معه

وفى سنة ٣٤٠ قلع حجاب الكعبة «الحجر» خوفاً من استطالة الأيدى إليه، لعدم استحكام بنائه، وجعلوه فى الكعبة حفظا له وصوناً، ثم أرادوا أن يجعلوا له طوقاً من فضة، فيشد به كما كان قديما — مثلما فعل ابن الزبير — فاستحضروا له صانعين حاذقين، فأحكماه فى محله، وعملا له الطوق من فضة وزنه ٣٠٣٧ درهما.

وفى سنة ٤١٤ كان يوم النفر (النداء للحج) الأول يوم الجمعة، فبعد مافرغ الامام من الصلاة، قام رجل مصرى باحدى يديه سيف مسلول، وبالأخرى دبوس، فقصد «الحجر الأسود» كأنه يستلمه، فضرب الحجر بالدبوس ثلاث ضربات، وقال: «إلى متى يعبد الحجر الأسود، ومحمد، وعلى، فليمنعنى مانع من هذا، فانى أريد أن أهدم البيت»

فخاف أكثر الحاضرين، وتراجعوا عنه، وكاد يفلت، إلا أن رجلا ثار به فضربه بخنجر، فقتله، وقطعه الناس وأحرقوه، وقتل ممن اتهم بمصاحبته جماعة، وأحرقوا. وثارت الفتنة.

وكان الظاهر من القتلى أكثر من ٢٠ رجلا، غير من اختفى منهم، وألح الناس ذلك اليوم بالنهب والسلب على المغاربة والمصريين، وعلى غيرهم فى طريق منى الى البلد.

فلما كان الغد ماج الناس واضطربوا، وأخذوا أربعة من أصحاب ذلك الرجل، فضربت أعناقهم.

وكان بعض وجه الحجر قد تشقق من الضربات وتساقطت منه شظيات، وخرج مكسره أسمر يضرب إلى الصفرة، محبباً مثل حب الخشخاش،

جص يشده به، فوضع «ابن سنبر» الحجر الأسود بيده، وشده الصانع بالجص وقال «ابن سنبر» لما ردّه: «أخذناه بقدرة الله، ورددناه بمشيئته».

فجمع بنو شيبة ذلك الفتات ، وعجنوه بالمسك واللك ، وحشوه فى تلك الشقوق ، وأعيد إلى موضعه .

وفى ابن اياس : أنه قلع من مكانه وكسر ثلاث قطع ، فأدرك الناس الفاعلين ، فقطعوا أيديهم ، وصلبوهم على أبواب الحرم . ثم أعادوا الحجر إلى مكانه ، ولصقوا ما كسر منه .

***

والحجر الأسود موضوع فى الركن العراقى المقابل لزمزم . وهو الجنوبى الشرقى الذى هو مبدأ الطواف ، يعلو عن الأرض بقدر متر ونصف متر . وهو ذو تجويف أشبه بطاس الشرب . وقد حدث فيه الآن تشقق ، وعمل له فى سنة ١٢٩٠ هـ غطاء من الفضة فى وسطه فتحة مستديرة ، قطرها ٢٧ سنتيمترا يرى منها الحجر ويستلم (١)

أما طوله فقدر عظم الذراع .

انظر الشكل الآتى : —



(١) السنة فى تقبيل الحجر الأسود أن يكون بلا صوت ولا تطنين وبلا لحس

ولما ولى الخلافة سليمان بن عبد الملك الأموى فى سنة ٩٦ هـ أقر خالد ابن عبد الملك القسرى على مكة . فبلغ خالد قول أحد الشعراء :

ياحبذا الموسم من موقف وحبذا الكعبة من مسجد
وحبذا اللائى يزاحمننا عنداستلام الحجر الأسود

فقال : « أما إنه لا يزاحمنك بعدها أبداً » . ثم أمر بالتفريق بين الرجال والنساء فى الطواف . ولكن المزاحمة عادت ثانية .

مكة

وتسمى أيضاً « بكة » و « أم القرى » . مدينة ترتفع عن سطح البحر بنحو ٣٣٠ متراً ، وموقعها بلاد الحجاز ، عندتقاطع خط العرض ٢١ درجة و٣٨ دقيقة شمالاً ، بخط الطول ٤٠ درجة و ٩ دقائق شرقاً . وهى عاصمة بلاد الحجاز ، وتمتد من الغرب إلى الشرق على مسافة نحو ٣ كيلو مترات طولاً ، وما يقرب من نصف ذلك عرضاً ، فى واد مائل من الشمال الى الجنوب ، منحصر بين سلسلتى جبال تكادان تتصلان ببعضهما من جهة الشرق والغرب والجنوب ، وتمثل فى شكلها العام سوراً طبيعياً منيعاً لا يسمح بالدخول اليها لأحد ، إلا من أبوابها الثلاثة ، الشمالى ، والغربى والجنوبى . وجبالها المحيطة بها والداخلة فى بعض جهاتها مرتفعة كثيراً بدرجة لا تمكن القادم عليها من رؤية مبانيها ، إلا وهو على أبوابها ، فكأن لها حصوناً منيعة ، لو جهزت

باللسان ، ثم إن أمكن أن يسجد عليه فعل ، لأنه جائز عند الأئمة الثلاثة لأن فيه تقبيلا وزيادة سجود لله تعالى ، بخلاف مالك فانه قال : السجود عليه بدعة . ويشترط فى ذلك عدم الايذاء والمزاحمة والمدافعة

فاذا كان الحجر مطيبا فقبله المحرم فلزق الطيب بفمه ، أو بيده أو بأكثرهما ، لزمه الدم ، وإلا فصدقة ، كما فى مذهب الحنفى . وعند الشافعى : لا يشرع له التقبيل ولا المس .

بالقلاع ، ومعدات الدفاع الحديثة ، لما تمكنت أكبر قوة برية ، أوهوائية من إيقاع الأذى بها ، وبسكانها .

ومن الاطلاع على الرسم الآتى يتضح أنه لا يمكن المعتدى عليها براً، من أخذ أهلها على غرّة قبل أن يعلموا به عن بعد .

والسلسلة الشمالية منها تتركب من جبل الفلج «الفلق» غرباً ، ثم جبل «قعيقعان» ثم جبل «الهندى» ثم جبل «لعلع» ثم جبل «كداء» وهو فى أعلى مكة ، ومن طريقه دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم البلد فاتحاً .

أما السلسلة الجنوبية فانها تتركب من جبل «أبى حديدة» غرباً ، يتلوه جبلا «كُدَى» و «كُدَىّ» بانحراف الى الجنوب ، ثم جبل «أبى قبيس» إلى شرقيهما ، ثم جبل «خندمة»



وسفوح هذه الجبال من جهة الحرم عامرة بالسكان التى تتدرج عليها إلى مسافات بعيدة منها ، ويبلغ عددها نحو ٧ آلاف بيت ، منها الكبير، والصغير. يحتشد فيها زمن الحج نحو ٢٠٠ ألف نفس على الأقل . وإذا كان الحج بالجمعة كان الناس أضعاف ذلك .

والحرم الشريف بين هذه البيوت مائل إلى الجهة الجنوبية ، مما يلى جبل « أبى قبيس » ، وهذا الجبل مشرف على مكة ، والحرم ، إشرافاً تاماً لعلوه ومواجهته لها . ومن قنته أعلن الاسلام بمكة ، وأذن بلال للصلاة . وقد استخدمه النبي صلى الله عليه وسلم مراراً فى التبليغ .

عمرة النبى صلى الله عليه وسلم

التى صده فيها المشركون عن البيت قبل فتح مكة

العمرة هى زيارة البيت الحرام . وأركانها إحرام ، وطواف ، وسعى ، ثم حلق أو تقصير .

اعتمر النبى صلى الله عليه وسلم ثلاث عمر ، كلها فى ذى القعدة ، يرجع فى كلها إلى المدينة . وقد خرج عليه الصلاة والسلام معتمراً فى ذى القعدة لا يريد حربا ، واستنفر العرب ، ومن حوله من أهل البوادى أن يخرجوا معه ، خشية من قريش الذين كادوا له من قبل ، أن يعرضوا له بحرب ، أو يصدوه عن البيت . فأبطأ عليه كثير من الأعراب . وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المهاجرين والأنصار ، ومن لحق به من العرب ، وساق معه الهدى ، وأحرم بالعمرة ، ليأمن الناس من حربه ، وليعلموا أنه إنما جاء زائراً لهذا البيت ، معظماً له . وكان ذلك فى عام الحديبية .

وكان الهدى ٧٠ بدنة ، والناس ٧٠٠ رجل (١) لكل عشرة نفر بدنة

---

(١) اختلف الرواة فى عدد الرجال فقيل كانوا ١٣٠٠ وقيل ١٤٠٠ وقيل ١٥٢٥

فلما كان بعسفان لقيه « بشر بن سفيان الكعبي » ، فقال له :

يارسول الله ، هـذه قريش قد سمعوا بمسـيرك ، فخرجوا معهم العوذ المطافيل (١) قد لبسوا جلود النمور ، وقد نزلوا بذى طوى ، يحلفون بالله لا تدخلها عليهم أبداً .

وفى رواية أنه لما خرج عليه الصـلاة والسلام بالهدى وانتهى إلى ذى الحليفة قال له عمر : يارسول الله تدخل على قوم هم لك حرب بغير سلاح ولا كراع (٢)

فبعث النبي صلى الله عليه وسـلم إلى المدينـة فلم يدع فيها كراعا ولا سلاحا إلا حمله .

فلما دنا من مكة منعوه أن يدخل . فسار حتى أتى « منى » فنزل بمنى ، فأتاه عينه بأن عكرمة بن أبى جهل قد خرج فى ٥٠٠ رجل ، فقال رسول الله لخالد بن الوليد : ياخالد ، هذا ابن عمك ، قد أتاك فى الخيل . فقال خالد : أنا سيف الله وسيف رسوله — وقد سمّى من يومئذ « سيف الله » — يارسول الله ارم بى حيث شئت . فبعثه على خيل ، فلقى عكرمة فى الشعب ، فهزمه حتى أدخله فى حيطان مكة ثلاث مرات ، فأنزل الله تعالى فيه « وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم — إلى قوله تعالى — عذاباً أليما » .

وكف الله النبي صلى الله عليه وسلم عنهم من بعد أن أظفره عليهم لبقايا من المسلمين كانوا بقوا فيها من بعد أن أظفره عليهم كراهية أن تطأهم الخيل بغير علم .

---

(١) العوذ جمع عائذ ، وهى الناقة ذات اللبن . والمطافيل : الأمهات اللاتى معها أطفالها . يريد أنهم خرجوا معهم بنسائهم وأولادهم وذوات الألبان من الابل ، ليتزودوا بألبانها إشارة لطول مايقيمون وتعمداً للكفاح .

(٢) الكراع اسم يجمع الخيل ، وقيل يجمع الخيل والسلاح . وكراع الغميم موضع بين مكة والمدينة

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياويح قريش ، قد أكلتهم الحرب ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب ، فان هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا ، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الاسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش ، فوالله لا أزال أجاهدهم على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله ، أو تنفرد هذه السالفة .

ثم قال : من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التى هم بها ؟ فقال رجل من « أسلم (قبيلة) » : أنا يا رسول الله ، فسلك بهم على طريق وعر حزن بين شعاب ، فلما أن خرجوا منه وقد شق ذلك على المسلمين ، وأفضوا إلى أرض سهلة عندمنقطع الوادى ، قال رسول الله للناس : « قولوا نستغفر الله ونتوب اليه » ففعلوا ، فقال رسول الله : والله انها للحطة التى عرضت على بنى اسرائيل فلم يقولوها .

ولما رأت فرسان قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خالفهم عن طريقهم ركضوا راجعين اليهم .

وقال رسول الله : لاتدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألونى صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها . ثم قال للناس : انزلوا . فقيل يا رسول الله : ما بالوادى ماء ننزل عليه . فأخرج سهماً من كنانته ، فأعطاه رجلا من أصحابه فغرزه فى جوف الوادى ، فجاش الماء بالرى حتى حجزوه .

وبينما رسول الله فى صحابته إذ جاءه عين له من أهل « تهامة » فقال : إن قريشا مقاتلوك وصادّوك عن البيت . فقال النبى : إنا لم نأت لقتال أحد ، ولكنا جئنا معتمرين ، وإن قريشا قد أنهكتهم الحرب ، وأضرت بهم ، فان شاءوا مددناهم مدة ويخلوا بينى وبين الناس ، فان أظهر ، فان شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا . وإلا فقد جمّوا ، وإنهم أبوا فوالذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى ، أو لينفذن الله أمره . فقال العين : سنبلغهم ما تقول ، فانطلق حتى أتى قريشا فقال : إنا قد جئناكم من

عند هذا الرجل وسمعناه يقول قولا فان شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا ، فقال سفهاؤهم : لاحاجة لنا أن تحدثنا عنه بشيء . وقال ذو الرأى منهم : هات ما سمعته يقول . فحدثهم بما قال النبى ، وانتهى الأمر بأن أوفدوا إلى النبى شخصا ، فجاءه وحدثه ، ورجع اليهم ، فقال : أى قوم ، والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على كسرى وقيصر والنجاشى ، والله ما إن رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً . . . وانه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها . فلم يقبلوا قوله ، وأرسلوا رجلا من كنانة ، فلما أشرف على النبى صلى الله عليه وسلم قال النبى : هذا فلان وهو من قوم يعظمون البدن ، فابعثوها له . فبعثت له واستقبله قوم يلبون ، فلما رأى ذلك قال : « سبحان الله . ماينبغى لهؤلاء أن يصدّوا عن البيت »

ثم بعثوا بآخر ، فلما رآه النبى قال : إن هذا من قوم يتألهون ، فابعثوا الهدى فى وجهه حتى يراه ، فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادى فى قلائده ، قد أكل أوباره من طول الحبس ، رجع الى قريش ، ولم يصل الى النبى اعظاما لما رأى ، فقال : يامعشر قريش ، إنى قد رأيت مالا يحل صد الهدى فى قلائده ، قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله ؛ قالوا له : « اجلس فانما أنت رجل أعرابى لاعلم لك »

وقد أرسلوا رجالا آخرين الى النبى ليصالحوه ، فلما رآهم النبى قال : ابعثوا الهدى وأظهروا التلبية ، لعل ذلك يلين قلوبهم ، فلبوا من ناحية العسكر حتى ارتجت أصواتهم بالتلبية . فلما وصلوا اليه سألوه الصلح .

فبينما الناس قد توادعوا واختلط المسلمون بالمشركين ، وإذا بطائفة من المشركين متسلحين ، يريدون الأذى بجند المسلمين . وانتهى الأمر بأن غلبهم المسلمون .

ثم دعا النبى « عمر بن الخطاب » ليبعثه الى مكة ، فيبلغ عنه اشراف

قريش ماجاء له ، فقال : يارسول الله إنى أخاف قريشاً على نفسى ، وليس بمكة من بنى عدى بن كعب أحد يمنعنى ، وقد عرفت قريش عداوتى اياها ، وغلظتى عليها ، ولكنى أدلك على رجل هو أعز بها منى ، « عثمان بن عفان » فأرسله النبى صلى الله عليه وسلم إلى أبى سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وإنما جاء زائراً لهذا البيت معظما لحرمته .

فبلغ رسالته اليهم ، وقالوا له : « إن شئت أن تطوف بالبيت ، فطف به » . قال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ، فاحتبسته قريش عندها حتى ظن النبى أنه قتل ، فقال : لانبرح حتى نناجز القوم ، ودعا الناس الى البيعة ؛ فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة .

ثم بلغ النبى صلى الله عليه وسلم أن عثمان لم يقتل .

وبعثت قريش « سهيل بن عمرو » إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تطلب الصلح ، على أن يرجع عامه هذا خشية أن تتحدث العرب بأنه دخل عليهم عنوة أبداً .

فتكلم « سهيل » مع النبى صلى الله عليه وسلم وتحاورا ، ثم جرى الصلح بينهما ولم يبق إلا كتابة العهد .

فلما جاء « على بن أبى طالب » للكتابة ، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم اكتب « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال سهيل : أما الرحمن فوالله ماأدرى ماهو ؟ ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب . فقال المسلمون والله لانكتب إلا « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اكتب باسمك اللهم ، فكتبها . ثم قال النبى : اكتب هذا ماقاضى عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو ، فقال سهيل : لو كنا نعلم أنك رسول الله ماصددناك عن البيت ولا قاتلناك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ،

فقال رسول الله لعلى : ا كتب ، هذا ماقاضى عليه محمد بن عبد الله سهيل
ابن عمرو(١) على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به ، فقال سهيل : والله
لاتتحدث العرب انا قد أخذنا ضغطة ، ولكن ذلك من العام المقبل. فكتب :
اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس، ويكف
بعضهم عن بعض ، قال سهيل : وعلى أن من أتى محمد بن عبد الله من قريش

---

(١) لما لم يقبل سهيل كتابة محمد رسول الله أمر النبي عليا بمحو ذلك ، فأبى
على قائلا : ماأنا بالذى يمحوه أبداً . فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم الصحيفة وقال
لعلى : أرنيه ، ومحاه هو بيده. ثم التفت إلى سهيل وقال: إنى لرسول الله وان كذبتمونى
وأنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب . اه

ولما أقيم الحكمان بين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان فى واقعة صفين
فى سنة ٣٧ من الهجرة ، وكان أبو موسى الأشعرى حكما عن على ، وكان عمرو
ابن العاص حكما عن معاوية . فاتفق الحكمان على أن يكتب بينهما كتاب بعقد
الصلح ، واجتمعا عند على كرم الله وجهه ، وكتب كتاب القضية بينهما بحضرته .
فكتب فيه بعد البسملة : هـــذا ماتقاضى أمير المؤمنين على ، فقال عمرو : هو
أميركم ، أما أميرنا فلا ، فقال الأحنف : لاتمح إسم أمير المؤمنين ، فانى أخاف أن
محوتها أن لاترجع اليك أبداً ، لاتمحها وان قتل الناس بعضهم بعضا ، فأبى ذلك على
ملياً من النهار . ثم ان الأشعث بن قيس قال : امح اسم أمير المؤمنين ، فأجاب على
ومحاه . ثم قال على : الله أكبر ، سنة بسنة ، والله انى لكاتب رسول الله صلى
الله عليه وسلم يوم الحديبية فكتبت محمد رسول الله ، فقالوا : لست برسول الله ،
ا كتب اسمك واسم أبيك ، فأمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمحوه ، فقلت
لاأستطيع أفعل ، فقال إذن أرنيه : فأريته فمحاه بيده ، وقال : « انك ستدعى إلى
مثلها فتجيب » اه ٧٩ / ١٤ / صبح الاعشى

بغير إذن وليه رده عليهم (١) ومن جاء قريشاممن مع محمد لم ترده عليه ، وإن بيننا عيبة مكفوفة ، وانه لاأسلال ولا أغلال (٢) وإنه من أحب أن يدخل فى عقد رسول الله وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه . »

فتواثبت خزاعة ، فقالوا : نحن فى عقد رسول الله وعهده . وتواثبت بنو بكر فقالوا : نحن فى عقد قريش وعهدهم ، وإنك ترجع عنا عامك هـذا فلا تدخل علينا مكة ، وإنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك ، فدخلتها بأصحابك ، فأقمت بها ثلاثاً ، وإن معك سلاح الراكب السيوف فى القرب ، لا تدخلها بغير هذا .

---

(١) لما سمع المسلمون ذلك قالوا : سبحان الله ، كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلما ؟ فبينما هم كذلك ، إذ جاء أبو جندل يرسف فى قيوده ، وقد خرج من مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين . فقال سهيل : هذا يامحمد أول ماأقاضيك عليه أن ترده إلى — فقال النبى : «انا لم نقض الكتاب بعد» قال : فوالله إذاً لا أصالحك على شىء أبداً . قال النبى : فأجزه لى ، قال : ماأنا بمجيزه لك . قال : بلى ، فافعل . قال : ماأنا بفاعل . قال مكرز بن حفص : بلى قد أجزناه لك .

قال أبو جندل : أى معشر المسلمين : أرد إلى المشركين وقد جئت مسلما ؟ ألا ترون ماقد لقيت ؟ وكان قد عذب عذابا شديداً فى الله تعالى .

قال عمر بن الخطاب : فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت : ألست نبى الله حقاً ؟ قال : بلى . قلت : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى . قلت : فلم نعطى الدنية فى ديننا إذاً ؟ قال : إنى رسول الله ولست أعصيه وهو ناصرى . اهـ

٤ / ١٤ / صبح الاعشى

(٢) الاسلال هى سل السيوف ، والاغلال لبس الدروع . وقيل الاسلال السرقة الخفية ، والاغلال الخيانة ، وقيل الاسلال الغارة الظاهرة والاغلال الخيانة

فلما تم الصلح على هذا رجع النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة .

وفى زمن الهدنة كثر المسلمون ، حتى فتحت مكة فى السنة الثامنة من الهجرة كما سيأتى .

فتح مكة

هادنت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يأمن بعضهم بعضاً . فمن قدم مكة حاجاً ، أو معتمراً ، أو مجتازاً الى اليمن ، والطائف ، فهو آمن . ومن قدم المدينة من المشركين عامداً إلى الشام ، والمشرق ، فهو آمن أيضاً .

وكان قد أدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عهده بنى كعب ، وأدخلت قريش فى عهدها حلفاءها (١) من بنى كنانة .

وكانت خزاعة فى صلح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان بنو بكر من كنانة فى صلح قريش . فاقتتل القبيلتان بعرفة ، فأمدت قريش بنى بكر بالسلاح ، وسقوهم الماء ، وظللوهم .

فقال بعضهم لبعض « نكثتم العهد » . فقالوا : مانكثنا ، والله ماقاتلنا ، انما مددناهم ، وسقيناهم ، وظللناهم . فقالوا لأبى سفيان بن حرب : انطلق فأجد الحلف ، وزوّد فى المدة ، وأصلح بين الناس . فقدم أبو سفيان المدينة ، ودخل على ابنته السيدة الطاهرة « أم حبيبة » زوج رسول الله صلى الله عليه

أو السرقة أى لاخيانة ولا سرقة ولا رشوة — راجع لسان العرب

(١) الاحلاف هم بنو عبد الدار ، وبنو مخزوم ، وبنو جمح ، وبنو سهم ، وبنو عدى ، نحروا جزوراً وغمسوا أيديهم فى دمها ، فسموا « لعقة الدم » . ولم يل الخلافة من الأحلاف الا « عمر بن الخطاب » رضى الله عنه والباقون من المطيبين الذين هم بنو عبد مناف ، وبنو أسد بن عبد العزى ، وزهرة بن كلاب ، وتيم بن مرة ، والحارث بن فهر ، غمسوا أيديهم فى خلوق ، ثم تحالفوا ، فسموا المطيبين .

وسلم . فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم طوته عنه . فقال : يابنية ، والله ماأدرى أرغبت بى عن هذا الفراش ، أم رغبت به عنى ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله ، وأنت رجل مشرك نجس . فلم أحب أن تجلس على فراش الرسول »

قال : والله لقد أصابك يابنية بعدى شرٌّ . ثم خرج حتى أتى رسول الله فكلمه ، فلم يرد عليه شيئاً ، ثم ذهب إلى أبى بكر فرجاه أن يكلم له الرسول فقال : ما أنا بفاعل ، ثم أتى عمر بن الخطاب ، فكلمه فى ذلك ، فقال : أنا أشفع لكم عند رسول الله ، فوالله لو لم أجد إلا الذَّرَّ لجاهدتكم . ثم خرج أبو سفيان فدخل على على بن أبى طالب وعنده السيدة الجليلة فاطمة ابنة رسول الله ، والحسن ابنها غلام يدبّ بين يديها . فقال : ياعلى ، إنك أمس القوم بى رحماً ، وأقربهم منى قرابة ، وقد جئت فى حاجة فلا أرجعن كما جئت خائباً ، اشفع لنا إلى محمد ، قال : ويحك ياأبا سفيان ، والله لقد عزم رسول الله على أمر مانستطيع أن نكلمه فيه . فالتفت إلى فاطمة فقال: ياابنة محمد ، هل لك أن تأمرى بنيَّك هذا فيجير بين الناس ، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟ . قالت : والله مابلغ بُنَيِّ ذلك أن يجير بين الناس ، وما يجير على رسول الله أحد .

قال أبوسفيان : ياأبا الحسن ، إنى أرى الأمور قد اشتدت علىَّ ، فانصحنى ، فقال له : والله ماأعلم شيئاً يغنى عنك شيئاً ، ولكنك سيد بنى كنانة ، فقم فأجِرْ بين الناس ثم الحق بأرضك . قال : أو ترى ذلك مغنياً عنى شيئاً ؛ قال : لا والله ماأظن ، ولكن لاأجد لك غير ذلك .

فقام أبو سفيان فى المسجد فقال : أيها الناس ، إنى قد أجرت بين الناس . ثم ركب بعيره وانطلق .

فلما قدم على قريش قالوا : ماوراءك ؟ قال : جئت محمداً فكلمته وصاغ

الحكاية السالفة الذكر ، فقالوا : هل أجاز ذلك محمد ؟ قال : لا . قالوا : ويلك ، والله إن زاد على أن لعب بك ، فما يغنى عنّا ما قلت ، قال : لا ، والله ماوجدت غير ذلك .

وأمر رسول الله الناس بالجهاز وقال : إنى قد أمرت باحدى القريتين ، مكة(١) ، أو الطائف . وأمر بالمسير فخرج فى أصحابه وقال : «اللهم اضرب

---

(١) لما علم « حاطب بن أبى بلتعة » ـ أحد الصحابة ـ عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على غزو مكة كتب إلى قريش كتاباً يخبرهم ، فأطلع الله نبيه على ذلك ، فقال عليه السلام لعلى بن أبى طالب والزبير والمقداد : انطلقوا حتى تأتوا « روضة خاخ » فان بها ظعينة ـ امرأة فى هودج ـ معها كتاب ، فخذوه منها .

قال علىّ : فانطلقنا حتى أتينا الروضة ، فاذا نحن بالظعينة . قلنا : أخرجى الكتاب ، قالت : ما معى كتاب ، فقلنا : لتخرجنّ الكتاب أو لتلقينّ الثياب ، قال فأخرجته فأتينا به رسول الله ، فاذا فيه : من « حاطب بن أبى بلتعة » إلى ناس من المشركين بمكة ، يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال عليه السلام : ياحاطب ما هذا ؟ قال يارسول الله لا تعجل علىّ إنى كنت امرأ ملصقاً فى قريش (حليفاً) ولم أكن من أنفسها ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم ، فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون قرابتى ، ولم أفعله ارتداداً عن دينى ، ولا رضى بالكفر بعد الاسلام .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما إنه قد صدقكم .

فقال عمر : يارسول الله ، دعنى أضرب عنق هذا المنافق ، فقال : إنه قد شهد بدراً ، ومايدريك لعل الله اطلع على من شهد بدراً فقال اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم .

فأنزل الله تعالى : ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً فى سبيلى وابتغاء مرضاتى تسرون اليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل .

على آذانهم فلا يسمعوا ، حتى نبغتهم بغتــــة » وأغذ السير حتى نزل « مر الظهران »(١) فى عشرة آلاف من المسلمين ، وقد عميت الأخبار عن قريش فلا يأتيهم خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يدرون ما هو فاعل .
فخرج أبو سفيان وغيره يتحسسون الأخبار ، حتى بلغ « مر الظهران » فأخذ أسيراً ، فأتى به النبى صلى الله عليه وسلم وجاء عمر رضى الله عنه فأراد قتله ، فمنعه العباس .

فلما كان عند صلاة الصبح تحشحش الناس وضوءاً للصلاة ، فقال أبو سفيان للعباس : ماشأنهم يريدون قتلى؟ قال : لا ، ولكنهم قاموا إلى الصلاة فلما دخلوا فى صلاتهم رآهم إذا ركع رسول الله صلى الله عليه وسلم ركعوا ، وإذا سجد ، سجدوا ، فقال : تالله ما رأيت كاليوم . طواعية قوم جاءوا من هاهنا ، وهاهنا ، ولا فارس الكرام ، ولا الروم ذات القرون .

فلما رآه رسول الله قال له : ويحك ياأبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله ، فقال : بأبى أنت وأمى ، ماأوصلك وأحلمك وأكرمك ، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عنى شيئاً ، فقال : ويحك ياأبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ، فقال : بأبى أنت وأمى ، ما أوصلك وأحلمك وأكرمك ، أما هذه ففى النفس منها شىء .

وقد اختلفوا فى نص الكتاب فقال بعضهم : أما بعد يامعشر قريش فان رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءكم بجيش عظيم يسير كالسيل ، فوالله لو جاءكم وحده لنصره الله وأنجز له ، فانظروا لأنفسكم والسلام .

وقال آخر : إن حاطباً كتب إلى سهيل بن عمرو وصفوان بن أمية وعكرمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن فى الناس بالغزو ، ولا أراه يريد غيركم ، وقد أحببت أن تكون لى عندكم يد .

(١) الظهران واد قرب مكة عند قرية يقال لها « مر » تضاف اليه ، فيقال « مر الظهران »

قال العباس : فقلت له : ويلك تشهّد شهادة الحق قبل والله أن تضرب عنقك . فتشهد . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس : انصرف ياعباس فاحبسه عند خطم الجبل حتى تمر عليه الجنود . فقال العباس : يارسول الله ، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر ، فاجعل له شيئاً يكون فى قومه . فقال: نعم . « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن .

قال العباس : فخرجت حتى حبسته عند خطم الجبل ، فمرت عليه القبائل وهو يسأل عن كل واحدة منها ، حتى مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الخضراء كتيبة رسول الله ، من المهاجرين والأنصار ، فى الحديد لايرى منهم الا الحدق ، فقال : من هؤلاء ياأبا الفضل ؟ فقلت: هذا رسول الله فى المهاجرين والأنصار ، فقال : ياأبا الفضل،لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما . فقلت : ويحك إنها النبوة.فقال : نعم إذاً. فقلت : ألحق الآن بقومك فحذرهم ، فخرج سريعاً حتى أتى مكة ، فصرخ فى المسجد : يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لاقبل لكم به . قالوا : فمه . فقال : من دخل دارى فهو آمن . فقالوا : ويحك وما تغنى عنا دارك ؟ فقال : ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن .

وقال العباس : يارسول الله ، ابعثنى إلى أهل مكة أدعهم إلى الاسلام . فلما بعثه أرسل فى إثره وقال : ردوا على عمى لايقتله المشركون ، فأبى أن يرجع حتى أتى مكة فقال : أى قوم : أسلموا تسلموا ، أتيتم أتيتم ، واستبطنتم بأشهب بازل ، هذا خالد بأسفل الأرض ، وهذا الزبير بأعلى مكة ، وهذا رسول الله فى المهاجرين والانصار ، وخزاعة . فقالت قريش : وما خزاعة المجدعة الأنوف ؟ وأبوا دعوته .

وقال الواقدى وغيره : تسلح قوم من قريش يوم الفتح ،وقالوا : لايدخلها

محمد الا عنوة، فقاتلهم خالد، وكان أول من أمره رسول الله بالدخول. فقتل ٢٤ رجلا من قريش، وأربعة من هذيل، وانهزم الباقون فاعتصموا برؤس الجبال، واشتد القتل فيهم، حتى جاء أبو سفيان فقال: يارسول الله: «أبيدت خضراء قريش، لاقريش بعد اليوم»

فقال رسول الله: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل دار حكيم (١) فهو آمن، ومن أغلق بابه وكف يده فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن، ولا يجهزن على جريح، ولا يتبعن مدبر، ولا يقتلن أسير»

وقد قال النبي لخالد والزبير حين بعثهما: لاتقاتلا إلا من قاتلكما، إلا أنه قد عهد لهما فى نفر سماهم أمر بقتلهم، وإن وجدوا تحت أستار الكعبة. وعددهم ستة نفر وأربع نسوة.

فلما قدم خالد على بنى بكر والأحابيش بأسفل مكة قاتلهم فهزمهم الله.

فأقبل الناس إلى دار أبي سفيان وأغلقوا أبوابها، ووضعوا سلاحهم.

ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم من أذاخر، حتى نزل بأعلى مكة. وضربت هنالك قبته، وأقبل إلى الحجر فاستلمه، ثم طاف بالبيت، ووقف على باب الكعبة وقال: لاإله إلا الله وحده لاشريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم، أو مال يدعى فهو تحت قدمى هاتين، إلا سدانة البيت، وسقاية الحاج، ألا وقتيل الخطأ مثل العمد، السوط والعصا فيهما الدية مغلظة منها أربعون فى بطونها أولادها

«يامعشر قريش: إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم خلق من تراب. ثم تلا قوله تعالى: يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا

---

(١) دار أبي سفيان فى الشرق الشمالى للحرم بأعلى مكة باقية آثارها للآن وهى مهدمة لاعناية للقوم بها. ودار حكيم بأسفل مكة.

خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ . . الآية .

« يامعشر قريش ، ويا أهل مكة : ماترون أني فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ، وقد قدرت ، فقال : إني أقول كما قال أخي يوسف عليه السلام « لَاتَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » اذهبوا ، فأنتم الطلقاء ، فأعتقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كان الله أمكنه من رقابهم عنوة ، وكانوا له فيئاً ، فبذلك يسمى أهل مكة « الطلقاء »

وقال : ألا إن مكة حرام مابين أخشبيها ، لم يحل لأحد قبلي ، ولا يحل لأحد بعدي ، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار ، لايختل خلاها ، ولا تعضد عضاهها ، ولا ينفر صيدها ، ولا يلتقط لقطتها ، إلا أن يعرّف أو يعرف » فقال العباس : « إلا الأذخر ، فانه لصاغتنا وقيوننا ، وطهور بيوتنا » فقال صلى الله عليه وسلم : إلا الأذخر .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مكة حرام لايحل بيع رباعها ، ولا اجور بيوتها » . (١)

---

(١) كتب عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه إلى أمير مكة : أن لاتدع أهل مكة يأخذون على بيوت مكة أجراً فانه لايحل لهم!

ولكن العلماء بعده أجازوا الكراء ارتكانا على أن عمر وعثمان رضى الله عنهما اشتريا بعض الدور من أربابها ودفعا لهم الثمن غالياً .

وقال بعضهم : إن الكراء فى ليالى الحج باطل ، وكراؤها حل طلق ، وإنما يستوى فيه العاكف والبادى فى الطواف بالبيت « سواء العاكف فيه والباد » غير أن لايخرج أحد من بيته

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لأهل مكة : « لاتتخذوا لدوركم أبواباً ، لينزل البادى حيث شاء »

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قلت يارسول الله : ابن لك بناء يظلك من الشمس بمكة ، فقال : إنما هى مناخ من سبق .

وفى تاريخ الطبرى : أنه لما افتتحت مكة قتلت خزاعة رجلا من هذيل فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيباً فقال : «يا أيها الناس إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهى حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً ، أو يعضد بها شجراً ، الا وانها لاتحل لأحد بعدى ، ولم تحل لى إلا هذه الساعة ، عصى علىّ أهلها ، ألا فهى قد رجعت إلى حالها بالأمس ، ألا ليبلغ الشاهد الغائب ، فمن قال إن رسول الله قد قتل بها فقولوا إن الله قد أحلها لرسوله ولم يحلها لك»

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمكة حين افتتحها : «هذه حرم حرمها الله يوم السموات والأرض وخلق الشمس والقمر ، ووضع هذين الأخشبين ، لم تحل لأحد قبلى ، ولا تحل لأحد بعدى ، أحلت لى ساعة من نهار» .

فمكة إذن منذ خلقت ، حرم آمن من عقوبة الله ، وكيد الكائدين .

ولما وقف رسول الله على باب الكعبة أتى على صنم كان إلى جنب الكعبة وفى يده قوس قد أخذ بسيتها ، فجعل يطعن فى عين الصنم ويقول : «جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً» .

ولما فرغ من طوافه أتى الصفا فعلاه حتى نظر إلى البيت ، ثم رفع يده يحمد الله ويدعو .

وأمر صلى الله عليه وسلم بهدم الأصنام ومحو الصور التى كانت فى الكعبة .

وقد تم فتح مكة لعشر ليال بقين من شهر رمضان سنة ثمانية من الهجرة

الحج فى الاســلام [1]

لما نزل القرآن الكريم بفريضة الحج على المسلمين « من استطاع إليه سبيلا » بدأ القادرون عليه يقصدون البيت الحرام فى وقت الحج ، فى الشهر الحرام (ذى الحجة) فيحرمون ويطوفون ، ويحجون بالوقوف بعرفة .

ولكن النبى صلى الله عليه وسلم ظل تسع سنين من أول الهجرة ، لم يحج فى أثنائها . ثم أذن بعد ذلك فى الناس بالحج . فحج فى السنة التاسعة للهجرة الشريفة أبو بكر الصديق رضى الله عنه .

وقرأ علىّ سورة براءة . وأمر حينذاك أن لا يحج مشرك . وأن لا يطوف بالبيت عريان .

فلما كانت السنة العاشرة للهجرة حج رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع .

وجاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه فداوم على فريضة الحج ، حتى أدى فى خلافته تسع حجج .

ثم بدأ الحج ينتظم العام بعد العام ، ويشترك فيه الخلفاء فالملوك فالسلاطين مع أشراف الأمة ، وعامتها .

---

(١) فرض الحج فى السنة السادسة من الهجرة على الصحيح ، وقيل فى التاسعة ، وقد اختلفوا فى وقته كثيراً . فقال بعضهم إنه قبل الهجرة ، وهو غريب ، إذ المشهور بعدها . ويدور كلامهم بين سنة خمس وست وسبع وثمان وتسع . وأمّر رسول الله على الحج أبا بكر الصديق . ثم نزلت « براءة » فأرسل النبى علياً بن أبى طالب لينبذ إلى الناس عهدهم ، كما سيتضح بعد .

ولم يقطع مرة ، ولم ين المسلمون عن أدائه عاماً من الأعوام .

***

الحجة الأولى : بعد أن عاد رسول الله صلى الله عليه من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة ، فى السنة الثامنة للهجرة ، كان مفروضاً أن يحج فى السنة التاسعة ، ولكنه صلوات الله عليه لم يفعل ذلك بنفسه ، ولم يؤم بالناس ، بل ترك أبا بكر الصديق رضى الله عنه يقوم بها عنه ، وحج هو فى السنة العاشرة وكانت الحجة الأخيرة التى سميت « حجة الوداع » حيث ودع رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس فيها بقوله : « فانى لا أدرى ، لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا » .

وستجىء خطبته هذه تحت عنوان « حجة الوداع »

والسبب فى امتناعه صلى الله عليه وسلم عن القيام بالحج فى تلك السنة قد نوَّه هو عنه فى قوله من تلك الخطبة ، «أيها الناس : إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِى الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا . يُحِلُّونَهُ عاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا ، لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَاحَرَّمَ اللهُ » ، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض .

النسيء

وللنسيء هذا مسألة لا بأس من أن نوردها ملخصة ، تفسيراً لقول رسول الله الأمين نزولا على أمر الله تعالى .

فان العرب فى الجاهلية كانت تؤرخ بشهور الأهلة ، وكانوا يقصدون مكة كل عام للحج فى عاشر ذى الحجة ، بحسب ما رسم سيدنا ابراهيم عليه السلام .

ولما كان الحج لا يقع فى فصل واحد من فصول السنة ، بل يختلف موقعه منها بسبب تفاضل ما بين السنة الشمسية والسنة القمرية ، ووقوع أيام الحج

فى الصيف تارة ، وفى الشتاء تارة أخرى ، وكذا فى الفصلين الآخرين ، أرادوا أن يقع حجهم فى زمان واحد لايتغير ، وهو وقت إدراك الفواكه والغلال واعتدال الزمن فى الحر والبرد ، ليسهل عليهم السفر ، ويتجروا بما معهم من البضائع والأرزاق ، مع قضاء مناسكهم .

فشكوا ذلك إلى أميرهم وخطيبهم ، فقام فى الموسم عند اقبال العرب من كل مكان ، فخطب ثم قال :

« أنا أنشأت لكم فى هذه السنة ١٣ شهراً ، وكذلك أفعل فى كل ثلاث سنين أو أقل ، حسبما يقتضيه حساب وضعته (١) ليأتى حجكم وقت ادراك الفواكه والغلال (أى وقت الخريف) فتقصدوننا بما معكم منها .

فوافقت العرب على ذلك ، ومضت إلى سبيلها . فنسأ المحرم وجعله كبيساً ، وأخره إلى صفر ، وصفر إلى ربيع الأول ، وهكذا . فوقع الحج فى السنة الثانية فى عاشر المحرم ، وهو ذو الحجة عندهم ، وآخر السنة .

ووقع فى السنة الأولى محرمان ، الأول رأس السنة ، والآخر فى النسيء .

وبعد انقضاء سنتين ، أو ثلاثة . وانتهاء نوبة الكبيس ، أى بالشهر الذى كان يقع فيه الحج ، وانتقاله إلى الذى بعده ، قام فيهم خطيباً وقال : « إنا جعلنا الشهر الفلانى من السنة الفلانية الداخلة للشهر الذى بعده » .

وبهذا فسر النسيء بالتأخير ، كما فسر بالزيادة وكانوا يدبرون النسيء على جميع شهور السنة بالنوبة . حتى يكون لهم مثلا فى سنة واحدة « محرمان » وفى أخرى « صفران » وهكذا بقية الشهور .

وفى ذلك يفتخر عمرو بن قيس الفراسى بقوله :

---

(١) السنة القمرية تنقص عن السنة الشمسية نحو ١١ يوما تكون عدتها فى الثلاث السنين نحو شهر .

« ألسنا الناسئين إلى معد شهور الحل نجعلها حراما »

فاذا آلت النوبة إلى الشهر المحرم يقوم لهم خطيباً فينبئهم أن هذه السنة قد تكرر فيها اسم الشهر الحرام . فيحرم عليهم واحداً منها بحسب رأيه على مقتضى مصلحتهم .

فلما انتهت النوبة فى أيام النبى صلى الله عليه وسلم إلى ذى الحجة ، وتم دور النسيء على جميع الشهور ، حج صلى الله عليه وسلم فى تلك السنة حجة الوداع ، وهى السنة العاشرة من الهجرة لموافقة الحج فيها تاسع ذى الحجة

ولهذا لم يحج صلى الله عليه وسلم فى السنة التاسعة ، حين حج أبو بكر الصديق رضى الله عنه بالناس لوقوعه فى تاسع ذى القعدة .

وكانت بذلك حجة الاسلام الأولى .(١)

---

(١) قد اختلف الرواة فى حج النبى صلى الله عليه وسلم فمنهم من قال: أفرد ، ومنهم من قال : قرن ، ومنهم من قال : تمتع .

والصحيح هو الأول عند الشافعى رضى الله عنه لما روى جابر قال : إن النبى صلى الله عليه وسلم مكث تسع سنين لم يحج . ثم أذن فى الناس بالحج ؛ فخرج صلى الله عليه وسلم وأحرم ينتظر القضاء ؛ ولم ينو أحديهما ؛ فلما دخلنا مكة ؛ وسعينا بين الصفا والمروة ؛ نزل عليه القضاء بأن من ساق الهدى فليقم على إحرامه ومن لم يسق فليجعلها عمرة .

وروى أنس رضى الله عنه أنه قرن . فقال نافع : دخلت على ابن عمر فاخبرته بما قال ، فقال رحم الله أنساً ؛ إن أنساً كان يتولج على النساء متكشفات الرؤس لصغره فى ذلك الوقت ، وأنا كنت تحت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم يصيبنى لغامها أسمعه يلبى بالحج .

حجة الوداع

فى السنة العاشرة من الهجرة ، حج النبى صلى الله عليه وسلم الحجة الأخيرة كما بيّنّا — فكانت حجة الوداع التى خطب الناس فيها خطبة جامعة ؛ آمراً إياهم بما شاء الله تعالى على لسانه الكريم ، وما أنطق به نبيه الأمين ، قال :

« إن الحمد لله ، نحمده ، ونستغفره ، ونتوب إليه ، ونعوذ به من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضلّ له ، ومن يضلل فلا هادى له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، وأحثكم على طاعة الله ، وأستفتح بالذى هو خير .

« أما بعد : أيها الناس ، إسمعوا منى أبين لكم ، فانى لاأدرى لعلى لاألقاكم بعد عامى هذا ، فى موقفى هذا .

« أيها الناس : إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ، من شهركم هذا ، فى بلدكم هذا . — ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

« فمن كانت عنده أمانة فليؤدها الى الذى ائتمنه عليها . وإن ربا الجاهلية موضوع . وإن أول رباً أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب . وان دماء الجاهلية موضوعة . وإن أول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب . وإن مآثر الجاهلية موضوعة ، غير السدانة والسقاية ، والعمد قود . وشبه العمد ماقتل بالعصا والحجر ، ففيه مائة بعير ، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية .

وقال صلى الله عليه وسلم : لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لما سقت الهدى ولجعلتها عمرة .

«أيها الناس : إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ، ولكنه رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم .

« أيها الناس : إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ، يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا ، لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ » وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض . « إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ » ثلاثة متواليات ، وواحد فرد . ذو القعدة وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب الذى بين جمادى وشعبان

« ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد

« أيها الناس : إن لنسائكم عليكم حقاً ، وإن لكم عليهن حقاً . لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم غيركم ، ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا باذنكم ولا يأتين بفاحشـــة ، فان فعلن ، فان الله قد أذن لكم أن تعضلوهن ، وتهجروهن فى المضاجع ، وتضربوهن ضرباً غير مبرح ، فان انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف . وإنما النساء عندكم عوار ، لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله فى النساء ، واستوصوا بهن خيراً .

« أيها الناس : إنما المؤمنون إخوة ، فلا يحل لامرىء مال أخيه إلا عن طيب نفسه .

« ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

« فلا ترجعوا بعدى كفاراً ، يضرب بعضكم أعناق بعض ، فانى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا ، كتاب الله وأهل بيتى .

« ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

« أيها الناس : إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد . كلكم لآدم ، وآدم من تراب . أكرمكم عند الله أتقاكم . ليس لعربى على عجمىٍّ فضل ، إلا بالتقوى .

« ألا هل بلغت ؟ قالوا : نعم . قال : فليبلغ الشاهد منكم الغائب .

« أيها الناس : إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ، ولا يجوز لوارث وصية فى أكثر من الثلث . والولد للفراش . وللعاهر الحجر . من دعى إلى غير أبيه ، أو تولى إلى غير مواليه ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلا . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

وفى بعض الكتب قال لهم عليه الصلاة والسلام : ألا أنبئكم من المسلم ؟ فقالوا له : نعم . فقال لهم : المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده .

وأنبئكم من المؤمن ؟ فقالوا له : نعم . فقال لهم : من أمنه المؤمنون على أنفسهم ودمائهم . المؤمن على المؤمن حرام كحرمة هذا اليوم(١) .

---

(١) حجة الوداع كان يوم عرفة فيها يوم الجمعة ، وكان أول شهر ذى الحجة فى تلك السنة الخميس .

وقال بعض المؤرخين : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفى يوم الاثنين ١٢ ربيع أول بعد الحجة المذكورة بثلاثة أشهر . وكيف حسب الانسان الشهور ، وهن ذو الحجة والمحرم وصفر وربيع الأول ، وجعل أول ذى الحجة الخميس ، فما يتصور أن يكون رسول الله توفى يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول ، سواء أحسب الجميع نواقص أو كوامل ، أو بعضهن نواقص ، أو بعضهن كوامل .

ويحتمل أنه لما حج رسول الله رأى هلال ذى الحجة بين مكة والمدينة ليلة الخميس ، وغم على أهل المدينة ، فلم يروا هلال الحجة إلا ليلة الجمعة . فلما رجع رسول الله وتوفى بالمدينة أرخ أهل المدينة موته على حكم ما رأوا ، وأرخوا فى أول ذى الحجة وهو يوم الجمعة ، فجاءت الشهور الثلاثة ذو الحجة والمحرم وصفر كوامل وجاء أول ربيع أول يوم خميس ، وكان ١٢ ربيع أول يوم الاثنين .

وكان بين رؤيته صلى الله عليه وسلم ورؤية أهل المدينة مسافة القصر .

شهور الحج

الحج أشهر معلومات : كانت شهور الحج فى الجاهلية إلى قبل الاسلام ثلاثة ، هى : ذو القعدة، وذو الحجة ، والمحرم . وكانوا يحرمونها جميعاً : ذو الحجة حيث يقع فيه الحج ، وذو القعدة حيث يكون الحجاج قد قاموا فيه إلى الحج . والمحرم حيث يعودون فيه إلى بلادهم. فيجب أن يكونوا آمنين على أنفسهم ، ومالهم فى ذهابهم وإيابهم .

ويشعر بذلك التحريم من نفس أسماء الشهور ، فان ذا القعدة يعنى قعودهم عن الحرب والقتال ، وذا الحجة يعنى قيامهم للحج ، والمحرم يعنى التصريح بتحريم القتال ، وغيره .

وكانوا يحرمون أيضاشهر رجب ، ويحجون فيه الحجة المشهورة بالرجبية ويسمونه شهرالله الأصم، حيث لا يسمع فيه صوت السلاح ، أوالاستغاثة.

وهذا الشهر الرابع المحرم قد اختلف فى تعيينه ، حيثهو عند « مضر » نفس موضعه من سنتنا الهجرية ، وعند «ربيعة» هو رمضان ، وذلك لأن بنى ربيعة كانوا يسكنون فى شمال بلاد العرب إلى العراق ، فكان بعدهم هذا يخول لهم تأخير هذا الشهر ، حتى يتمكنوا ، على ما يظهر ، من السفر الى مكة ، ثم إلى اليمن ، ليمضوا شوالا يبتاعون فيه منها ما يرغبون من التجارة ، ثم يعودون إلى مكة لأداء الحج الكبير .

وكان العرب من أجل ذلك يسمون الشهر المحرم الرابع « رجب مضر » أو « رجب ربيعة » .

وكانوا إذا وقع رجب فى سنى النسيء ينادى الناسيء بذلك فى موسم الحج فيقول : « اللهم إنى أحللت رجب القادم ، وحرمت شعبان » فتمضى العرب على هذا التاريخ . وبسبب ذلك كانوا يسمون شهرى رجب وشعبان بالرجبين

فلما كانت البعثة المحمدية الميمونة أمر الله تعالى المسلمين فى كتابه العزيز بقوله : إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ » (١)

وفسرها النبي الكريم بعد ذلك فى خطبته المشهورة بخطبة الوداع، السالفة الذكر ، بقوله : « ثلاثة متواليات وواحد فرد . ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب الذى بين جمادى وشعبان.

---

(١) أرسل النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله بن جحش فى سرية فى شهر رجب (على رأس ١٧ شهراً من مقدمه المدينة) إلى نخلة على ليلة من مكة ، يترصد قريشاً فمرت بهم عيرهم تحمل زبيبا وأدما ، من الطائف ، فيها « عمرو بن الحضرمى » فتشاور المسلمون وقالوا . نحن فى آخر يوم من رجب ، فان قاتلناهم هتكنا حرمة الشهر ، وإن تركناهم الليلة دخلوا حرم مكة ، فأجمعوا على قتلهم ، فقتلوا « عمرا » واستأسروا « عثمان بن عبد الله » و « الحكم بن كيسان » وهرب من هرب ، واستاقوا العير ، وكانت أول غنيمة فى الاسلام، فقسمها « ابن جحش » وعزل الخمس من ذلك قبل أن يفرض .

ويقال . بل قدموا بالغنيمة كلها : فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام ، فأخر الأسيرين والغنيمة حتى رجع من بدر ، فقسمها مع غنائمها .

وتكلمت قريش أن محمداً سفك الدماء ، وأخذ المال ، فى الشهر الحرام ، فأنزل الله تعالى : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

تحريم دخول مكة على غير المسلمين

عند ما نزلت الآية الكريمة التي يقول الله تعالى فيها : «يَاءَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا» وكان العام التاسع للهجرة ، أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبي طالب راكباً العضباء ، ليقرأها وغيرها من سورة «براءة» على أهل الموسم (الحجاج) ، وكان قد بعث قبله أبا بكر رضى الله عنه أميراً على الحاج وقد قيل له : لو بعثت بها إلى أبي بكر ؟ فقال عليه السلام : لا يؤدى عنى إلا رجل منى .

فلما دنا على كرم الله وجهه سمع أبو بكر الرغاء ، فوقف ، وقال : هذا رغاء ناقة رسول الله ، فلما لحقه قال : أمير أو مأمور ؟ قال : مأمور

فلما كان قبل التروية خطب أبو بكر وحدثهم عن مناسكهم ، وقام على يوم النحر عند جمرة العقبة فقال : «أيها الناس . إنى رسول رسول الله إليكم . فقالوا بماذا ؟ فقرأ عليهم ٣٠ أو ٤٠ آية من سورة براءة ثم قال : أمرت بأربع ،

وفى ذلك يقول « عبد الله بن جحش »

« تعدون قتـــلا فى الحرام عظيمة   وأعظم منه لو يرى ذاك راشـــد

صـــدودكم عما يقول محمـد   وكفر به والله راء وشـــاهد

سقينا من « ابن الحضرمى » رماحنا   بنخلة لما أوقد الحرب واقد » اه

ـــ قلت ـــ والسرية قطعة من الجيش يخرجون ليلا ، ليخفى ذهابها وهى من ١٠٠ إلى ٥٠٠ فما زاد على ٥٠٠ يقال له « منسر » فان زاد على ٨٠٠ سمى جيشاً . فان زاد على ٤٠٠٠ سمى جحفلا . والخميس الجيش العظيم ، سمى به لأنه مقسوم خمسة أقسام : المقدمة ، والساقة . والميمنة والميسرة والقلب . وما افترق من السرية يسمى بعثا . والكتيبة ما اجتمع ولم ينتشر . اه المواهب اللدنية

أما سرية ابن جحش فعددها قليل ، قيل ٨ وقيل ١٢ من المهاجرين .

أن لا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ولا يدخل الجنة إلا كل نفس مؤمنة ، وأن يتم إلى كل ذى عهد عهده .

وكان القصد بهذه المناداة منع المشركين عامة من الحج ، حتى لا يفسدوا بين الحاجين بسوء قصدهم ، ويوغروا الصدور بخبث طويتهم ، ويفرقوا بين المسلمين بما يلقون من بذور الشقاق التى ينبتها حقدهم وغلهم .

وكانت هذه حكمة صائبة . فان النبى الأمين عليه الصلاة والسلام ، عند ما مات ، ارتد أكثر العرب فى أطراف الجزيرة بعد بيعتهم لأبى بكر الصديق رضى الله عنه بعشرة أيام ، وكان ذلك بتأثير المشركين منهم ، الذين بلغ بهم الأمر إلى أن ادّعى بعضهم النبوة بعد رسول الله ، ومنهم طليحة ولهيعة ومسيلمة وسجاح ، وغيرهم .

فاستنفر أبو بكر جميع المسلمين إلى قتال أولئك المرتدّين ، وقد عرفوا بأهل الردة ، وبعث اليهم بجيوش أبلت فى قتالهم بلاء حسناً ، سيما جيش « خالد بن الوليد » الذى كان له الفضل الأكبر فى رجوع الناس إلى الاسلام. وسار عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعد وفاة أبى بكر على طريقته من تطهير بلاد العرب من أولئك المرتدين ، ومن غيرهم من المشركين ، حتى تنظف البلاد من كل مارق منافق ، وتطهر الأرض للاسلام وحده

ونهج على هذه الخطة من أعقب عمر من الخلفاء حتى تعاقب التاريخ إلى اليوم

ولذا يراقب أهل مكة وخدمة الحرمين الشريفين كل أجنبى يفد إلى بلادهم فلا يمكنه أن يتعدى إلى حدود مكة . بل لا يتعدى مدينة العلا من الشمال ، ومنطقة الحسا من الشرق ، وينبع وجدة من الغرب ، وصنعاء من الجنوب ، وإلا ورّط نفسه إلى فتك أهل البلاد به

وهكذا لم يتوغل من الأجانب الغربيين فى أرض مكة المقدسة إلا من

أسلم منهم ، وتزيّى بزى المسلمين ؛ وهم مع ذلك عدد ليس بالقليل ، ومنهم من وضع عن تاريخ مكة باللغات الأجنبية الكتب التى يعرفها المطلعون .

***

أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرضه ، الذى مات فيه ، باخراج المشركين من جزيرة العرب ، فقال : أخرجوا المشركين من جزيرة العرب ، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم . وأوصى بتجهيز جيش أسامة ، وبالقرآن

وقال عياض : يحتمل أن يكون قوله : لا تتخذوا قبرى وثناً فانها ثبتت فى الموطأ مقرونة بالأمر باخراج اليهود .

والذى أجلى المشركين عن جزيرة العرب هو « عمر بن الخطاب رضى الله عنه وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أراده لما ظهر على أرض خيبر أن يخرج اليهود منها . فسأل اليهود رسول الله أن يتركهم ، على أن يكفوا العمل ولهم نصف التمر ، فقال رسول الله : نقركم على ذلك ماشئنا . فأقروا حتى أجلاهم عمر فى إمارته الى تيماء وأريحاء .

وفى الصحيح عن ابن عمر : لما فدع أهل خيبر « عبد الله بن عمر » قام عمر خطيباً ، فقال : إن رسول الله كان قد عامل يهود خيبر على أموالهم ، وقال لهم ، نقركم على ما أقركم الله . وإن عبد الله بن عمر خرج إلى ماله هناك فعدى عليه من الليل ، ففدعت يداه ورجلاه ، وليس لنا عدو هناك غيرهم ، هم عدونا وتهمتنا ، وقد رأيت إجلاءهم .

فلما أجمع « عمر » على ذلك أتاه أحد بنى الحقيق فقال : ياأمير المؤمنين ، أتخرجنا وقد أقرنا محمد ، وعاملنا على الأموال ، وشرط لنا ذلك ؟ فقال عمر : أظننت أنى نسيت قول رسول الله ، كيف بك اذا أخرجت من خيبر تعدو

بك قلوصك ليلة بعد ليلة ؟ فقال : كانت هذه هزيلة من أبى القاسم . فقال : كذبت ياعدو الله .

فأجلاهم عمر ، وأعطاهم قيمة ما كان لهم من التمر ، مالا وابلا وعروضاً من اقتاب وحبال ، وغير ذلك ، لأنه ثبت عنده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا يبقى دينان فى جزيرة العرب .

فأجلى يهود خيبر ، ونجران ، وفدك ، وكان عدتهم زهاء ٤٠ ألفاً .

وقال عمر : لئن عشت الى قابل لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب كلها . (١)

---

(١) حكى أن بعض اليهود أظهر كتاباً ، وادعى أنه كتاب النبى باسقاط الجزية عن أهل خيبر ، وفيه شهادة بعض الصحابة . فعرض على أبى بكر الخطيب البغدادى ، فقال : هذا مزور ، لأن فيه شهادة معاوية وهو قد أسلم عام الفتح ، فلم يحضر خيبر ، وفيه شهادة سعد بن معاذ ، وقد مات فى بنى قريظة قبل خيبر بسنتين .

المسجد الحرام (١)

لم يكن المسجد الحرام على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبى بكر الصديق رضى الله عنه ، جدار يحيط به .

فلما استخلف عمر رضى الله عنه وكثر سواد المسلمين ، ووجد الناس قد ضيقوا على الكعبة ، وألصقوا دورهم بها ، تاركين بينها أبوابا للدخول

---

(١) المراد بالمسجد الحرام هنا المسجد المحيط بالكعبة ، وقد يطلق المسجد الحرام ، ويراد به عين الكعبة ، كما فى قوله تعالى : « فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » إذ لم يقل أحد من المسلمين بالاكتفاء بالتوجه إلى استقبال المسجد المحيط بالكعبة ، وهذا هو أصل حقيقة اللفظ ، وهو المعنى بقوله تعالى : « إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ » وبقوله صلى الله عليه وسلم لما سأله « أبو ذر » عن أول مسجد وضع للناس ، قال : « المسجد الحرام » .

وقد يطلق المسجد الحرام ويراد به المسجد المحيط بالكعبة ، وهو الغالب فى الاستعمال على وجه التغليب المجازى ، كما فى قوله صلى الله عليه وسلم : « صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام » ، وقوله تعالى : « سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى » على قول من روى أنه كان نائما فى المسجد المحيط بالكعبة .

وقد يطلق المسجد الحرام ، ويراد به مكة . أو الحرم بكماله ، على قول من يقول : إن المراد بالمسجد الحرام مكة ، لأنه صلى الله عليه وسلم كان نائما فى بيت « أم هانىء » لما أسرى به ، وكما فى قوله تعالى : « ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » على قول من يقول ان المراد الحرم الخارج عن مكة بكماله . وهذا كله على وجه التغليب المجازى . ولا ريب فيه ، وإلا يلزم الاشتراك فى موضوع المسجد الحرام . والمجاز أولى منه . اهـ . مسالك الأبصار

الى الكعبة ، قال : « إن الكعبة بيت الله ، ولا بد للبيت من فناء ، وإنكم دخلتم عليها ، ولم تدخل عليكم » . فاشترى فى سنة ١٧ ﻫ دوراً من أهلها وهدمها وأدخلها فى المسجد المحيط بالبيت ، وهدم على قوم من جيران المسجد أبوا أن يبيعوا ، ووضع لهم الثمن فى بيت المال ، حتى أخذوه بعد واتخذ للمسجد جداراً قصيراً دون القامة ، فكانت المصابيح توضع عليه[1]

فلما استخلف عثمان رضى الله عنه ابتاع منازل أخرى وسع بها المسجد ، وغالى فى ثمنها وهدمها ، ووضع لهم الثمن فى بيت المال كما فعل عمر ، فضجوا به عند البيت ، فقال : « إنما جرأكم على حلمى عنكم ، ولينى لكم ، لقد فعل بكم عمر مثل هذا ، فأقررتم ورضيتم » ثم أمر بهم الى الحبس حتى كلمه فيهم « عبد الله بن خالد بن أسيد » فخلى سبيلهم ، وكان ذلك فى سنة ٢٦ﻫ

ويقال إن عثمان أول من اتخذ للمسجد الأروقة ، حين وسعه .

وفى عهد « معاوية بن أبى سفيان » تهدم جزء من معالم الحرم ، فكتب إلى عامله بالمدينة « مروان بن الحكم » يأمره أن يكلف « كرز بن علقمة[2] الخزاعى — إن كان حياً — إقامة معالم الحرم ، لمعرفته بها ، وقد كان معمراً ، فأقامها » كما نص على ذلك « البلاذرى » المتوفى سنة ٢٧٩ ﻫ

وفى سنة ٦٤ زاد فيه « عبد الله بن الزبير » زيادة كبيرة ، كما قال « الأزرقى » ، واشترى دورا من جملتها بعض دار « الازرقى » جد « الازرقى » هذا ، اشترى ذلك البعض ببضعة عشر ألف دينار . وقد جعل فيه عمدا من رخام ، وزاد فى أبوابه وحسنها .

---

(١) إن أول من استصبح لأهل الطواف « عتبة بن الأزرق » وكانت داره لاصقة بالمسجد ، فكان يضع فى جداره مصباحا يضىء لمن يطوف بالبيت .

(٢) « كرز » هذا هو الذى قفا أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين انتهى إلى الغار الذى استخفى فيه مع أبى بكر الصديق .

وفى سنة ٧٥ عمره « عبد الملك بن مروان » عمارة حسنة ولم يزد فيه ، لكنه رفع حيطانه ، وسقفه بالساج ، وغشى رأس (تاج) كل اسطوانة بالذهب بما يوازى ٥٠ مثقالا

ثم إن « الوليد بن عبد الملك » المذكور وسع المسجد ، ونقض عمل أبيه ، وشيده تشييدا محكما ، وسقفه بالساج المزخرف ، وأزر جدران المسجد من الداخل بالرخام ، وجعل له شرافات ، وعمل به فسيفساء فى وجوه الطيقان من أعلاها ، وهو أول من جعلها بالمسجد ، وقد غشى تيجان الأعمدة بالنحاس تقليداً للذهب .

ثم وسع فيه بقدر نصفه «أبو جعفر المنصور » ثانى الخلفاء العباسيين فى سنة ١٣٩ هـ من جانبيه الشامى (البحرى) والغربى ، وجعل بهذه الزيادة رواقاً واحدا ، فأصبح طول المسجد ٣٧٠ ذراعا وعرضه ٣١٥ بذراع العمل .

وقد موّهه بالذهب وأنواع النقوش ، وبنى مئذنة بنى سهم .

ولما حج «المنصور» سنة ١٤٠ رأى حجارة الحِجر متآكلة ، فأمر بتغطيتها بالرخام ليلا ، حتى إذا أصبح لايراها إلا مغطاة .

ثم إن الخليفة « المهدى ابن أبى جعفر المنصور » زاد فيه زيادة كبيرة من أعلاه ، ومن الجانب اليمانى ، ومن الموضع الذى انتهى إليه أبوه فى الجانب الغربى على دفعتين :

الأولى : فى سنة ١٦١ زاد فيه رواقين .

والثانية : فى سنة ١٦٧ وكان أمر بها لما حج حجته الثانية فى سنة ١٦٤ ، ورأى الكعبة فى ناحية من المسجد وليست فى وسطه ، فكره ذلك ، وأحب أن تكون بوسط المسجد ، فدعا المهندسين ، وشاورهم فى ذلك ، فقالوا بعد روية : «إن وادى مكة له سيول قوية ، ونخشى إن حولنا الوادى عن مكانه أن لايتم لنا على مانريد» فقال المهدى : «لابد من سعة المسجد ، حتى تكون الكعبة فى وسطه — ولو أنفقت فيه جميع مافى بيوت المال » وشدد فى

ذلك ، وقوى عزمه . فاشتغل المهندسون بحضوره ، ونصبوا الرماح على الدور من أول موضع الوادى إلى آخره ، ثم ذرعوه من فوق الرماح ، حتى عرفوا مايدخل فى المسجد من ذلك وما يبق فى الوادى .

ثم خرج « المهدى » إلى العراق ، وخلف الأموال ، فاشتروا من الناس دورهم ، ووسعوا المسجد ، بأن جعلوا بدائر صحنه أروقة ثلاثة على أعمدة من رخام جلبت من « اسكندرية » حيث حملت فى البحر إلى « جدة » ثم على العجل إلى « مكة »

وولى العمارة « يقطين بن موسى » فاستمر العمل إلى أن مات « المهدى » فى سنة ١٦٩ هـ ، وولى الخلافة ولده « موسى الهادى » فأمر باتمامها . وروعى فى ذلك امكان تصريف مياه السيول إذا حدثت .

وقد أنفق « المهدى » فى ذلك أموالا عظيمة ، بحيث صار ثمن الذراع المربع مما أدخل فى المسجد ٢٥ ديناراً و ١٥ ديناراً لما أدخل فى الوادى .

وفى خلافة « هرون الرشيد » عمل أمير مكة مظلة للمؤذنين على سطح المسجد (١) ليؤذنوا فيها يوم الجمعة . وكانوا يؤذنون قبل ذلك فى يومها على السطح صيفاً وشتاء .

وبعد عمارة « المهدى » لم يزد على المسجد سوى زيادتين ، إحداهما دار الندوة التى فى الجانب الشامى (البحرى) من المسجد ، والأخرى باب ابراهيم فى الجانب الغربى منه .

فالأولى فى أيام الخليفة المعتضد بالله سنة ٢٨٤ وقد صرف عليها مالا عظيما ، فأخرجت القمامات (الكناسة) من دار الندوة ، وجعلت مسجداً

---

(١) يوجد مثل هذه المظلة بالجامع الأزهر الشريف فى منتصف الجنب الغربى من الصحن .

بأعمدة . وطاقات وأروقة مسقفة بالساج ، المزخرف ، ووصلت بالمسجد الكبير ، بأن فتح لها فى جداره « ١٢ » باباً بعقود منها ستة كبار

وجعل فى هذه الزيادة — وكانت بعلو المسجد الكبير — من الخارج ثلاثة أبواب : بابان كلاهما طاقان (نافذتان) وباب طاق واحد شارعة فى الطريق التى حولها . وبنى فيها منارة وشرافات .

وذرع هذه الزيادة طولا من الشمال إلى الجنوب ٦٤ ذراعا ، وعرضها من الشرق إلى الغرب ٧٠ ذراعاً . وقد استغرقت العمارة فيها ثلاث سنوات .

وفى سنة ٣٠٦ غيّر القاضى « محمد بن موسى » فى هذه العمارة ، حتى صار من فى « دار الندوة » من مصلّ ومستقبل يرى القبلة كلها .

وقد كانت « دار الندوة » منزلا للخلفاء والأمراء فى صدر الاسلام إذا حجوا ، ولكن أمرها أهمل فى منتصف القرن الثالث الهجرى ، فأخذ يتهدم بناؤها ، وألقيت فيها القمامات ، حتى أضيفت إلى المسجد .

أما الزيادة الثانية فكانت بالجانب الغربى معروفة بزيادة باب « إبراهيم » عملها الخليفة « جعفر المقتدر بالله » مسجداً يوصل إلى المسجد الكبير ، فاتسع الناس به ، وصلوا فيه فى سنة ٣٠٧ هـ .

وطول هذه الزيادة ٥٧ ذراعاً إلا ربعاً ، وعرضها ٥٢ ذراعاً وربع ذراع .

ولما تولى مصر السلطان « برقوق بن أنص » فى شهر رمضان سنة ٧٨٤ هـ جهز للحرم المكى مالا لعمارة ما تهدم منه ، وسار الركب الرجبى من مصر الى مكة بعد طول انقطاعه .

وفى أيام الناصر « فرج بن برقوق » الذى ولى ملك مصر سنة ٨٠١ وقع الحريق (١) العظيم فى المسجد الحرام لليلتين بقيتا من شوال سنة ٨٠٢ ، فأتى

(١) لما حصل الحريق تحدث الناس بأن هذا منذر بحادث جليل يقع فى الناس ،

على نحو ثلث المسجد . وسببه ظهور نار من رباط « رامشت » (١) الملاصق لباب الحَزْوَرة من أبواب المسجد فى الجانب الغربى منه ، واستمرت النار إلى أن وصل الحريق إلى الجانب الشمالى ، حتى أتى إلى باب العجلة .

فصار مااحترق من المسجد أكواماً كبيرة ، تمنع من رؤية الكعبة الشريفة ، ومن الصلاة فى ذلك الجانب من المسجد ، وقد احترق ١٣٠ عموداً رخاماً ، صارت كلها كلساً .

فلما علم بذلك الملك الناصر «فرج» عين الأمير « بيسق الظاهرى » . لتعمير المسجد . فحضر إلى مكة فى موسم سنة ٨٠٣ وكان أميراً على الحاج المصرى . فبعد انتهاء الحج تخلف بمكة ، وشرع فوراً فى تنظيف الحرم من الأكوام ، وكشف عن أساس المسجد والأسطوانات ، ثم بناها ، وجلب من جبل بالشبيكة على يمين الداخل الى مكة أحجاراً من صوان صلبة (بُسَطاً) وكوّن منها أسطوانات وضع بوسطها قضيباً من حديد أحكم وضعه بالرصاص ، ووضع فوق كل من الاسطوانات حجراً (تاجاً) من المرمر ، وبنى العقود بالآجر والجص إلى السقف ، واستمر إلى أن تم الجانب الغربى من المسجد . وبقيت القطعة التى من الجانب الشامى (الشمالى) إلى باب العجلة ، فأكملوها بقطع من عمد الرخام الأبيض موصلة بعضها ببعض بأطواق من حديد . فكانت أعمدة الجوانب الثلاثة من الرخام ، بينما أعمدة الجانب الغربى وحده

فكان مقدم المحن العظيمة بقدوم « تيمورلنك » إلى بلاد الشام ، والروم ، وسفك دماء المسلمين ، وسبي ذراريهم ، ونهب أموالهم ، وإحراق مساكنهم ، ودورهم .

(١) رامشت هذا هو الشيخ أبو القاسم ابراهيم بن الحسين الفارسى ، وقف رباطه على الصوفيين فى سنة ٥٢٩ فترك بعض سكان الخلاوى سراجاً موقوداً فى خلوته ، فسحبت فأرة فتيلة السراج منه الى خارجه ، فأحرقت الخلوة واشتعل اللهب فى سقفها وخرج من الشباك المشرف على الحرم ، واتصل بسقف المسجد ، وعجز الناس عن إطفائه لعلوه وعدم وصول اليد إليه ، فعم الحريق الجانب الغربى من المسجد .

من الحجر الصوان . وكملت عمارة هذه العمد فى أواخر شعبان من سنة ٨٠٤ هـ .
ولم يبق غير عمل السقف ، وقد أجل عمله بسبب عدم وجود خشب يصلح لذلك بمكة إذ لا يوجد بها غير خشب الدوم ، وخشب العرعر — وليس لذلك طول ولا قوة — ويحتاج الأمر إلى خشب الساج ، ولا يجلب إلا من الهند . أو إلى خشب الصنوبر ، ولا يجلب إلا من بلاد الروم .

وقبل أن يعود الأمير إلى مصر أصلح رباط « رامشت » وصرف عليه من ماله احتساباً لوجه الله تعالى .

وبعد ماحج الأمير فى عام ٨٠٤ آب إلى مصر ، وقد شكره الناس على همته العالية ، وإنجازه العمل فى مدة يسيرة .

ولما استحضر الخشب من بلاد الروم عاد الى مكة فى سنة ٨٠٧ لإتمام العمارة . وقد استعان بكثير من خشب العرعر - لعدم كفاية الخشب الذى جلبه - وبعد الانتهاء من السقف نقشها بالألوان الزاهية .

وقد بذل همته واجتهاده إلى أن تم عمارة المسجد - إلا قليلا - وعلّق فى الأسقف سلاسل من نحاس وحديد ، لتعليق القناديل فى الرواق الوسطانى من الأروقة الثلاثة ، على مثال سائر المسجد الحرام . وعمر أيضا مافى صحن المسجد من المقامات الأربعة ، على الهيئة القديمة ، وتم جميع ذلك فى السنة المذكورة .

وفى سنة ٨١٥ عمرت أماكن من سقف المسجد ، وعقدان من جانب الركن اليمانى المتصل بصحن المسجد ، على يد القاضى « جمال الدين ابن ظهيرة » ، من مال تطوع به أهل الخير .

ولما ولى السلطنة بمصر الملك الأشرف أبو النصر « برسباى » فى سنة ٨٢٥ أرسل فى أول سنى ملكه الأمير « مقبل القديدى » إلى مكة ، وأمره بعمارة أماكن متعددة من المسجد الحرام ، كان قد استولى عليها الخراب ، فأحسن بناءها ، وجدّد كثيراً من أسقف المسجد كان قد تآكلت أخشابها .

وفى سنة ٨٤٢ هـ عمر الأمير « سيدوم » سقف المسجد .

وفى سنة ٨٥٢ رمم بعض أماكنه « بيرم خواجه » ناظر الحرمين من قبل السلطان أبي سعيد « جقمق »

وفى سنة ٩١٧ عمر السلطان « قانصوه الغورى » باب ابراهيم (١) وجعل له عقداً بعد أن لم يكن ، وجعل فى أعلاه قصراً وفى جانبيه سكنين وبيوتاً تغل بالكراء ، وبنى ميضأة خارج باب ابراهيم .

وقبيل سنة ٩٧٩ حصل خلل جسيم بالمسجد ، ولم ينفع فيه إصلاح نظار الحرم ، فعرض أمره على السلطان « سليم الثانى » ، فأمر فوراً فى سنة ٩٧٩ ببناء المسجد جميعه ، وأن يجعل عوض السقف (٢) قباب دائرة بالأروقة ، ليأمن من تآكل الخشب الذى يحتاج كل زمن إلى تغييره ، وكلف بذلك العمل وزير مصر الأعظم « سنان باشا » على أن ينتخب من يراه أهلا له من أمراء السناجق المستحفظين أصحاب الأمانة والخبرة .

فانتخب « سنان باشا » الأمير « احمدبك » كتخدا « اسكندر باشا » ، والى مصر سابقا ، وهو من الرجال المشهورين بالديانة والتقوى ، لتأدية

---

(١) قال ابن ظهيرة ادركت هذا الباب وهو واطىء جداً ، وانما رفع وعملت له هذه الدرجة فى دولة الأشرف قانصوه الغورى على يد الأمير خير بك المعمار . وقد شاهدت عمارته وأنا اذ ذاك فى المكتب ، وكانت السيول اذا دخلت المسجد تخرج منه ، والآن كذلك يخرج السيل من القبو الذى تحته ، لأنه لما رفع جعل تحته قبو معقود بالحجارة المنحوتة لمصرف السيل » . اهـ

(٢) كان للمسجد سقفان علو بعضهما ، بينهما نحو ذراعين ، وصار هذا الفراغ مأوى للحشرات والأرضة ، والثعابين والطيور .

هذه الخدمة ، وإصلاح عين عرفات ، من الأبطح إلى آخر المسفلة بمكة وأن يبنى لها دبلا مستقلة عن دبل عين حنين .

وأخطرت السلطنة بقبوله ، فاعتمدته ، وأضافت إليه سنجق « جدة » تعظيما لشأنه .

فتوجه إلى « جدة » ومعه كبير المهندسين بمصر المعلم « محمد » جاويش الديوان العالى ، وهو من الأمانة والديانة والمعرفة العمارية على جانب عظيم ، ثم وصل إلى «مكة» فى سلخ ذى الحجة سنة ٩٧٩ وقد وردت الأوامر السلطانية إلى ناظر المسجد القاضى « حسين الحسينى » بالاشتراك مع الأمير «احمد» ومساعدته فى طلباته .

فاتفقا على الشروع فى العمل ، وابتدأ أولا فى إكمال الدبل المستقل لاجراء عين عرفات .

وبنى قبة فى الأبطح جعل فيها مقسم ماء عرفات ، وركب فى جداره بزابيز من النحاس يشرب منها الماء .

ثم بنى مسجداً وسبيلا وحوض ماء للدواب على يمين الصاعد إلى الأبطح . وبنى مسجداً آخر وسبيلا ومتوضأ فى انتهاء سوق المعلاة على يسار الصاعد .

وعرض ذلك على السلطنة فانعمت عليه بسبعين ألف عثمانى فى مقابلة هذه الخدمة .

ثم شرع فى تجديد أروقة الحرم فبدأ فيه بالهدم من جهة «باب السلام» فى منتصف ربيع الأول سنة ٩٨٠ واستمر العمل بهمة من « باب على » إلى «باب السلام» المذكور وهو الجانب الشرقى من المسجد .

وكانت الأعمدة المبنية سابقا على نسق واحد فى جميع الأروقة فظهر لهم أن ذلك الوضع لايقوى على تركيب القباب عليها لقلة استحكامها ، إذ يجب أن يكون للقبة دعائم أربعة قوية تحملها من جوانبها الأربع ، فرأوا أن يدخلوا بين اسطوانات الرخام الأبيض دعامات أخرى تبنى من الحجر الشميسى الأصفر [1] يكون سمكها مقدار سمك أربع اسطوانات من الرخام ليكون مقيما لها من كل جانب .

ففى أول ركن من الرواق الأول دعامة من الحجر ثم اسطوانة رخام ثم دعامة من الحجر ، وهكذا إلى آخر الصف من أعمدة الرواق ، ثم الصف الثالث من الرواق الثالث على هذا المنوال ، وبنيت القباب على تلك الدعائم والأساطين فى دور المسجد جميعه . وشرعوا من ركن المسجد من جهة باب السلام .

واستمر الأمير « أحمد » يواصل العمل ويصرف الأجور للعمال كاملة ويزيدهم أحيانا من عنده من ماله الخاص .

فلما كمل الجانبان الشرقى والشمالى من المسجد وجاءت الأخبار بوفاة السلطان « سليم » لسبع مضين من رمضان سـنة ٩٨٢ استمر الأمير المذكور فى عمله ولم يتوقف .

ولما ولى السلطان « مرادخان » ابن السلطان « سليم » المذكور بعد يومين من وفاة والده ، أمر بتكميل العمارة فوراً ، فبذل الأمير « احمد » جهده واستمر حتى تم بناء الجانبين الآخرين الغربى والجنوبى ، وقد وضع الشرافات والأبواب والدرجات من داخل المسجد وخارجه ، وتم العمل جميعه فى آخر سنة ٩٨٤هـ (٢) فكان نزهة الناظر ، وبغية للخاطر .

---

(١) الحجر الشميسى نسبة إلى شميس تصغير شمس جبل بقرب بئر شمس وهى حد الحرم من جانب جدة به جبيلات صفر تقلع منها هذه الأحجار وتحمل إلى مكة مسافة مادون ليلة .

(٢) وقد كتب على الأبواب وصدور الأروقة بعض آيات الكتاب واسم

وبلغ ما أنفق عليه فى هذه العمارة ١١٠٠٠٠ دينار (٥٥٠٠٠ جنيه مصرى تقريبا) ومائة ألف من الذهب الأبريز، وذلك عدا ماوصل من مصر من مواد البناء، مثل الخشب والحديد الصلب والحديد المحدد رأسه بطول الرواقين وبين الاسطوانتين على الأوتار لمنع جلوس طير الحمام وغيره عليها، خشية من تلوث المسجد بزرقها، وغير أهلة القباب التى عملت من النحاس وطليت بالذهب.

السلطان بخط جلى. واخترع الفضلاء لذلك تواريخ أبجدية، منها وهو أخصرها وأجملها «خير مساجد الله» ومنها ما هو فى بيت مفرد

«جدد المسجد الحرام مراد دام سلطانه وطال أوانه»

ومنها ماأنشأه ناظر الحرم القاضى «حسين الحسينى» «أطال الله لمن اتمه عمرا»

ثم ورد من السلطنة تاريخ منظوم فى ثلاثة أبيات يتقدمه نثر لطيف أمر بكتابته على بعض أبواب المسجد فنقش فى الحجر الشميسى على باب «العباس» إلى باب «على» فى الجانب الشرقى من المسجد، وغشى بالذهب: واليك نصه:

«الحمد لله الذى أسس بنيان هذا الدين المتين بنبى الرحمة والارشاد، وخصه بمزيد الفضل والكرامة والاسعاد، وجعل حرم مكة مطافا لطوائف الطائفين الحاجين من أقاصى البلاد. صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الأجلة الأمجاد، ووفق عبده المعتاد باحكام الأحكام الشريفة وتشييد أركانها على وجه المراد، المدخر ذخر الآخرة المزيد من زاد المعاد. أدام الله ظله الممدود على مفارق العباد. السلطان ابن السلطان ابن السلطان السلطان مراد. جعل الله الخلافة فيه وفى أعقابه إلى يوم التناد، لتجديد معالم المسجد الحرام الذى سواء العاكف فيه والباد. قتم فى افتتاح سلطته العظمى لا زال للحرمين المحترمين خادما، ولأساس الجور والاعتساف هادما، بتجديد حرم بيت الله عز وجل، بأمره المعزز المبجل، وعمر عامر جوده ما تضعضع من أركانه، بعد ما كان ينقض عوالى جدرانه، فجدد جدران البيت العتيق، وسوره

وفى هذه العمارة خفض العمال أرض الشارع الموصل إلى المسفلة ، بحيث صار يصرف ماعساه يدخل إلى المسجد من مياه السيول ، التى كثيراً ما كانت سببا فى نقض أركانه . وهدم بنيانه ، وقد كانت الأرض علت ، إلى أن لم يبق للدخول إلى المسجد من الأبواب التى فى تلك الجهة إلا فى ثلاث درجات بعد أن كانت نحو ١٥ درجة يصعد منها إلى أن يدخل من الباب إلى المسجد ، وكان مجرى السيل يقطع ويحمل ترابه إلى خارج البلد من جهة المسفلة فى كل

بأكمل زينة وصورة ، بعد ما أبلاه الجديدان ، وأكل عيدان أرضها الأرضة والديدان ، فرفع القباب موضع السطوح المبنية بالأخشاب ، وابتهج بهذه الحسنة الكبرى كل شيخ وشاب ، فأذعنوا له بالشرف الباهر ، والمجد الفاخر ، تالين قوله تعالى : « إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » وداعين له من الله الجميل والذخر الزاخر ، قائلين : اللهم أدمه فى سرير الخلافة ، محروساً بحفظك من آفة ، وظافرا على من يريد خلافه ، مشيداً للمساجد والمدارس ، مجددا لكل خير منهدم ودارس ، واجعل بابه للراجين حرما آمناً ، وجنابه للمحتاجين كفيلا ضامناً . يأتون إليه من كل فج عميق ، لحرمة البيت العتيق ، تقبل الله معطى السؤال بجاه الرسول ، هذا الدعاء الحرى بالقبول ، فلما أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان ، جاء مشيد الأركان حاكيا روضات الجنان ، وصار عنوان خلافته ، وبراعة استهلاله لمنشور سعادته ، فى أوائل سنة أربع وثمانين وتسعمائة الهجرية ، وكان الابتداء بذلك التجديد ، بأمر والده الدارج إلى مدارج الملك المجيد ، السلطان السعيد ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، السلطان سليم ابن السلطان سليمان ابن السلطان سليم ابن السلطان بايزيد ابن السلطان محمد ابن السلطان مراد ابن السلطان أورخان ابن السلطان عثمان مكنهم الله على سرر فى دار الجنان ، وأثل أخلافهم فى مسند الخلافة إلى انقراض الزمان ، وكان الشروع فى الرابع عشر من ربيع الأول من شهور سنة ثمانين وتسعمائة فلما سلم السلطان سليم ، وديعته بأحسن تسليم ، وارتحل من دار القصور ، إلى

عشرة أعوام مرة ، فغفل عنـــه نحو ٣٠ عاما ، فملت الأرض ، فجاءت سيول طاغية فى سنة ٩٨٣ فدخلت من أبواب المسجد وامتلأ المطاف الشريف ، ووصل الماء إلى حول الكعبة وغطى الحجر الأسود إلى آخر ما سنذكره عند كلامنا على للسيول بمكة .

وفى سنة ١٠٧٢ رمم المسجد « سليمان بك » والى « جدة » وشيـخ المسجد الحرام ، بما زوّده به أمير مصر « محمد القزلار الأغا » .

ثم حصلت به عمارات ترميمية وأهمها العمارة التى أنشأها السلطان عبد المجيد . فان الخطاط الشهير المرحوم عبد الله بك الزهدى مكث يكتب على الألواح الرخام فى المسجد الحرام والمسجد النبوى زهاء ست سنوات ، وكان يفتخر بذلك فى إمضائه بقوله : « كاتب الحرمين الشريفين عبد الله الزهدى » كما هو منقوش على سبيل والدة عباس باشا الأول بمصر .

ما هيأ الله له فى الجنة من القصور ، قبل تمام ما رام من تجديد المسجد الحرام ، وأجلس الله على سرير الخلافة ، نجله النجيب أحسن إجلاس ، وجعل حرمه مثابة للناس ، يسر الله الأتمام ، بطلعة إقباله وجوده الليالى والأيام ، وأنام الأنام فى مهد عدله إلى قيام الساعة وساعة القيام . ونظم راقم هذه الأرقام ، تاريخا يليق أن يكتب فى هذا المقام ، وهو هذا :

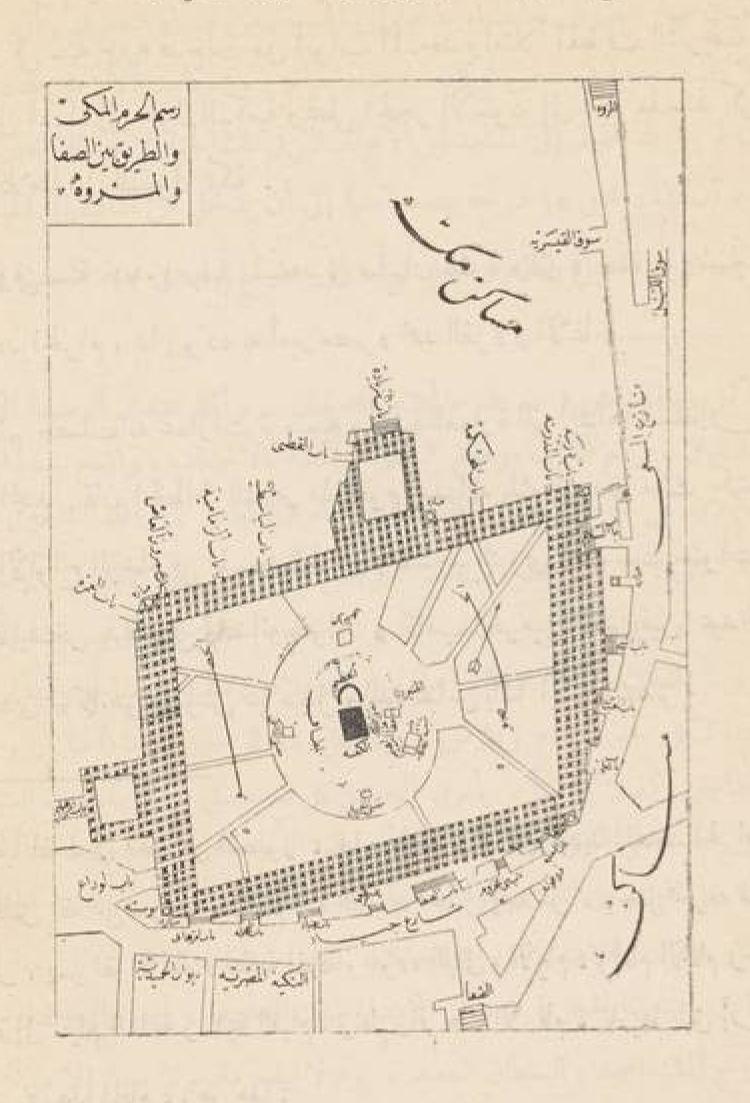
جدد السلطان مراد بن سليم مسجد البيت العتيق المحترم

سر منه المسلمون كلهم دار منشور اللواء والعلم

قال روح القدس فى تاريخه عمر سلطان مراد الحرم » اه

ويظهر بعض هذا النص فى الصورة الخاصة بباب « على » المدرجة بالصحيفة ١٦٤

وقد أصبح الحرم الآن كما يرى فى الصورة الآتية :



وصف عام للمسجد الحرام

والحرم من داخله معين الشكل ، وفى وسطه تقريبا « الكعبة المكرمة » وطول ضلعه المقابل للحطيم ، وهو الذى فيه « باب الزيادة » ١٦٦ مترا ، وطول الضلع الذى يقابله ، وفيه « باب الصفا » ١٦٤ مترا ، وضلعه الشرقى الذى فيه « باب السلام » ١٠٨ أمتار ، والغربى الذى فيه « باب إبراهيم » ١٠٩ أمتار . فيكون مسطحه من الداخل نحو ١٧٩٠٢ أمتاراً مربعة ، أى ٤ أفدنة و٦ قراريط وكسر .

أما من الخارج فمتوسط طوله ١٩٢ مترا ، وعرضه ١٣٢ متراً . وهذا حسب مقاس المرحوم « محمد صادق باشا » أمير الحاج سابقا .

ويحيط بالحرم من داخله ٤ إيوانات ، فيها ٣١١ عموداً من رخام ، يتخللها ٢٤٤ اسطوانة من الحجر الشميسى الاصفر (١) تقوم عليها قباب على محيط المسجد .

وعلى بعض هذه العمد كتابة محفورة ، تدل على ما كان لبعض الملوك من العمارات فى المسجد ، أو من الأعمال التى فيها نفع للمسلمين كابطال المكوس ، ونحو ذلك . (٢)

---

(١) وفى كتاب مرآة الحرمين أن مجموع العدد ٥٤٥ لا ٥٥٥

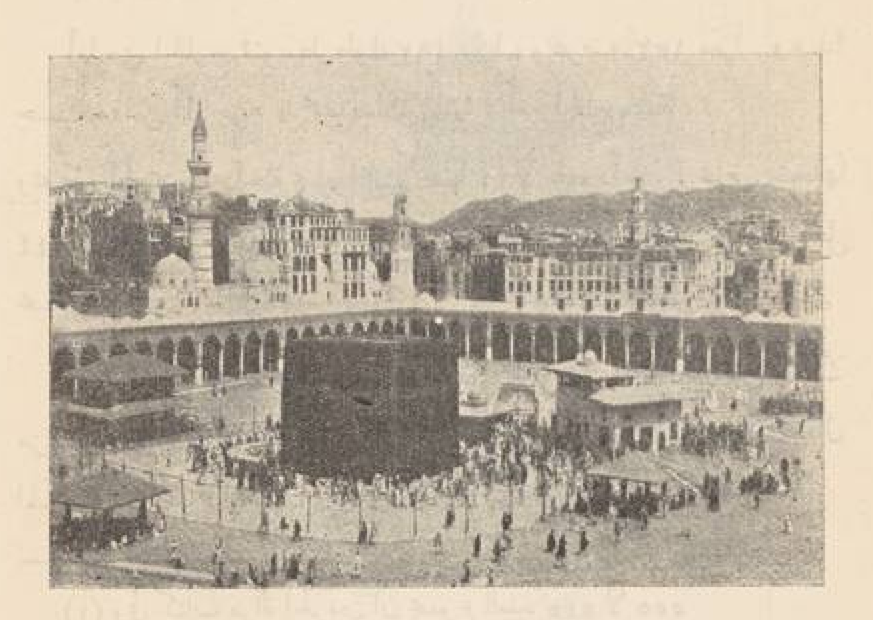
(٢) ومن هذه العمد عمود بقرب « باب الحزورة » لا يزال منقوشا عليه مرسوم كتبه السلطان الملك الأشرف « شعبان » ملك مصر بأبطال الضرائب التى كانت تأخذها أشراف مكة على الحجيج .

وأغلب هذه العمد مغشى بالجص ، لأن بعض أمراء مكة ، كانوا إذا أرادوا نقض المراسيم (العهود) المحفورة عليها ، عمدوا إلى تلك النقوش ، وكسوها بعجينة من الجص فلا يظهر لها أثر — راجع الرحلة الحجازية —

وقد بلغنى عن صديقى المرحوم الأستاذ « حسن افندى محمد الهوارى » الأمين

وبين كل عمودين معلق خمسة قناديل كبار ، توضع فيها المصابيح ، وفى قطب كل قبة قنديل ، فاذا ما أضيئت كل هذه القناديل كلها مع ما حول الكعبة أحدثت منظراً يملأ النفس بهجة وسروراً .

وما عدا هذه الأروقة من المسجد ، فصحن واسع تتوسطه الكعبة ، يحيط بها المطاف المرصوص بالرخام ، قد أقيم عليه صف من الأعمدة المصنوعة من النحاس الأصفر ، وصل بينها بعوارض من حديد تعلق فيها المصابيح ، كما يشاهد فى الرسم الآتى :



الثانى لدار الآثار العربية أنه لما حج منذ ثلاث سنوات ، نقل كثيراً من النقوش الكتابات الكوفية ، والنسخية ، الموجودة بالحرم المكى ، وبداخل الكعبة ، بعضها بالفوتوغرافية ، والبعض الآخر بالنقل الطبيعى ، وأنه لما عاد عزم على طبع كتاب يشمل كل هذه النصوص ، وشيئاً عن تاريخ المسجد الحرام ، ولكن المنية عاجلته رحمة الله عليه . وأن هذه الصور التى نقلها موجودة الآن لدى جناب المحترم الأستاذ المؤرخ الكبير ، مسيو « جاسْتُون فِييتْ » مدير دار الآثار العربية ، وأنه سيباشر

وأقيم بخارج المطاف تجاه كل ضلع من أضلاع البيت – عدا الضلع الشرقى – سقيفة قامت على عمد من رخام يصلى فى الشمالية منها إمام الحنفية، وهى ذات طبقتين . وفى الغربية إمام المالكية . وفى الجنوبية إمام الحنابلة . أما إمام الشافعية فيصلى خلف مقام « إبراهيم » شرقى الكعبة ، أو فى المطاف ، مما يلى الكعبة مباشرة جاعلا بابها على يساره ، أو فوق البناء المقام على زمزم .

والحنفى يبتدىء بالصلاة فى جميع الأوقات ، ويتلوه المالكى ، ثم الشافعى ، ثم الحنبلى . إلا صلاة الصبح فيبدأ بها الشافعى ، ويتأخر بها عنهم الحنفى .

وبجوار المطاف فى الجهة الشرقية « المنبر » وهو من رخام من زمن السلطان سليمان القانونى ، وفى جنوبيه قبة أقيمت على « بئر زمزم » أنشئت قديماً منذ سنة ١٤٥ هجرية .

وبشمالى المنبر باب « بنى شيبة » وهو باكية كبيرة قامت وسط الحرم فى حدود المطاف ، على عمودين من البناء المكسو بالرخام، فى المكان الذى كان به باب المسجد فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم .

وأرض المسجد منخفضة عن الأرض المحدقة به بنحو ثلاثة أمتار ويصعد من أرضه إلى الأبواب التى على الشوارع بدرج ، والبيت منحدر تدريجاً عن هذه الأرض بنحو متر .

جمع وترتيب هذه الوثائق التاريخية الثمينة ، فى كتاب ، ويقدمه إلى الجمهور ، مشفوعا بآرائه وتحقيقاته ، فنرجو من جنابه خدمة للعلم ، وتعميما للفائدة ، أن يتفضل ويبادر بطبع هذا السفر النفيس ، الذى سيكون الأول من نوعه . وأن جميع المسلمين فى أقطار المعمورة يتمنون بشوق عظيم إصدار هذا الكتاب ، ويقدمون لجنابه الشكر سلفاً .

وصحن المسجد سقفه السماء، وفرشه الحصباء (١) الا ماتخلله من المماشي التى بين الأبواب والأروقة من جهة، والمطاف وما يليه من ناحية الكعبة من جهة أخرى، فانها مرصوفة بحجارة من الجص، كالأروقة، ليسلكها الناس، ويتجنبوا الحصباء التى كثيراً ماتكون مبللة بماء الوضوء. ولذلك فأن المطوفين إذامادنت صلاة العصر بسطوا «الأكلمة» والسجاجيد على هذه الحصباء ليجلس عليها الحجاج. على أن كثيرا من الناس يفترش الحصباء الساعتين والثلاث انتظارا للصلاة خصوصاً فى يوم الجمعة، إذ تراهم يبكرون، ويجلسون على الحصباء، وقد اشتد القيظ، وتساقط على الأدمغة لهيب الشمس المحرقة، كل هذا حرصاً على سماع الخطبة.

ويجلس على تلك المماشي بعض النساء الفقيرات يبعن الحبوب للحجاج ليقدموها إلى حمام الحمى — وسنتكلم عليه فيما بعد

ومما يلاحظ فى الحرم أن أهل كل جهة من العالم الاسلامى يجلسون عادة فى الجهة التى يستقبلون فيها الكعبة فى بلادهم: فالأعجام تجدهم عند «باب السلام». والشوام والأتراك بينه وبين «باب الزيادة». والمصريون وراء المقام المالكى، واليمنيون والجاوة والهنود وراء المقام الحنبلى.

— راجع الرحلة الحجازية —.

---

(١) الحصباء زلط دون الفولة، وأول من حصب أرضية الحرم عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

وأول بدء الحصى فى فرش المساجد ماروى عن ابن عمر أنه سئل فى ذلك، فقال. مطرنا ليلة فخرجنا لصلاة الغداة، فجعل الرجل منا يحمل فى ردائه من الحصباء فيفرشه على البطحاء ويصلى عليه. فلمارأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك قال: «ما أحسن هذا البساط، فكان أول بدئه فى مسجد الرسول.

ابواب المسجد

وللمسجد ٢٥ باباً (١) على هذا الترتيب :

٨ فى الشمال ، و٥ فى الشرق ، و ٧ فى الجنوب ، و٥ فى الغرب ، ومن هذه الأبواب ٦ صغيرة «خوخات» والباقى كبيرة ، منها ذو الفتحة والفتحتين ، والثلاث ، والخمس ، وهاك أهمها :

فى الشرق :

(١) باب السلام : ويعرف بباب « بنى شيبة » ، وبباب « بنى عبدشمس » وهو ذو فتحات ثلاث ، ومنقوش عليه فى الحجر مانصه :

« أمر بانشاء هذا البيت الشريف السلطان الملك المظفر سليمان خان ابن السلطان سليم خان ابن السلطان بايزيد خان ابن السلطان محمود خان ابن السلطان مراد خان ابن السلطان محمد خان ابن السلطان بايزيد خان ابن السلطان مراد خان ابن السلطان أرخان ابن السلطان عثمان خان ، فى سنة ٩٣١ هجرية » — عن مرآة الحرمين —

وفى زمن « عمر بن الخطاب » أمر بتحصيبه من الوادى المبارك من العقيق ، وكان الناس إذا رفعوا رؤسهم من السجود نفضوا وجوههم بأيديهم .

وسأل رجل «عمر ابن القيس» عن الحصاة يجدها الأنسان فى ثوبه أو فى خفه أو جبهته من حصى المسجد ، فقال : أرم بها ، قال الرجل : زعموا أنها تصيح حتى ترد إلى المسجد ، فقال : دعها تصيح حتى ينشق حلقها ، فقال الرجل : سبحان الله ولها حلق ؟ قال . فمن أين تصيح ؟ .

(١) عدها ابن ظهيرة فى القرن العاشر ١٩ باباً ٤ فى الشرق ، و ٥ فى الشمال ، و ٣ فى الغرب ، و ٧ فى الجنوب .

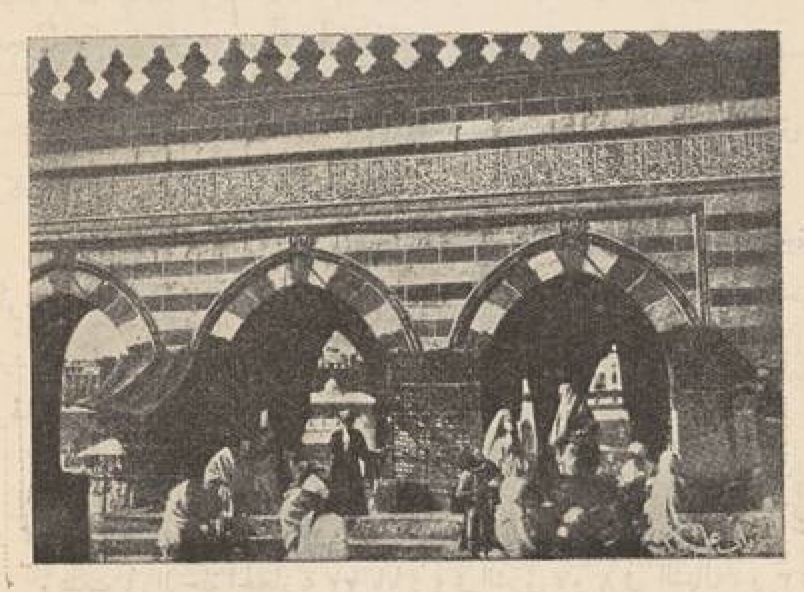
وعدت فى الرحلة الحجازيه ٢٢ بابا : ٤ فى الشرق ، و ٨ فى الشمال ، و ٣ فى الغرب ، و ٧ فى الجنوب .

(٢) باب الجنائز : سمى بذلك لأن الجنائز تخرج منه فى الغالب إلى مقبرة المعلى . وذكر الازرقى : أنه باب النبى صلى الله عليه وسلم الذى كان يخرج منه ويدخل إلى منزله ، دار خديجة رضى الله عنها فى زقاق العطارين ،ولهذا الباب فتحتان ، وينزل منه إلى مستوى المسجد بثلاث عشرة درجة ، ارتفاع الدرجة ربع متر .

(٣) باب العباس بن عبد المطلب : سمى بذلك لأنه يقابل داره بالمسعى وسماه «ابن الحاج» فى منسكه «باب الجنائز» .ولعل ذلك لأنه كان يصلى فيه عليها.

وهذا الباب ذو فتحات ثلاث للدخول منها ، وله ١١ درجة وعليه كتابة منقوشة سنة ١٢٩٩ هجرية . وفوقها كتابة أخرى منقوش بها مانصه : «قدوقع هذا الانشا. الشريف باشارة السلطان الأعظم السلطان مراد خان ابن السلطان سليم خان أيد الله ملكه سنة ٩٨٨ ه» — عن مرآة الحرمين .

(٤) باب على : ويعرف بباب « بنى هاشم » و « باب البطحا. » أيضاً



صورة باب على نقلا عن مرآة الحرمين

كما روى الأزرقي ـ وفيه ثلاث فتحات وارتفاعه عن أرض المسجد ١٣ درجة كل درجة ٢٨ ٪ متراً . وعليه كتابة منقوشة باسم السلطان مراد سنة ٩٨٤ وهي التي ورد ذكرها في صحيفة ١٥٥ .

وفي الجنوب :

(١) باب بازان : سمي بذلك لأن عين مكة المعروفة بيازان قربه وقال ابن ظهيرة : كل محل ينزل اليه بدرج ، ويكون مستطيلا يسمى « بازان » في عرف أهل هذا الزمان .

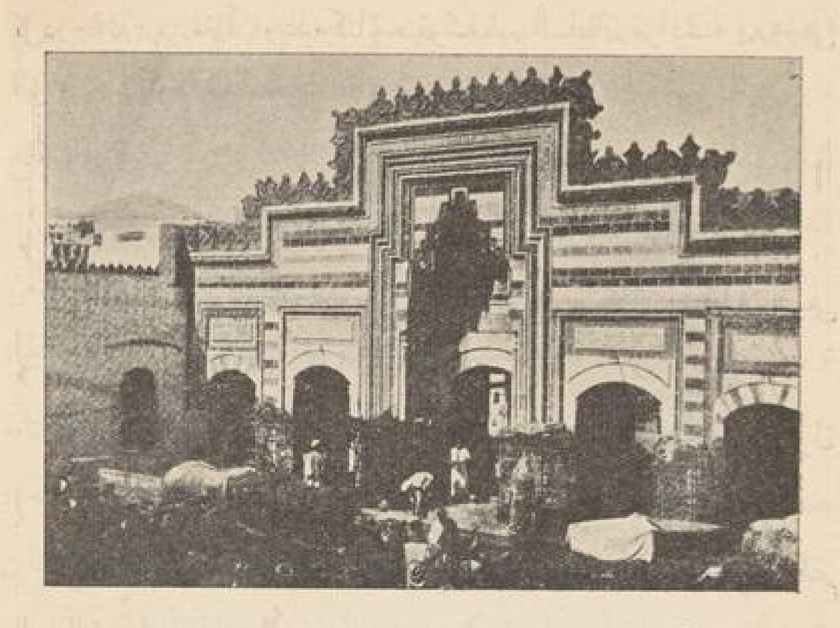
وسماه الأزرقي : باب « بني عائذ » . ويسمى الآن باب القره قول (المخفر) لأنه أمامه .

وهذا الباب ذو فتحتين ، وله ١٣ درجة ، وعليه كتابة منقوشة باسم السلطان مراد سنة ٩٨٤ هجرية .

(٢) باب الصفا : سمي بذلك لأنه يلي الصفا ، وعرفه الفقهاء في المناسك بباب « بني مخزوم » ، وكذا عرّفه « الازرقي » . وهو ذو فتحات خمسة ، وله ١٤ درجة ينزل منها إلى أرض المسجد .

(٣) باب مدرسة الشريف « عجلان » : سمي بذلك لأنها بجانبه . وقد عرفه « الفاسي » بباب « بني تيم » . ويقال له الآن : « باب التكية » لأن أمامه التكية المصرية . وله نافذتان ، وينزل منه الى أرض المسجد بأحد عشرة درجة ومنقوش عليه آيات قرآنية

(٤) باب « أم هاني بنت أبي طالب » : وبذلك عرفه « الأزرقي » وذكر « الفاسي » أنه يسمى في زمنه بباب الملاعبة ، وعرفه « الأقشهري » بباب الفرح ، وكان يطلق عليه « باب الحميدية » ـ دار الحكومة التركية ـ لأنها كانت أمامه ، وأشهر أسمائه الأول .



صورة باب الصفا نقلا عن مرآة الحرمين

ولهذا الباب منفذان ، وله ١٢ درجة ينزل منها إلى أرض المسجد ، ومنقوش عليه بالخط الثلث الجلى أول سورة الفتح

وفى الغرب :

(١) باب الحَزْوَرَة ، وقد صحف بباب عزورة — والحزورة إسم لسوق فى الجاهلية كانت فى هذا المكان ودخلت فى المسجد ، ويسمى باب البقالية — قال الأزرقى : ويقال له « باب حكيم بن حزام ، وبنى الزبير ابن العوام » ويقال له الآن « باب الوداع » لأن الناس يخرجون منه عند سفرهم . ولهذا الباب نافذتان ، وله عشر درجات من الداخل وعليه كتابة منقوشة بين النافذتين باسم الملك الناصر « فرج بن برقوق » سنة ٨٠٤ هجرية وآيات قرآنية .

(٢) باب ابراهيم : وهوذو منفذواحد كبير ، وهوأكبر نوافذ المسجد .

قال «الفاسى» : وابراهيم المنسوب إليه هذا الباب كان خياطاً يجلس عنده على ما قيل ، كما ذكره البكرى فى كتاب « المسالك والممالك » .

وقال « الحافظ ابن عساكر » و « ابن جبير » وغيرهما من العلماء أنه الخليل عليه السلام ، وهو بعيد لا وجه له

ومنقوش على هذا الباب آية قرآنية ، واسم السلطان الملك الأشرف «أبى النصر قانصوه الغورى» :

وجاء فى الرحلة الحجازية : وفى رحبة باب ابراهيم تجد آلافاً من فقراء حجاج الدكارنة والهنود والمغاربة ، وفيهم كثير من المقعدين الذين لا يقدرون على الحركة ، وجلهم من عبيد أهل مكة الذين إذا وصلوا إلى الشيخوخة ، أو اعترتهم عاهة تقعد بهم عن العمل ، طردهم سادتهم تخلصاً منهم ، فيلجأون إلى بيت الله الحرام ، ويتعيشون من لقيمات أهل الخير ، حتى يتولاهم الله باحدى الحسنيين ، فان كانت القاضية فقد أراحهم الله من دنياهم ، وإن كانت العافية استردهم سادتهم إلى خدمتهم .

ولا بدّ لحكومة الحجاز من أن ترى رأيها فى هؤلاء التعساء فتجعل لهم ملجأ يأوون إليه خدمة للانسانية .

وبهذه المناسبة نقول ٠ إن أهل مكة يعملون مثل ذلك فى حمرهم أو خيلهم التى يقعد بها كبر السن أو المرض ، فيتركونها فى شوارع مكة تتلحس القمامة من طرقها ، وما يصح منها أخذه أصحابه للخدمة مرة أخرى .

هؤلاء المقعدون يمضون هناك أيامهم عائشين من الحسنات ، وربما كان منهم بالمسجد ما تلجئهم الضرورة إليه مما لا يصح التوسع فى شرحه . وهذا أمر لا يليق بكرامة حرم الله .

فهل لحكومة الحجاز أن تفكر فى أمر هؤلاء البؤساء وتقيم لهم دار ضيافة يأوون إليها ولو فى مدة الموسم ؟ أوعسى أن وزارة الأوقاف بمصر تتدارك ذلك فيكون لها الثواب العظيم . اه

(٣) باب العمرة : وسمى بذلك لأن المعتمرين من التنعيم يخرجون ويدخلون منه فى الغالب ، وسماه « الأزرق » « باب بنى سهم » وهو ذو نافذة واحدة ، وينزل منه إلى مستوى المسجد بثنتى عشرة درجة .

منارات المسجد الحرام

وللمسجد سبع منارات (١) :

(١) مئذنة باب العمرة فى ركن المسجد الشمالى الغربى . وقد بناها المنصور العباسى فى عمارته للمسجد سنة ١٣٩ وجددها وزير صاحب الموصل سنة ٥٥١ وأصلحت سنة ٨٤٣ فى ولاية السلطان جقمق ، وأمر السلطان سليمان بهدمها واعادة بنائها محكما فى سنة ٩٣١ .

(٢) مئذنة باب السلام : عمرها « المهدى » سنة ١٦٨هـ

(٣) مئذنة باب على : عمرها « المهـــدى » أيضا فى التاريخ السالف وجددت بالحجر الأصفر فى عمارة السلطان «سليمان» للمسجد .

(٤) مئذنة باب الحزورة (باب الوداع) عمرها « المهدى » أيضا ، ثم عمرت زمن الأشرف « شعبان » وكانت سقطت سنة ٧٧١ فعمرت فى السنة التالية .

---

(١) وقد كانت فى أيام ابن ظهيرة ٦ ، أربعة فى الاركان ، والخامسة فى زيادة دار الندوة ، والسادسة بمدرسة السلطان قايتباى المجاورة لباب السلام .

(٥) مئذنة باب الزيادة : عمرها « المعتضد العباسى » لما بنى الزيادة سنة ٢٨٤ ، ثم جددها الأشرف برسباى فى سنة ٨٢٦ .

(٦) مئذنة قايتباى بالمدرسة المعروفة باسمه ، وهى مجاورة لباب السلام على يسار الداخل إلى المسجد . عمرت فى حدود سنة ٨٨٠

(٧) مئذنة السليمانية فى المدرسة المعروفة باسمها .

وكل هذه المآذن حصلت فيها زيادات وترميمات فى العمارة الكبيرة التى قام بها السلطان « سليم الثانى » ووالده فى المسجد ، ورممت كذلك فى سنة ١٠٧٢ على يد « سليمان بك » والى جدة .

وكلها يؤذن عليها الآن فى الأوقات الخمس ، فاذا دخل الوقت بدأ شيخ المؤذنين ، أو الميقاتى ، بالأذان على « قبة زمزم » فيتبعه باقى من على المآذن من المؤذنين ، بأصوات يحركها الهواء على طبلة الأذن ، فتحدث لها فى القلب اهتزازات يمتلىء منها خشية ورهبة وخشوعاً وخضوعاً . ومثبت فى الحائط الجنوبى لهذه القبة « مزولة » أهداها رجل مراكشى إلى المسجد ، وهى فى غاية الضبط ، وعليها ميقاتهم فى النهار .

بناء الكعبة

على يد عبد الله بن الزبير

لما سار « الحصين بن نمير » فيمن معه من أهل الشام إلى مكة لمحاربة ابن الزبير ، من قبل الخليفة « يزيد بن معاوية » فى سنة ٦٤ هـ عاذ « ابن الزبير » ومن معه بالبيت الحرام ، وتحصن فيه ، ونصب خياماً يستظلون فيها من الشمس . وكان قد سمى نفسه . « العائذ بالبيت والمستجير بالرب » ، وشهر بهذا حتى ذكرته الشعراء .

فنصب « الحصين » المجانيق والعرادات على مكة والمسجد من الجبال والفجاج . فأصابت أحجارها البيت ، ورمى مع الأحجار بالنار والنفط ومشاقات الكتان وغير ذلك من المحرقات . فاحترقت الكسوة ووهنت الكعبة ، واحترق الساج الذى بين البناء ؛ إذ كانت الكعبة حينذاك مبنية بناء قريش ، مدماك من ساج وآخر من حجارة ، فازداد تصدع البيت وضعفت جدرانه ، واشتد الأمر على أهل مكة وابن الزبير ، واتصل الأذى بالأحجار والنار والسيف .

وذكر « الفاكهى » أن سبب الحريق إنما كان من أحد أهل الشام ، أحرق على باب « بنى جمح » وفى المسجد يومئذ خيام ، فمشى الحريق حتى أخذ فى البيت ، فظن الفريقان أنهم هالكون .

وبينما هم فى ذلك إذ جاءت الأخبار إلى الحصين ومن معه بوفاة « يزيد » فى ١٤ خلت من شهر ربيع الأول من سنة ٦٤ وتولية معاوية ابنه ، فهادنوا « ابن الزبير » ونزلوا مكة ، ثم انصرفوا إلى بلادهم .

ولما استقر الأمر لابن الزبير شرع فى بناء الكعبة ، فأخرج الحجارة التى رمى بها من المسجد ، واستشار من حضره فى هدمها ، وبنائها ، فهابوا ذلك وقالوا : « نرى أن يصلح ما وهى منها ولا تهدم »

فقال : لو أن بيت أحدكم احترق لم يرض له إلا بأكمل إصلاح » ولا يكمل إصلاحها إلا بهدمها ، فابتدأ بالهدم فى يوم السبت النصف من جمادى الآخرة ، واستمر حتى أفضى إلى قواعد إبراهيم .

وقد نصب حول الكعبة خشباً جعل عليه الستور ، حتى يطوف الناس من ورائها ويصلوا إليها . وبناها على القواعد ، وأدخل الحجر فيها ، وجعل سمك الجدران ذراعين ، وارتفع ببنائها حتى بلغ ٢٧ ذراعاً ، وتمم بناءها ، وألصق بابها بالأرض(١) وعمل لها باباً من خلفها ، يدخل من واحد ويخرج من الآخر .

وقد أعادها إلى بناء « إبراهيم » ، لأن خالته السيدة « عائشة » أم المؤمنين رضى الله عنها حدثته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« ألم ترىَ أن قومك قصرت بهم النفقة حين بنوا الكعبة ، فاقتصروا على قواعد إبراهيم » ثم قال : لولا حدثان قومك بالجاهلية لهدمتها ، وجعلت لها خلفا ، وألصقت بابها بالأرض ، وأدخلت فيها الحجر »

فقال ابن الزبير : فليس بنا عجز عن النفقة . فأرسل إلى « صنعاء » ٤٠٠ دينار لشراء مايلزم من أدوات العمارة وحمل إليه منها الفسيفساء التى كان صنعها « أبرهة » الحبشى لكنيسته التى اتخذها هنالك ، ومعها ثلاث اسطوانات رخام ، فيها وشى قد حشى النقش والسندروس فيه بأنواع من الألوان والأصباغ ، فمن رآه ظنه ذهباً

وشرع ابن الزبير فى البناء ، واستحضر صناعاً من الفرس وغيرهم ، وشهد عنده ٧٠ شخصا من قريش أن قريشا حين بنت الكعبة عجزت نفقتهم ، فنقصوا من سعة البيت سبعة أذرع من أساس إبراهيم الخليل الذى أسسه

---

(١) وفى الجامع اللطيف : كان الباب الأصلى مصراعاً واحداً فجعله ابن الزبير مصراعين .

هو وإسماعيل عليهما السلام ، فبناه « ابن الزبير » وزاد فيه الأذرع المذكورة وجعل فيه الفسيفاء والأساطين السالفة الذكر .

وذكر «أبو الفرج الاصفهانى» فى كتاب «الأغانى» سببا آخر لحريق الكعبة قال : إن أهل الشام لما حاصروا ابن الزبير سمع أصواتا بالليل فوق الجبل . فخاف أن يكون أهل الشام قد وصلوا إليه ، وكانت ليلة ظلماء ذات ريح شديدة ، ورعد وبرق ، فرفع نارا على رأس رمح لينظر إلى الناس ، فأطارتها الريح فوقعت على أستار الكعبة ، فأحرقتها واستطالت فيها ، وجهد الناس فى إطفائها فلم يقدروا ، وأصبحت الكعبة تتهافت (تتساقط) .

وماتت امرأة من قريش ، فخرج الناس كلهم فى جنازتها خوفا من أن ينزل عليهم العذاب ، وأصبح ابن الزبير ساجداً يدعو ويقول : « اللهم إنى لم أتعمد ما جرى ، فلا تهلك عبادك بذنبى ، وهذه ناصيتى بين يديك » فلما تعالى النهار أمن وتراجع الناس ، فقال لهم : الله الله أن ينهدم فى بيت أحدكم حجر فيزول عن موضعه فيبنيه ويصلحه وأترك الكعبة خرابا ، ثم هدمها مبتدئا بيده ، وتبعه الفعلة حتى بلغوا إلى قواعدها ، ودعا بنائين من الفرس والروم فبناها . اه

ـ أقول ـ والرواية الأولى أصح . لأن البخارى ذكر فى صحيحه أن ابن الزبير ترك الكعبة ليراها الناس محترقة ، يحرضهم على أهل الشام ـ راجع ابن الأثير ح ٤ ـ

ولما فرغ «ابن الزبير» من بناء الكعبة فى ٢٧ من رجب من سنة ٦٥ هـ خلقها بالعنبر والمسك من داخلها وخارجها ، من أعلاها إلى أسفلها ، وسترها بالديباج ، وقيل بالقباطى (١) وما فضل من الحجارة فرشها حول

---

(١) القباطى جمع قبطية ، ثوب رقيق ابيض من ثياب مصر ، كأنه منسوب الى القبط . والضم خاص بالثياب ، والكسر خاص بالناس .

البيت ، قال : من كان لى عليه طاعة فليخرج فليعتمر من التنعيم شكراً لله عز وجل ، ومن قدر أن ينحر بدنة فليفعل فان لم يقدر فشاة ، ومن لم يقدر فليتصدق بما تيسر » .

وأخرج من ماله مائة بدنة نحرها فى جهة التنعيم وبعض طرق الحل ، ولم يبق من أشراف مكة وذوى الاستطاعة بها إلا من أهدى ، وأقاموا أياما يطعمون ويهدون شكراً لله تعالى على الاعانة والتيسير .

فلما طاف استلم الأركان الأربعة جميعا ، وقال : إنما كان ترك استلام الركنين الشامى والغربى ، لأن البيت لم يكن تاما . يعنى على قواعد ابراهيم :

فلم تزل الكعبة على بناء ابن الزبير تستلم أركانها الأربعة ، ويدخل إليها من باب ويخرج من آخر حتى قتل فى واقعة الحجاج

ولما هدم « ابن الزبير » الكعبة عمد الى « الحجر الاسود » فجعله فى ديباجة وأدخله فى تابوت وأقفل عليه ، ووضعه عند « دار الندوة » حتى علا البناء ، وأمر بوضعه فبنى فى الحجر الذى تحته وفى الحجر الذى فوقه حيث يدخل حتى يكون فى نهاية الألصاق والثبات .

ثم أمر ابنه « عباداً » و « جبير بن شيبة بن عثمان » أن يجعلا الركن فى ثوب ، وقال لهما : إذا دخلت فى صلاة الظهر فاجعلاه فى موضعه ، فأنا أطول الصلاة ، فاذا فرغتم فكبروا ، حتى أخفف صلاتى .

فلما وضعا الركن فى موضعه وطوقا عليه الحجرين كبرا وخفف « ابن الزبير » صلاته . فغضب رجال من قريش حين لم يحضرهم « ابن الزبير » وأعادوا قصة تحكيم أجدادهم للنبى صلى الله عليه وسلم قبل بعثته . لكنهم كانوا أمام الأمر الواقع ، فلم يزيدوا على أن غضبوا ، ثم رضوا .

* * *

وفى سنة ٧٣ فى أيام « عبد الملك بن مروان » حاصر « الحجاج »

« ابن الزبير » ونصب المنجنيق على جبل أبي قبيس ، ورمى الكعبة به »

وقد كان عبد الملك ينكر ذلك أيام «يزيد بن معاوية» ثم أمر به ، فكان الناس يقولون : خذل فى دينه

وحج « ابن عمر » فى تلك السنة ، فأرسل إلى الحجاج : أن اتق الله واكفف هذه الحجارة عن الناس ، فانك فى شهر حرام وبلد حرام ، وقد قدمت وفود الله من أقطار الأرض ليؤدوا فريضة الله ويزدادوا خيراً ، وإن المنجنيق قد منعهم عن الطواف ، واكفف عن الرمى حتى يقضوا ما يجب عليهم بمكة ، فبطل الرمى حتى عاد الناس من عرفات ، وطافوا وسعوا ، ولم يمنع « ابن الزبير » الحاج من الطواف والسعى .

فلما فرغوا من طواف الزيارة نادى منادى الحجاج : انصرفوا إلى بلادكم فانا نعود بالحجارة على « ابن الزبير » الملحد .

وكانت الحجارة تقع بين يدى « ابن الزبير » وهو يصلى فلا ينصرف .

بناء الكعبة
على يد الحجاج الثقفى

ولما ظفر الحجاج بابن الزبير ، وقتله ، فى جمادى الآخرة من سنة ٧٣ كتب إلى « عبد الملك بن مروان » يخبره أن « ابن الزبير » زاد فى الكعبة ماليس منها ، وأحدث فيها باباً آخر . واستأذنه فى رد ذلك على ما كانت عليه فى الجاهلية .

فكتب اليه « عبد الملك » بأن يهدم مازاد فيها ، ويردها إلى ما كانت عليه آنفا من بناء قريش وعهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويسد الباب

الذى فتح ، ويرفع الباب الأصلى إلى ما كان عليه أولا ، ويترك سائرها .

فكتب الحجاج إليه : « أن عبد الله بن الزبير وضع البناء على أسس قد نظر اليه العدول من أهل مكة »

فكتب إليه عبد الملك : « لسنا من تخليط ابن الزبير فى شىء » . وكان يقول : إن ابن الزبير كذب على عائشة فى أن الحجر من البيت ، فلما قيل له: إن غير « ابن الزبير » قال : إنها روت ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : وددت أنى تركته وما يحمل »

فنقض الحجاج ما أدخل من الحجر ، وسد الباب الثانى (١) الذى كان ابن الزبير جعله فى ظهر الكعبة عند الركن اليمانى ، ونقض من الباب الأول خمسة أذرع ورفعه إلى ما كان عليه فى زمن قريش ، فبنى تحته أربعة أذرع وشبراً ، وبنى داخلها الدرجة الموجودة اليوم ، وكان ذلك سنة ٧٣ هـ

وعلى ذلك تكون الجوانب الثلاثة ، وهى جهة الباب وجهة المستجار الذى هو مقابل الباب ، وجهة الصفا المقابل لجهة الميزاب ، باقية من بناء ابن الزبير . أى أن الذى غيره الحجاج هو الجدار الذى من جهة الحجر ، والباب المسدود فى الجانب الغربى عن يمين الركن اليمانى ، وما تحت عتبة الباب الأصلى

وقد اختلف المسلمون من بعد ، أفيتركون الكعبة كما بناها « الحجاج » أم يعيدونها إلى بناء « ابن الزبير » استنادا إلى حديث عائشة رضى الله عنها

روى أن « هرون الرشيد » أو أباه « المهدى » أو جده « المنصور » سأل الامام « مالك بن أنس » رضى الله عنه فى هدمها وردّها إلى بناء « ابن الزبير » فقال « مالك » : نشدتك الله يا أمير المؤمنين أن لا تجعل

---

(١) شاهد هذا الباب « الفاكهى » فى سنة ٢٦٣ هـ . وقال عنه إنه مقابل باب الكعبة ، وبقدره فى الطول والعرض ، وفى أعلاه كلاليب ثلاثة كما فى الباب الموجود

هذا البيت ملعبة للملوك ، لا ينشأ أحد إلا نقضه وبناه ، فتذهب هيبته من صدور الناس .

قال الفاسى : وكأن مالكاً لحظ فى ذلك كون درء المفاسد أولى من جلب المصالح ، وهى قاعدة مشهورة معتمدة.

بعض العمارات بالكعبة

قال الأزرقى : وعمل الوليد بن عبد الملك [1] الرخام الأبيض والأخضر والأحمر فى جوفها ، فوزر به جدرانها ، وفرشها بالرخام . وهو أول من فعل ذلك .

وقال البلاذرى : وفى سنة ١٦١ جدد أمير المؤمنين المتوكل على الله « جعفر بن المعتصم » رخام الكعبة ، وأزرها بفضة ، وألبس سائر حيطانها وسقفها الذهب . ولم يفعل ذلك أحد قبله ، وكسا أساطينها (عمدها) الديباج

وقال المقريزى . ومن فضائل مصر أن الرخامة التى فى الحجر من الكعبة من مصر ، بعث بها « محمد بن طريف » مولى « العباس بن محمد » فى سنة ٢٤١

---

(١) ولى الوليد الخلافة فى ١٤ من شوال من سنة ٨٦ ، ومات فى منتصف جمادى الآخرة من سنة ٩٦ .

كان « عمر بن ابى ربيعة » قد حج فى سنة من السنين ، فلما انصرف من الحج ألفى « الوليد بن عبد الملك » وقد فرش له فى ظهر الكعبة وجلس ، فجاءه « عمر » فسلم عليه وجلس اليه ، فقال له : أنشدنى شيئا من شعرك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أنا شيخ كبير وقد تركت الشعر ، ولى غلامان هما عندى بمنزلة الولد ، وهما يرويان كل ما قلت وهما لك ، قال : ائتنى بهما ، ففعل فأنشداه قوله « أمن آل نعم أنت غاد فمبكر !! » فطرب الوليد ، واهتز لذلك ، فلم يزالا ينشد انه حتى قام ، فأجزل صلته ورد الغلامين اليه . راجع ص ١١٩ الأغانى

مع رخامة أخرى خضراء هدية للحجر ، فجعلت إحدى الرخامتين على سطح الكعبة .

قال الفاكهى فى أخبار مكة . وهما من أحسن الرخام فى المسجد خضرة . وكان المتولى عليهما «عبدالله بن محمد بن داود» وذرعها ذراع وثلاث أصابع

وذكر ابن الأثير : أن فى سنة ٤٠٧ تشعث الركن اليمانى وسقط جدار من حجرة النبى صلى الله عليه وسلم ، وسقطت قبة الصخرة بالبيت المقدس

وفى مسالك الأبصار : أن يوسف بن عمر بن رسول (١) صاحب اليمن أصلح الرخام الذى وهى وتقلع من الكعبة ، ونقش اسمه فى رخامة داخل الكعبة ، حيث يصلى المصلى بين العمودين تجاه وجهه فى الجدار المتصل بالركن اليمانى

وفى سنة ٨١٤ أصلحت مواضع فى سطح الكعبة ، كانت مياه الأمطار تتسرب منها إلى داخلها ، عقب مطر عظيم حصل فى شهر رمضان من السنة واستبدلت أخشاب من السقف بأخرى جديدة .

وفى سنة ٨٢٦ أمر الأشرف « برسباى » الأمير « مقبلا القديدى » بمكة بقلع الرخام المفروش فى باب الكعبة وجدرانها من داخل ، لتخربه وتقلعه ، وأن يجدده برخام جديد ، وأن يعيد ما كان صحيحاً غير منكسر وكذلك يصلح الأساطين (العمد) التى فى جوف الكعبة ويحكمها .

---

(١) « يوسف بن عمر بن على بن رسول » ثانى ملوك الدولة الرسولية فى اليمن ولى سنة ٦٤٧ ومات ٦٩٤ هـ

وذكر شيخ الكعبة أنه سمع صريراً فى سقفها ، فلما تتبع الأمير ذلك وجد إحدى الاسطوانات التى تقابل باب البيت قد مال رأسها عن محله ، فأعادها إلى محلها وأحكمها . وكتب إسم السلطان « برسباى » فى لوح رخام نقره ونقشه بالذهب ، وركبه فى جدار البيت . وقال قطب الدين الحنفى أنه شاهده فى سنة ٩٨٥ .

وجاء فى الجامع اللطيف أن سطح الكعبة جدد أيضاً ، وكانت الأخشاب التى تربط فيها الكسوة قد تأكلت وذابت ، فقلعت ، ووضع عوضها أخشاب جديدة محكمة بمسامير حديد كبيرة .

فلما كانت سنة ٨٤٣ هـ [1] ، صار المطر إذا سقط ينزل إلى داخل الكعبة أشد مما كان أولا ، فأدى رأى فاسد لأحد الجند الذى أرسله السلطان من مصر لاصلاح اللازم إلى أن نقض السقف مرة أخرى ، وسد ما كان فى السطح من الطاقات التى كان يدخل منها الضوء إلى الكعبة ، ولزم من ذلك امتهان الكعبة ، بل صار العمال يصعدون فيها بغير ادب ، فكتب بعض المجاورين إلى القاهرة . فبلغ السلطان الظاهر الأمر ، فأنكر أن يكون قد أمر بذلك . وجهز بعض الجند للكشف ، فتعصب الأول من جاور ، واجتمع الباقون رغبة ورهبة فكتبوا محضراً بأنه مافعل شيئاً إلا على ملأ منهم ، وإن كل مافعله مصلحة .

قال صاحب الجامع اللطيف : ومما يتعجب منه أنه لم يبق الاحتياج فى الكعبة إلى الاصلاح إلا فيما صنعه الحجاج ، إما من الجدار الذى بناه فى الجهة الشامية ، وإما فى السلم الذى جدده للسطح والعتبة . وما عدا ذلك مما وقع فانما هو لزيادة محضة كالرخام ، أو التحسين كالباب والميزاب .

---

(١) صحة التاريخ ٨٣٨ كما نص عليه فى الجامع اللطيف صفحة ٤٩

وفى ٢٠ من شعبان من سنة ١٠٣٩ جاء سيل عظيم [١] هدم أكثر بيوت مكة وذهب بالأموال والأرواح ، وهدم معظم الكعبة ، سقط به الجدار الشامى بوجهيه . وانحدر معه فى الجدار الشرقى إلى حد الباب ، ومن الجدار الغربى من الوجهين نحو السدس

وارتفع الماء فى المسجد إلى أن سد الأبواب ، أى وصل إلى قفل الباب ودخل الكعبة . فانزعج الناس ، وزلزلوا زلزالا شديداً ، ونزل أمير مكة إلى المسجد الحرام ، وأمر باخراج قناديلها خشية الضياع ، وتبلغ هذه القناديل عشرين كلها من الذهب ، وأحدها مرصع باللؤلؤ وكانت أحجار الكعبة تتساقط لشدة ما أصابها من الوهن وازداد وجل الناس ثم تقدم الأمير ووجوه مكة ، وتبعهم الناس ينظفون المسجد ، وقد جرفت السيول إليه من الرمل والتراب ما تعذر معه التنظيف بغير المساحى والمكاتل ، بل أحوج الأمر من بعد إلى إحضار الأبقار من جدة لتحرث أرض المسجد بعد جفافها لازالة ما بها

وتشاور الناس فى أمر الكعبة وما يصنعون بها . وانعقد رأى الجماعة من علماء مكة وسادتها على المبادرة إلى عمارتها من مال الكعبة ، وأن يعرض الأمر على السلطان ، وأن لا يمنع أحد من عمارتها من ماله إذا لم يكن فيه شبهة .

وترامى نبأ الكعبة وما أصابها إلى الأقطار الاسلامية المختلفة ، فهاج الناس له واضطربوا . ولم ير والى مصر الوزير « محمد باشا الألبانى » أن ينتظر ورود أمر السلطان من الاستانة ، مخافة أن يزداد التصدع فى الكعبة . ولأن

---

(١) وقد أرخ بعض الفضلاء هذا السيل فقال الشيخ فضل الطبرى :

سئلت عن سيل أتى والبيت منه قد سقط
متى أتى قلت لهم مجيئه كان « غلط »

أشهر الحج كانت قد اقتربت ، فجمع من العلماء جمعاً فيهم « نور الدين على الحلبى » مؤلف كتاب «إنسان العيون »[1] فاتفق الجمع على المبادرة بالعمارة

وأرسل الوزير رسولا الى مكة ليرى فى عمارة الكعبة رأيه ، وبلغها الرسول فى منتصف شوال من تلك السنة .

وانقضت أشهر الحج والسلطان يشاور أصحابه مايصنع

فلما استقر رأيهم على العمارة بعث رسوله إلى مكة فوصلها فى شهر ربيع الأول من سنة ١٠٤٠ .

وكان أول ماصنع هؤلاء جميعاً أن أحاطوا الكعبة بسياج من الخشب ، يطوف الناس به ، ويتخذونه قبلتهم كما فعل « ابن الزبير » .

وبينما هم يتشاورون مايصنعون إذ سقط مطر هدمت منه بعض أحجار الجدار الغربى . هنالك اتجه الرأى إلى هدم مابقى من جوانب الكعبة ، ولم يقع خلاف إلا على ركن الحجر الأسود . لكن المهندسين أفتوا بأن هذا الركن يوشك أن ينقض هو الآخر .

فهدموا البيت كله ليقيموا بناءه ثابتاً قوياً

واشترك فى هذه العمارة جماعة من المهندسين والمعلمين المصريين . وأنفق القوم فى البناء ستة أشهر وأموالا طائلة . ولم يكونوا يعيدون من الأحجار التى بنى ابن الزبير بها الكعبة إلا ماوجدوه مايزال صلبا قويا . فأما ماوهن أو ضعف فكانوا يستبدلون به غيره . ولم يجدوا فى ذلك مشقة وقد كان لايكلفهم إلا تسوية الأحجار ودقة نحتها . لكنهم واجهوا مشكلة ذات خطر حين أرادوا أن يضعوا « الحجر الأسود » مكانه فهذا الحجر كان قد أصابه بعض التصدع فى عهد ابن الزبير فلم يجد مشقة فى شده وتقويته

(١) قال الحلبى المذكور : وقد جعلت للوزير رسالة لطيفة وقعت منه موقعاً كبيراً وأعجب بها كثيراً ، حتى أنه ترجمها باللغة التركية ، وأرسلها لحضرة السلطان مراد .

وربطه بسيور من الفضة . فلما أراد البناءون وضعه مكانه أثناء هذه العمارة الأخيرة فى عهد السلطان مراد ألفوا به شطوبا مستطيلة ورأوا الفتات يتناثر منه . وللحجر الأسود من القدسية مالا يصح معه أن يسقط من أجزائه كثير أو قليل ، أو أن يتناثر منه فتات . ولو كان ضئيلا . لذلك عالجه المهندسون على هدى فن المعمار مصطنعين الصبر والأناة مستهينين بكل مشقة أو تعب ، عاملين على ملء مابين أجزائه بمركب بعيد اليها قوتها ويكفل بقاءها مشدودة فى إطار الفضة لايصيبها سوء

ولما فرغ القوم من بناء الكعبة وسقفها ووضع عمدها وترميمها بنوا حجر اسماعيل . وكانوا حريصين على أن يعيدوا من أحجاره مانقرت فيه أسماء من سبقوا إلى عمارته . على أنهم ألفوا رخامة مفقودة من الجدار الذى تم بناؤه فى عهد ملك مصر الملك الأشرف قانصوه الغورى فلم يعنوا أنفسهم بنقش غيرها ليضعوها مكانها ، بل وضعوا رخامة ملساء . ولعلهم فى ذلك قد أخذوا باحدى النظريات التى يقرها الفن الحديث للمعمار إذ يحترم صنع الزمن بالاشياء فلا يحاول ردها إلى أصلها أو إبدالها بما يشابهها ، بل يقوى مكانها مكتفيا بذلك معتـــبرا إياه بعض ما يوجب الفن فى عمارة الآثار التاريخية .

ولما أتم القوم البناء كتبوا محضراً أرسلوه إلى مصر فيه شهادة المكيين بحسن عمارة البيت المعظم . وفى ذلك اعتراف بما كان لمصر من مجهود فى هذه العمارة فاق كل مجهود قامت به أية أمة إسلامية أخرى . ولا عجب فى ذلك وقد أرسلت مصر جميع مايلزم لهذه العمارة كما أنفقت كذلك ستة عشر ألفا من الجنيهات لاتمامها . — راجع السياسة الأسبوعية ٦ فبراير سنة ١٩٣٧

ولما تمت العمارة فى سنة ١٠٤٠ أرخها القاضى تاج الدين المالكى نثرا

فقال : أسس بنيانه على تقى من الله وهدى » ونظما فقال : « تاريخه أسس بنيانه على هدى تقوى من الله » — راجع نزهة الجليس

معاينة « أبى الحجاج يوسف بن محمد البلوى » للكعبة في سنة ٥٦١ هـ

قال فى كتابه « ألف باء » : وأما أنا فدخلت يوماً تحت أستار الكعبة من جهة الغرب ، فرأيت أثر الباب فى الحائط قد أغلق وأحكم إلصاقه بالكذان المنحوت ، حتى كاد يخفى على من أبصره . وهو مقابل الباب الشرقى وعلى قدره . إلا أنه ينتهى شقه إلى الأرض ، وما يظهر منه إلا قدر غلظ الخيط من أثر الباب القديم على شكل الباب المنفتح اليوم من جهة الشرق ، إلا أن البيت قد ردم دون القامة ، يصعد إليه بدرج شبه المنبر يضم إليه يوم يفتح البيت ، ثم يزال لئلا يمنع من الطواف ، وعدد درجاته ١٠ على سعة الباب ، يصعد فيه رجلان فى صف واحد .

وأسفل البيت مبسوط بالرخام ، وأعلاه مسطح قد سمرت فى سقفه شقق الحرير الملون من أبيض وأحمر وأصفر وأسود . وحيطانه فوق القامة من رخام مرصع ، ومنه إلى السقف شبه شجرة ملتفة الأغصان قد دخل بعضها فى بعض من أحسن مايرى ، (لعل ذلك فسيفساء) وكسى ذلك البيت ذهباً يكاد يغشى البصر ، وفى وسطه قائمتان من خشب من الأرض إلى السقف .

وكان فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم كما جاء فى الموطأ على ٦ أعمدة ، والموضع الذى صلى فيه عليه السلام قد أفرغ فيه كوكب من فضة (مسمار) فى رخامة هناك يعلم به وبابه مصفح بصفائح الفضة المنيلة بالسواد فى غاية من الترصيع ونهاية من الاتقان ، وكواكب فضة تمسك الصفائح عوض

المسامير ، وعتبته من ذهب ، وعليه قفل عظيم فى حلق فضة ، وأظن القفل من فضة أيضاً ، أو مغسولا بفضة .

والبيت مستور كله بالديباج إلا موضع الباب ، وموضع الحجر الأسود، ولون أستاره خضر منسوج فيها صور المحاريب ، فى كل محراب منها على صغرها مكتوب طرة قد قطعت من الخلدى الأحمر ، وخيطت على الأستار حروفها تقرأ على بعد لعظمها مكتوب بعد البسملة « إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ — الآية » هذا ما أمر بعمله فلان ابن فلان عام كذا ، يعنى صاحب بغداد ، وهو يرسل كسوتها كل عام ، مع أشياء سوى هذه من الأسباب ، يطول بذكرها الكتاب .

قال : أراها الله رأى العين عبداً ... شديد الشوق للبلد الحرام

فيشفى سقمه بطواف بيت ... كريم عند زمزم والمقام

قال : وقد ذكرت بعض وصف البيت فى قصيد مطوّل أقول فيه :

وقد حلوا أعاليه بتبر ... وقد بسطوا أسافله رخاما

وقد جعلوا له باباً وقفلا ... وحلوا بابه ورقاً وساما

إلى آخره . وهو فوق مائة بيت — أنظره فى التكميل —

ويروى أن أبا الفضل الجوهرى لما انتهى إلى الكعبة ، ورأى ماعلق عليها من الزينة ، تمثل بهذين البيتين :

ماعلق الدر على نحرها ... إلا لما يخشى من العين

أقول والدر على نحرها ... من علق الشين على الزين

وقلت أنا فى ذلك وذيلت البيتين :

أهلا بمن مكة قد حاكى ... بمحوما بالقلب من رين

فاذا رأى البيت وقدعلقوا ... من فوقه الأستار للزين

لم يتمالك إذ رأى ذاك أن ... أنشد فى الكعبة بيتين

قالهما صبٌ رأى جيد من ... حلى باللؤلؤ والعين

بعض الصحف التى علقت فى الكعبة

المعلقات السبع وأصحابها

المعلقات قصائد اختارها العرب من شعر فحولهم وذهبوها على الحرير، وناطوها بأستار الكعبة، تشريفاً لها، وتعظيماً لمقامها، واعترافاً بمتانة ألفاظها وحسن سبك معانيها، حتى أصبحت العرب تترنم بها فى نواديها، وتفخر بها فى حاضرها وباديها.

وقد اختلف المؤرخون فى وجه تسميتها بالمعلقات، فقال «ابن عبد ربه» صاحب العقد، و«ابن رشيق» صاحب العمدة، و«ابن خلدون» صاحب التاريخ، وكثير سواهم، ممن نقل عن الصدر الأول من نقلة الأخبار إن العرب قد بلغ من تعظيمهم إياها أن علقوها بأستار الكعبة فسميت بالمعلقات. وقيل إن وجه التسمية بذلك لعلوقها بأذهان صغارهم قبل كبارهم ومرؤسيهم قبل رؤسائهم عناية بحفظها والاحتفاظ بها. وقد أنكر الأول «أبو جعفر النحاس» وأكبر أمر تعليقها بأستار الكعبة.

وكما اختلفوا فى وجه التسمية اختلفوا فى عدد أصحابها، فمنهم من يجعلها سبعا، ومن يجعلها ثمانى، ومن يزيدها إلى عشر.

وأصحابها جميعا هم :

(١) إمرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو بن حجر، مات سنة ٨٠ قبل الهجرة و ٥٦٥ للمسيح

(٢) طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك، مات سنة ٧٠ قبل الهجرة و ٥٥٠ أو ٥٥٢ للمسيح

(٣) زهير بن أبى سُلمى ربيعة بن رياح المزنى ، مات سنة ١٤ قبل الهجرة و ٦٠٨ للمسيح

(٤) عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب ، مات سنة ٥٢ قبل الهجرة و ٥٧٠ للمسيح

(٥) لبيد بن ربيعة بن عامر بن مالك ، مات سنة ٤٠ للهجرة و ٦٦٠ للمسيح

(٦) عنترة بن شداد ، وقيل ابن عمرو بن شداد ، وقيل عنترة بن شداد ابن عمرو ، مات سنة ٢٢ قبل الهجرة و ٦٠٠ للمسيح

(٧) الحارث بن حِلِّزة بن مكروه بن يزيد بن عبد الله ، مات سنة ٥٢ قبل الهجرة و ٥٧٠ للمسيح

(٨) الأعشى ميمون بن قيس بن جندل ، مات سنة ٧ للهجرة و ٦٢٩ للمسيح

(٩) النابغة الذبيانى زياد بن معاوية بن ضباب بن جناب بن يربوع ، . مات سنة ١٨ قبل الهجرة و ٦٠٤ للمسيح

(١٠) عبيد بن الأبرص بن عوف بن جشم . مات سنة ٥٦٥ وقيل سنة ٦٠٥ للمسيح

ومن يجعلها ثمانى ، يضيف إلى أصحابها ، بعد السبعة الأولين ، النابغة ومن يقول إنها عشر ، يضيف إليهم « الأعشى وعبيد » وعلى ذلك مشى أبو زكريا التبريزى فى كتابه « القصائد العشر الطوال »

صحيفه قريش

لما رأت قريش عزة النبي محمد صلى الله عليه وسلم بمن معه ، وإسلام عمر رضى الله عنه ، وعزة أصحابه فى الحبشة ، وفشو الاسلام فى القبائل أجمعوا على أن يقتلوا النبي عليه الصلاة والسلام .

فبلغ ذلك أبو طالب ، فجمع بين بنى هاشم وبنى المطلب ، فادخلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم شعبهم ، ومنعوه ممن أراد قتله ، وأجاب هذه الرغبة كفارهم أيضا إذ فعلوا ذلك حمية على عادة الجاهلية

فلما رأت قريش ذلك ، اجتمعوا وائتمروا أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى المطلب ، أن لا ينكحوا إليهم ، ولا ينكحوهم ، ولا يبيعوا منهم شيئاً ، ولا يتبايعوا منهم ، ولا يقبلوا منهم صلحاً أبداً ، حتى يسلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتل

وكتبوه فى صحيفة بخط « منصور بن عكرمة » وقيل « بغيض بن عامر » فشلت يده ، وعلقوا الصحيفة فى جوف الكعبة هلال المحرم سنة سبع من النبوة .

فانحاز بنو هاشم ، وبنو المطلب ، إلى أبى طالب ، فدخلوا معه فى شعبه إلا أبو لهب ، فكان مع قريش . فأقاموا على ذلك سنتين ، حتى جهدوا ، وكان لا يصل إليهم شىء إلا سراً .

ثم قام رجال فى نقض الصحيفة . فأطلع الله نبيه على أن الأرضة أكلت جميع مافيها من القطيعة والظلم ، فلم تدع إلا اسم الله تعالى فقط .

فلما أنزلت لتمزق ، وجدت كما قال صلى الله عليه وسلم . وكان ذلك فى السنة العاشرة . — راجع المواهب اللدنية —

هرون الرشيد وأولاده

كان « الرشيد » قد عقد لابنه « محمـــد » ولاية العهد فى شعبان من سنة ١٧٣ ، وسماه « الأمين » وضم إليه فى سنة ١٧٥ الشام والعراق ثم بايع لعبد الله « المأمون » بالرقة فى سنة ١٨٣ ، وولاه من حد همذان إلى آخر المشرق (١)

---

(١) كان « القاسم ابن الرشيد » فى حجر « عبد الملك بن صالح » فلما بايع الرشيد لمحمد والمأمون ، كتب اليه عبد الملك المذكور :

يا أيهـــا الملك الذى	لو كان نجما كان سعدا
اعقـــد لقاسم بيعـة	واقدح له فى الملك زندا
الله فرد واحـــد	فاجعل ولاة العهد فردا

فبايع للقاسم ، وسماه « المؤتمن » وولاه الجزيرة والثغور ، والعواصم ، وهو صبى . فقال عبد الملك :

حب الخليفة حب لايدين به	من كان لله عاص يعمل الفتنا
الله قلد « هاروناً » سياستنا	لما اصطفاه فأحيا الدين والسننا
وقلد الأرض « هارون » لرأفته	بنا « أمينا » و « مأمونا » و « مؤتمنا »

ولما قسم الأرض بين أولاده الثلاثة ، اختلفت آراء الناس فى ذلك ، فقال البعض : قد أحكم أمر الملك ، وقال البعض الآخر : بل قد ألقى بأسهم بينهم ، وعاقبة ما صنع فى ذلك مخوفة على الرعية .

ويشير الى ذلك أحد الشعراء بقوله :

أقول لغمة فى النفس منى	ودمع العين يطرد اطرادا
خذى للهول عدته بحزم	ستلق ماسيمنعك الرقادا
فانك ان بقيت رأيت أمراً	يطيل لك الكآبة والسهادا
رأى الملك المهذب شر رأى	بقسمته الخلافة والبلادا

وحج « هرون » فى سنة ١٨٦ ومعه « محمد » و « عبد الله » ولداه، وأشخص ولده « القاسم » إلى « منبج » فأنزله إياها

فلما قضى مناسكه كتب لعبد الله المأمون كتابين، أجهد الفقهاء والقضاة آراءهم فيهما :

أحدهما على « محمد » بما اشترط عليه من الوفاء بما فيه من تسليم ما ولى عبد الله من الأعمال، وصير إليه من الضياع والغلات والجواهر والأموال.

والآخر نسخة البيعة التى أخذها على الخاصة والعامة، والشروط لعبدالله على « محمد » وعليهم.

وجعل الكتابين فى البيت الحرام (١) بعد أخذه البيعة على « محمد » وإشهاده بها الله وملائكته عليه ومن كان فى الكعبة معه من سائر ولده وأهل بيته ومواليه وقواده ووزرائه وكتابه وغيرهم.

الى أن قال :

فويل للرعية عن قليل لقد أهدى لها الكرب الشدادا
وألبسها بلاء غير فان وألزمها التضعضع والفسادا
ستجرى من دمائهم بحور زواخر لايرون لها نفادا
فوزر بلائهم أبداً عليه أغيّاً كان ذلك أم رشادا

راجع الطبرى جلد ١٠

(١) وفى ذلك يقول « ابراهيم الموصلى ».

خير الامور مغبة وأحق أمر بالتمام
أمر قضى أحكامه الرحمن فى البيت الحرام

وجعل الشهادة بالبيعة والكتاب فى البيت الحرام ، وطلب إلى الحجبة فى حفظهما ، ومنع من أراد إخراجهما والذهاب بهما .

فلما رفع الكتاب ليعلق وقع ، فقيل : إن هذا الأمر سريع انتقاضه قبل تمامه .

عهد الامين

واليك صورة ما كتب فى عهد « الأمين » :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

هذا كتاب لعبد الله هرون أمير المؤمنين ، كتبه له محمد ابن أمير المؤمنين فى صحة من بدنه وعقله ، وجواز من أمره ، طائعاً غير مكره .

إن أمير المؤمنين هرون ولانى العهد من بعده ، وجعل لى البيعة فى رقاب المسلمين جميعاً ، وولى أخى عبد الله ابن أمير المؤمنين هرون العهد والخلافة وجميع أمور المسلمين من بعدى ، برضاً منى وتسليم ، طائعاً غير مكره

وولاه خراسان بثغورها ، وكورها ، وجنودها ، وخراجها وطرازها ، وبريدها ، وبيوت أموالها ، وصدقاتها ، وعشرها وعشورها ، وجميع أعمالها فى حياته وبعد وفاته . فشرطت لعبد الله ابن أمير المؤمنين على الوفاء بما جعله له أمير المؤمنين هرون : من البيعة والعهد ، وولاية الخلافة وأمور المسلمين بعدى ، وتسليم ذلك له ، وما جعل له من ولاية خراسان وأعمالها ، وما أقطعه أمير المؤمنين هرون من قطيعة ، وجعل له من عقدة أو ضيعة من ضياعه وعقده ، أو ابتاع له من الضياع والعقد . وما أعطاه فى حياته وصحته : من مال ، أو حلى ، أو جوهر ، أو متاع ، أو كسوة ، أو رقيق ، أو منزل ، أو دواب ، قليلا ، أو كثيراً ، فهو لعبد الله ابن أمير المؤمنين موفراً عليه ،

مسلماً له . وقد عرفت ذلك كله شيئاً شيئاً باسمه وأصنافه ومواضعه ، أنا
وعبد الله بن هرون أمير المؤمنين . فان اختلفنا فى شىء منه فالقول فيه قول
عبد الله بن هرون أمير المؤمنين ، لاأتبعه بشىء من ذلك ، ولا آخذه منه ،
ولا أنتقصه ، صغيراً ولا كبيراً من ماله ولا من ولاية خراسان ولا غيرها
مما ولاه أمير المؤمنين من الأعمال ، ولا أعزله عن شىء منها ، ولا أخلعه ،
ولا أستبدل به غيره ، ولا أقدم عليه فى العهد والخلافة أحداً من الناس
جميعاً ، ولا أدخل عليه مكروها فى نفسه ولا دمه ، ولاشعره ولا بشره ، ولا
خاص ولا عام من أموره وولايته ، ولا أمواله ، ولا قطائعه ، ولا عقده
ولا أغير عليه شيئاً لسبب من الأسباب ، ولا آخذه ولا أحداً من عماله
وكتابه وولاة أمره — ممن صحبه وأقام معه — بمحاسبة ، ولا أتتبع شيئاً جرى
على يديه وأيديهم فى ولاية خراسان وأعمالها وغيرها مما ولاه أمير المؤمنين فى
حياته وصحته : من الجباية ، والأموال ، والطراز ، والبريد ، والصدقات ،
والعشر والعشور وغير ذلك ، ولا آمر بذلك أحداً من الناس ، ولا أرخص فيه
لغيرى ، ولا أحدث نفسى فيه بشىء أمضيه عليه ، ولا ألتمس قطيعة له ، ولا
أنقص شيئاً مما جعله له هرون أمير المؤمنين وأعطاه فى حياته وخلافته
وسلطانه من جميع ماسميت فى كتابى هذا . وآخذ له على وعلى جميع الناس
البيعة ، ولا أرخص لأحد — من جميع الناس كلهم فى جميع ماولاه — فى خلعه
ولا مخالفته ، ولا أسمع من أحد من البرية فى ذلك قولا ، ولا أرضى بذلك
فى سر وعلانية ، ولا أغمض عليه ، ولا أتغافل عنه ، ولا أقبل من بر من
العباد ولا فاجر ، ولا صادق ولا كاذب . ولا ناصح ولا غاش ، ولا قريب
ولا بعيد ، ولا أحد من ولد آدم عليه السلام : من ذكر ولا أنثى - مشورة ،
ولا حيلة ، ولا مكيدة فى شىء من الأمور : سرها وعلانيتها ، وحقها

وباطلها ، وظاهرها ، وباطنها ، ولا سبب من الأسباب ، أريد بذلك إفساد شيء مما أعطيت عبد الله بن هرون أمير المؤمنين من نفسي ، وأوجبت له علي ، وشرطت وسميت في كتابي هذا .

وإن أراد به أحد من الناس أجمعين سوءاً أو مكروها ، أو أراد خلعه أو محاربته ، أو الوصول إلى نفسه ودمه ، أو حرمه ، أو ماله ، أو سلطانه أو ولايته : جميعاً أو فرادى ، مسرين أو مظهرين له فاني أنصره وأحوطه ، وأدفع عنه ، كما أدفع عن نفسي ، ومهجتي ، ودمي ، وشعري ، وبشري ، وحرمي ، وسلطاني ، وأجهز الجنود إليه ، وأعينه على كل من غشه وخالفه ، ولا أسلمه ولا آخذ له ولا أتخلى عنه . ويكون أمري وأمره في ذلك واحداً أبداً ما كنت حياً .

وإن حدث بأمير المؤمنين هرون حدث الموت ، وأنا وعبد الله ابن أمير المؤمنين ، أو أحدنا ، أو كنا غائبين عنه جميعا مجتمعين كنا أو متفرقين وليس عبد الله بن هرون أمير المؤمنين في ولايته بخراسان ، فعليّ لعبدالله أن أمضيه إلى خراسان ، وأن أسلم له ولايتها بأعمالها كلها وجنودها ، ولا أعوقه عنها ولا أحبسه قبلي ، ولا في شيء من البلدان دون خراسان ، وأعجل إشخاصه إلى خراسان والياً عليها مفرداً بها ، مفوضاً إليه جميع أعمالها كلها ، وأشخص معه من ضم إليه أمير المؤمنين : من قواده ، وجنوده ، وأصحابه ، وكتابه وعماله ، ومواليه ، وخدمه ، ومن تبعه من صنوف الناس بأهليهم وأموالهم ولا أحبس عنه أحداً ، ولا أشرك معه في شيء منها أحدا . ولا أرسل أميناً ولا كاتباً ولا بندارا ، ولا أضرب على يديه في قليل ولا كثير .

وأعطيت هرون أمير المؤمنين وعبد الله ابنه على ماشرطت لهما على نفسي ، من جميع ماسميت وكتبت في كتابي هذا - عهد الله وميثاقه ، وذمة أمير المؤمنين وذمتي ، وذمة آبائي وذمم المؤمنين ، وأشد ماأخذ الله تعالى

على النبيين والمرسلين وخلقه أجمعين : من عهوده ومواثيقه. والايمان المؤكدة التى أمر الله عز وجل بالوفاء بها ، ونهى عن نقضها وتبديلها . فان أنا نقضت شيئاً مما شرطت لهرون أمير المؤمنين ولعبد الله بن هرون وسميت فى كتابى هذا . أو حدثت نفسى أن أنقض شيئا مما أنا عليه ، أو غيرت أو بدلت ، أو حلت أو غدرت ، أو قبلت ذلك من أحد من الناس: صغيرا أو كبيرا ، برا أو فاجرا ، ذكرا أو أنثى ، وجماعة أو فرادى — فبرئت من الله عز وجل ، ومن ولايته ، ومن دينه ومن محمد صلى الله عليه وسلم ، ولقيت الله عز وجل يوم القيامة كافراً مشركا . وكل امرأة هى اليوم لى أو أتزوجها إلى ثلاثين سنة طالق ثلاثا ، البتة ، طلاق الحرج ، وعلى المشى إلى بيت الله الحرام ثلاثين حجة : نذرا واجباً لله تعالى فى عنقى ، حافياً راجلا ، لا يقبل الله منى إلا الوفاء بذلك - وكل مال هو لى اليوم ، أو أملكه إلى ثلاثين سنة هدى بالغ الكعبة الحرام . وكل مملوك هو لى اليوم ، أو أملكه إلى ثلاثين سنة أحرار لوجه الله عز وجل .

وكل ماجعلت لأمير المؤمنين ولعبد الله بن هرون ، وكتبته وشرطته لهما وحلفت عليه ، وسميت فى كتابى هذا لازم لى الوفاء به . لا أضمر غيره ؛ ولا أنوى إلا إياه . فان أضمرت أو نويت غيره فهذه العقود والمواثيق والايمان كلها لازمة لى ، واجبة على . وقواد أمير المؤمنين وجنوده وأهل الآفاق والأمصار فى حل من خلعى وإخراجى من ولايتى عليهم ، حتى أكون سوقة من السوق ، وكرجل من عرض المسلمين ، لاحق لى عليهم ، ولا ولاية ، ولا تبعة لى قبلهم ، ولا بيعة لى فى أعناقهم ، وهم فى حل من الايمان التى أعطونى ، براء من تبعتها ووزرها فى الدنيا والآخرة . (١) اه

وكتب فى ذى الحجة سنة ١٨٦

---

(١) وفى الطبرى جلد (١٠) زيادات فى هذا العهد منها :
وليس لمحمد وعبد الله أن يخلعا القاسم بن هرون ، ولا يقدما عليه أحداً من

ويتبع ذلك أسماء الشهود. وقد أغفلنا ذكرها لكثرتها. فمن أراد الاطلاع عليها فعليه بصبح الأعشى ص ٨٨ و ٨٩ ج ١٤.

عهد المأمون

وأما ما كتبه المأمون، فنصه بعد البسملة : —

« هذا كتاب لعبد الله هرون أمير المؤمنين، كتبه له عبد الله بن هرون أمير المؤمنين، فى صحة من عقله، وجواز من أمره، وصدق نية فيما كتب من كتابه، ومعرفة مافيه من الفضل والصلاح له ولأهل بيته ولجماعة المسلمين

إن أمير المؤمنين هرون ولاّنى العهد والخلافة وجميع أمور المسلمين فى سلطانه بعد أخى محمد بن هرون، وولاّنى فى حياته وبعده خراسان وكورها وجميع أعمالها : من الصدقات والعشر والبريد والطراز وغير ذلك. واشترط

أولادهما وقراباتهما ولاغيرهم من جميع البرية.

فاذا أفضت الخلافة إلى عبد الله فالأمر إليه فى إمضاء ماجعله أمير المؤمنين من العهد لقاسم بعده، أو صرف ذلك عنه إلى من رأى من ولده وإخوته، وتقديم من أراد أن يقدم قبله وتصيير القاسم بعد من يقدم قبله : يحكم فى ذلك بما أحب ورأى

ومنها : فعليكم معشر المسلمين إنفاذ ما كتب به أمير المؤمنين فيما ألزمكم وأوجب عليكم لعبد الله وعهد الله وذمته وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذمم المسلمين والعهود والمواثيق التى أخذ الله على الملائكة المقربين والمرسلين، ووكدها فى أعناق المؤمنين والمسلمين لَتَفُنَّ لعبد الله أمير المؤمنين بما سمى، ولمحمد وعبد الله والقاسم بنى أمير المؤمنين بما سمى وكتب فى كتابه هذا واشترط عليكم، أقررتم به على أنفسكم، فان أنتم بدلتم من ذلك شيئا أو غيرتم أو نكثتم أو خالفتم ماأمركم

لى على محمد ابن أمير المؤمنين الوفاء بما عقد لى من الخلافة والولاية للعباد والبلاد بعده، وولايتى خراسان وجميع أعمالها ، ولا يعرض لى فى شىء مما أقطعنى أمير المؤمنين ، أو ابتاع لى من الضياع والعقد والدور والرباع ، أو ابتعت منه لنفسى من ذلك ، وما أعطانى أمير المؤمنين هرون من الأموال والجوهر والكسى والمتاع والدواب فى سبب محاسنته لأصحابى ، ولا يتتبع لى فى ذلك ولا لأحد منهم أثراً ، ولا يدخل علىّ ولا على أحد ممن كان معى ومنى ، ولا عمالى ولا كتابى ومن استعنت به من جميع الناس — مكروها : فى دم ، ولا نفس ، ولا شعر ، ولا بشر ، ولا مال ، ولا صغير ، ولا كبير

فأجابه إلى ذلك وأقرّ به ، وكتب له به كتابا كتبه على نفسه ورضى به أمير المؤمنين هرون وقبله وعرف صدق نيته ، فشرطت لعبد الله هرون ، وجعلت له على نفسى أن أسمع لمحمد ابنه وأطيعه ولا أعصيه ، وأنصحه ولا أغشه ، وأوفى ببيعته وولايته ، ولا أغدر ولا أنكث ، وأنفذ كتبه وأموره ، وأحسن مؤازرته ومكانفته ، وأجاهد عدوّه فى ناحيتى بأحسن جهاد ما وفى لى بما شرط لى ولعبد الله هرون أمير المؤمنين ، وسماه فى الكتاب الذى كتبه لأمير المؤمنين ورضى به أمير المؤمنين ، ولم ينقص شيئاً من ذلك ولم ينقض أمراً من الأمور التى اشترطها لى عليه هرون.

به أمير المؤمنين ، واشترط عليكم فى كتابه هذا ، فبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله وذمم المؤمنين والمسلمين .

وكل مال هو اليوم لكل رجل منكم أو يستفيده إلى ٥٠ سنة فهو صدقة على المساكين ، وعلى كل رجل منكم المشى إلى بيت الله الحرام خمسين حجة نذرا واجبا ، لا يقبل الله منه إلا الوفاء بذلك .

وكل مملوك لأحد منكم أو يملكه فيما يستقبل إلى ٥٠ سنة حرّ
وكل امرأة له فهى طالق ثلاثا البتة طلاق الحرج ، لا مثنوية فيها .
والله عليم بذلك كفيل وراع ، وكفى بالله حسيبا .

وإن احتاج محمد بن هرون إلى جند وكتب لى يامرنى بأشخاصهم اليه ، أو إلى ناحية من النواحى ، أو إلى عدو من أعدائه خالفه أو أرادنقص شىء من سلطانه وسلطانى الذى أسنده هرون الينا وولاناه أن أنفذأمره ولا أخالفه ولا أقصر فى شىء كتب به إلىّ .

وإن أراد محمد ابن أمير المؤمنين هرون أن يولى رجلا من ولده العهد والخلافة من بعدى ، فذلك له ماوفى لى بما جعل لى أمير المؤمنين هرون ، واشترط لى عليه ، وشرطه على نفسه فى أمرى ، وعلىّ إنفاذ ذلك والوفاء له بذلك ، ولا أنقض ذلك ولا أغيره ، ولا أبدله ، ولا أقدم قبله أحداً من ولدى ، ولا قريباً ولا بعيداً من الناس أجمعين ، إلا أن يولى هرون أحداً من ولده العهد من بعدى ، فيلزمنى الوفاء بذلك .

وجعلت لأمير المؤمنين ومحمد ابنه علىّ الوفاء بما اشترطت وسميت فى كتابى هذا ، ماوفى لى محمد بجميع مااشترط لى هرون عليه فى نفسى ، وماأعطانى هرون من جميع الأشياء المسماه فى الكتاب الذى كتبه له . وعلىّ عهد الله تعالى وميثاقه ، وذمة أمير المؤمنين وذمتى ، وذمة آبائى ، وذمم المؤمنين وأشدُّ ما أخذ الله عز وجل على النبيين والمرسلين من خلقه أجمعين من عهوده ومواثيقه ، والايمان المؤكدة التى أمر الله عز وجل بالوفاء بها .

فان أنا نقضت شيئاً مما اشترطت وسميت فى كتابى هذا له ، أو غيرت ، أو بدلت ، أو نكثت ، أو غدرت ـ فبرئت من الله عز وجل ومن ولايته ومن دينه ، ومن محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقيت الله سبحانه وتعالى يوم القيامة كافراً مشركا .

وكل امرأة لى اليوم أو أتزوجها إلى ثلاثين سنة طالق ثلاثاً البتة طلاق الحرج . وكل مملوك لى اليوم أو أملكه إلى ثلاثين سنة أحرار لوجه الله تعالى وعلىّ المشى إلى بيت الله الحرام الذى بمكة ثلاثين حجة ، نذراً واجباً علىّ

وفى عنقى، حافياً راجلاً، لا يقبل الله منى إلا الوفاء به. وكل مال هو لى اليوم أو أملكه إلى ثلاثين سنة هدى بالغ الكعبة. وكل ماجعلت لعبد الله هرون أو شرطت فى كتابى هذا لازم لى. لا أضمر غيره ولا أنوى سواه. اه
ثم يلى ذلك أسماء الشهود التى ذكرت فى كتاب الأمين.

***

قال الأزرق: ولم يزل هذان الشرطان معلقين فى جوف الكعبة حتى مات «هرون الرشيد»، وبعد مامات بسنتين فى خلافة الأمين. فكلم «الفضلُ بن الربيع محمد بن عبد الله الحجبىَّ» فى إتيانه بهما، فنزعهما من الكعبة وذهب بهما إلى بغداد، فأخذهما الفضل فخرَّقهما وحرَّقهما بالنار. (١)

عهد المعتمد لولديه

وفى شوال من سنة ٢٦١ بايع المعتمد بولاية العهد لابنه جعفر ولقبه المفوض إلى الله؛ وولاه المغرب والشام والجزيرة والموصل وأرمينية وطريق خراسان ومهرجا نقذق وحلوان. وضم إليه موسى بن بغا.

وولى أخاه «أبا أحمد الموفق» العهد بعد جعفر وولاه المشرق، وبغداد والسواد والكوفة وطريق مكة والمدينة واليمن وكسكر وكور دجلة والأهواز وفارس وأصبهان وقمّ والكرج والدّينور والرىّ وزنجان وقزوين وخراسان وطبرستان وجرجان وكرمان وسجستان والسند، وضم إليه «مسروراً البلخى».

وعقد لكل واحد منهما لواءين أسود وأبيض. وشرط إن حدث به حدث الموت، وجعفر لم يكمل للأمر أن يكون الأمر لأبى أحمد، ثم لجعفر وأخذت البيعة على الناس بذلك؛ وفرقت نسخ الكتاب وبعث بنسخة مع «الحسن بن محمد» ليعلقها فى الكعبة (٢)

(١) راجع صبح الأعشى حـ ١٤ (٢) الطبرى حـ ١٠

استرحام علق بالكعبة

كان « أرسلان الفساسيرى » قد اعتقل الخليفة العباسى القائم بامر الله أبا جعفر « عبد الله » (١) ابن الامام القادر بالله ، فى الحديثة ، فكتب هذا رقعة ، وأنفذها إلى مكة مستعديا إلى الله تعالى على « الفساسيرى » وعلقت هذه الرقعة على الكعبة ، ولم ترفع عنها إلى أن ورد الخبر بخروجه من الاعتقال وعوده إلى داره ، وهلاك عدوه « الفساسيرى » .

وقد عنونها : « إلى الله العظيم ، من المسكين عبده »

وهذه صورة ما كان مكتوباً بها بعد البسملة

« اللهم إنك العالم بالسرائر ، والمطلع على مكنون الضمائر . اللهم إنك غنى بعلمك ، واطلاعك على خلقك عن إعلامى ، هذا عبد من عبيدك قد كفر نعمتك وماشكرها ، وألغى العواقب وماذكرها . أطغاه حلمك ، وتجبر بأناتك ، حتى تعدَّى علينا بغياً . وأساء إلينا عتواً وعدواً . اللهم قل الناصر ، واعتز الظالم ، فأنت المطلع العالم ، والمنصف الحاكم . بك نعتزُّ عليه ، وإليك نهرب من يديه ، فقد تعزز علينا بالمخلوقين ، ونحن نعتزُّ بك يارب العالمين . ألهم إنا حاكمناه إليك ، وتوكلنا فى إنصافنا منه عليك ، ورفعنا ظلامتنا هذه إلى حرمك ، ووثقنا فى كشفها بكرمك . فاحكم بيننا بالحق ، وأنت خير الحاكمين . وأظهر اللهم قدرتك فيه ، وأرنا مانرتجيه ، فقد أخذته العزة بالاثم . اللهم فاسلبه عزه ، وملكنا بقدرتك ناصيته ، ياأرحم الراحمين . وصل يارب على محمد وسلم وكرم » اه ذيل تاريخ دمشق ص ١٠٧

---

(١) توفى سنة ٤٦٧

سدانة الكعبة

كتبنا شيئاً عن السدانة (خدمة البيت) فى صفحة ٩٢ ، وأتينا فى صفحة ٩٣ على صورة كيس مفتاح الكعبة ، ونتحدث هنا على أصل السدانة ، وسبب اختصاص الشيبيين بمفتاح الكعبة منذ الجاهلية .

عند ما رجع سيدنا «ابراهيم» عليه السلام إلى قومه بقى ولده «اسماعيل» عليه السلام فى خدمة البيت الشريف .

فلما مات تولى بنوه خدمته من بعده ، حتى إذا ضعف شأنهم على مر الزمن تغلب عليهم العمالقة ، فتولوا أمر البيت ، وظلت السلطة فى يدهم إلى أن وفد « بنو جرهم » على مكة ، من طريق اليمن ، وكان ذلك فى نحو منتصف القرن السادس قبل الميلاد .

وكان عليهم إذ ذاك « مضاض بن الحارث » فزاحموا العمالقة وغلبوهم ، فاغتصبوا منهم خدمة البيت . بل إن السلطان على مكة والحجاز جميعاً كان لهم ، ولكنهم عاثوا فى الأرض فساداً ، فنال منهم وباء وقع فيهم ، كان سبباً فى اضعاف شأنهم . فاسترد بنو اسماعيل سدانة البيت بعد أن تغلبوا عليهم وطردوهم من مكة .

وما كادت السلطة بعد ذلك تستقر فى « بنى اسماعيل » حتى تغلب « بنو خزاعة » (١) ، وتولوا السدانة والقيام على البيت ، ثم السقاية (إرواء الحجاج) وظلوا على ذلك زمناً طويلا .

ولكن «بنو اسماعيل» ظلوا يترقبون الأمر ، حتى إذا ما رجع «قصى ابن كلاب» من الشام ، وهو من البطن الرابع والعشرين من «اسماعيل» ، جمع قبائل قريش ، بعد أن كانت تفرقت ، ودبت العداوة بينهم ، وكان ذكياً حسن

---

(١) منهم « كعب بن لؤى » الذى ذاعت بلاغته وفصاحته بين العرب ، وعظم شأنه ، حتى أنهم كانوا يؤرخون بعام موته إلى عام الفيل (واقعة الفيل) . وهو زمن يبلغ نحو ٤٠٠ سنة

السياسة محترم المنزلة . فبعد أن جمع كلمة قريش ، اشترى حجابة البيت من « خزاعة » وأخذ بذلك مفاتيح الكعبة . ثم ما زال بهم حتى أجلاهم عن مكة كلها .

واجتمعت له السقاية ، وحجابة البيت ، والرفادة ، ولواء الحرب ، حيث نبه شأنه من ثم ، وعظم سلطانه .

و « قصى » هذا هو الذى بنى « دار الندوة » قرب البيت ، وجعل بابها إليه ، وكان يجتمع فيها مع قومه للتفاهم على شؤونهم ، وتقرير أمورهم .

ورفع « قصى » بذلك شأن قريش ، فما زالت قوتهم وسلطتهم فى اطراد ، حتى دانت لهم القبائل ، وتقرب بعضها إليهم ، أو دفع الأتاوة لهم .

وقد أوصى « قصى » لأحد ولديه المدعو « عبد الدار » بما كان فى يده من أمر الندوة والسقاية والحجابة والرفادة واللواء (راية الحرب) .

وانتقل أمر ذلك إلى « بنى عبد الدار » حتى ظهر عليهم « بنو عبد مناف » فنزعوه من أيديهم . غير أنه قامت بينهما المشاحنات حتى كادت تجر إلى الحرب ، فتوسطت القبائل لحقن الدماء ، وحكموا بينهما بتقسيم الامتيازات .

فكان « لبنى عبد الدار » حجابة البيت واللواء ، وما زال أمرهما فى أيديهم إلى وقت فتح مكة .

وكان « لبنى عبد مناف » السقاية والرفادة

وانقسمت قريش إلى عشرة أبطن ، كانوا يقتسمون فيما بينهم شؤون العرب . وكان لكل بطن منها الحق فى شرف امتياز خاص ، يتوارثه الأبناء فيهم عن الآباء .

ونذكر من هذه البطون ما يخص موضوع الحج .

فمثلا : بنو هاشم . امتازوا بسقاية الحجيج ، وهذا الامتياز استمر فى عصور الاسلام ، وكان عميدهم « العباس بن عبد المطلب » .

و « بنو نوفل » امتازوا بالرفادة ، وهى الخراج المخصص لاعانة المنقطعين

من الحجيج ، وكان عميدهم « الحرث بن عامر » و« بنو عبد الدار » امتازت بالسدانة والحجابة واللواء والندوة ، وكان عميدهم « عثمان بن طلحة » .
وهكذا . . .

فى الاسلام

أما فى الاسلام فكان أمر السدانة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى يد « عثمان بن طلحة » ثم أمر الله النبى الكريم أن يخص « عثمان » المذكور بأمر الكعبة من السدانة والحجابة ، وأن يعلقها على خلفه . فما زالت باقية فى أيدى ذريته إلى اليوم .

وقد تولى بعد موت عثمان ابنه « شيبة » الذى تناوبها من بعده بنوه الواحد بعد الآخر ، وهى اليوم وقف على سلالته .

مفاتيح الكعبة

كانت المفاتيح لدى « عثمان بن طلحة » كما قدمنا . ويروى عنه أنه قال: كنا نفتح البيت فى الجاهلية يوم الاثنين ويوم الجمعة ، فتحناه يوماً فجاء رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم ليدخل مع الناس فتكلمت بشىء فحلم عنى ، ثم قال: ياعثمان لعلك سترى هذا المفتاح يوماً بيدى أضعه حيث شئت . فقلت : لقد هلكت قريش يومئذ وذلت . فقال : بل عزت . ودخل الكعبة ووقعت كلمته منى موقعاً ظننت أن الأمر سيصير إلى ما قال . ثم قدمت المدينة فبايعته ، وأقمت معه حتى خرج فى غزوة الفتح ، فلما دخل مكة قال : ياعثمان ، ائت بالمفتاح ، فأتيت به فأخذه منى ، ثم دفعه إلىّ وقال: « خذوها يابنى طلحة خالدة تالدة إلى يوم القيامة ، لا ينزعها منكم إلا ظالم » .

وفى ذلك نزل قوله تعالى : إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا . اه
ومنذ ذلك وهى وديعة فى أيدى أبناء طلحة ، الذين اصطلح عليهم بالشيبيين نسبة إلى « شيبة بن عثمان بن طلحة » .

مواعيد فتح الكعبة

كانت الكعبة فى الجاهلية تفتح يوم الاثنين ، ويوم الجمعة ، وقيل يوم الخميس بدلاً عن « الجمعة »

وأما فى الاسلام فكانت تفتح يوم الجمعة ، وترك يوم الاثنين . ثم أعيد فتحها فى يوم الاثنين .

وقال « ابن جبير » فى رحلته سنة ٥٧٩ هـ أنها تفتح يوم الاثنين ، ويوم الجمعة ، إلا فى رجب فتفتح كل يوم . اهـ

وقد تفتح فى أى وقت لمن يريد زيارتها من الحجاج نظير إتاوة يتقاضاها أمين المفتاح هناك . ويكون ذلك ميسوراً فى اليوم العاشر من المحرم للرجال وفى الحادى عشر منه للنساء .

ومواعيد فتحها كالآتى :

فى يوم ١٠ المحرم للرجال

وفى يوم ١١ منه للنساء

فى ليلة ١٢ ربيع الأول للدعاء لجلالة الملك ابن السعود ، ولا يدخلها الزوار

فى يوم ١٢ ربيع الأول للرجال

وفى ليلة ١٣ منه للنساء

فى يوم ٢٠ ربيع الأول لغسلها

فى أول جمعة من رجب للرجال

وفى اليوم التالى للنساء

فى ليلة ٢٧ رجب للدعاء لجلالة الملك ابن السعود

فى يوم ٢٧ رجب للرجال

وفى المساء للنساء

فى ليلة نصف شعبان للدعاء

فى يوم ١٥ شعبان للرجال

وفى المساء للنساء

فى يوم الجمعة الأولى من رمضان للرجال

وفى اليوم التالى للنساء

فى ليلة ١٧ رمضان للدعاء لجلالة الملك

فى آخر جمعة من رمضان للدعاء أيضا

فى نصف ذى القعدة للرجال

وفى اليوم التالى للنساء

فى ٢٠ ذى القعدة لغسلها

وتفتح على سبيل الخصوصية لبعض الأعيان ، وتفتح لمن يريد الزيارة بعد أن يدفع ريالا لمن يتولى فتح الباب ، وإذا كان الزائر غنيا يدفع بضعة جنيهات . وبعض الناس ينتهز فرصة غسل الكعبة ويدخل مع الغاسلين .

فى ٢٨ ذى القعدة تؤزر الكعبة بإزار أبيض فى أسفلها. وهذا اليوم الأخير ليس بيوم دخول عام ، وإنما يدخل القيم ، وأمير الحاج المصرى ، وأتباعهما المعينون فى ذلك لتعليق الكسوة الجديدة . ولا ينصب سلم للدخول وإنما يدخل من تكلف الصعود بمعين ، أو بخفة أعضاء . وعلى الباب أحد خدم الأمير يمنع الناس من الدخول إلا أن الناس يكاثرونه ، فان منعوا من جانب دخلوا من جانب آخر . وربما يتعامى عن البعض ، ويحصل لكثير من الناس فى ذلك المكان سوء أدب من ضرب وشتم ، فالأولى عدم الدخول إلا لمن تيسر له ذلك عفواً .

غسل الكعبة المعظمة

روى عن ابن عمر رضى الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دخل مكة يوم الفتح أمر بلالا فرقى على ظهر الكعبة ، فأذّن بالصلاة ، وقام المسلمون وتجردوا فى الأزر وأخذوا الدلاء وارتجزوا على زمزم ، فغسلوا الكعبة ظهرها وبطنها ، فلم يدعوا أثراً من آثار المشركين إلا محوه وغسلوه .

وقد جرت العادة بعد ذلك أن تغسل الكعبة بين الحين والحين ، ويكون لوقت غسلها حفل يحضره رؤساء مكة ، وأميرها ، فى غير موسم الحج ، وفى الموسم يحضر أمير الحج ، وأمين الصرة ، وبعض الموظفين المنوطين بأمر الحج

وهى تغسل عادة فى العشرين من ربيع الأول ، وفى العشرين من ذى القعدة وفى الخامس من ذى الحجة .

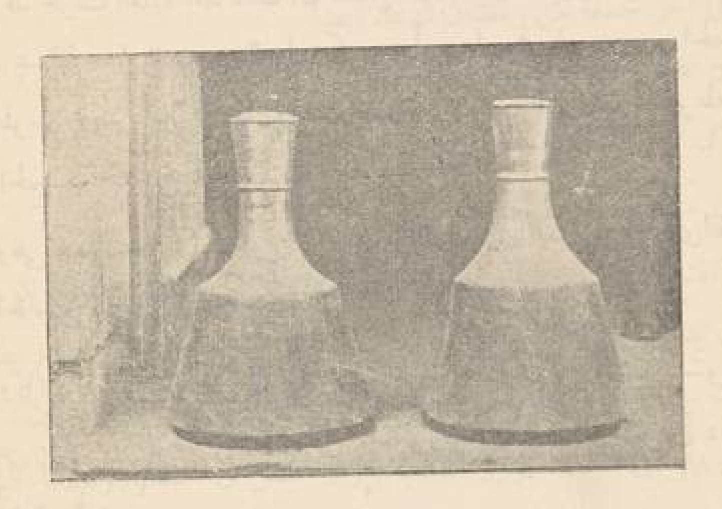
وكانت تغسل من قبل فى ٢٧ ذى القعدة بماء زمزم ، وتشمر ستورها ، وتلبس يوم عيد الأضحى ، وتغسل بماء الورد عند عود الركب من «منى» أوان منصرفهم .

وقد يقوم بأمر غسيل الكعبة فى بعض الأحيان الرؤساء أنفسهم ، إمعاناً فى احترامها ، كما يقوم بذلك أيضا بعض العظماء من الحجاج ، فقد تولى غسلها فى سنة ٧٣٨ هـ « ابن فضل الله العمرى » مؤلف « مسالك الأبصار » .

وتغسل أرض الكعبة من الداخل بماء من زمزم ، ومكانس صغيرة من خوص النخيل ، ثم تمسح جدر الكعبة بخرق بيضاء مبللة بماء الورد ، والروائح الشذية . ويتنافس الناس فى اقتناء تلك المكانس ، والخرق ، إذ يشتد الزحام

فى ذلك الوقت أمام باب الكعبة للتبرك بالماء المتخلف عن عملية الغسل . ويضع المطوفون ذلك الماء فى قوارير يهادون بها من يصحبهم من الحجاج ، أو يبيعونها لهم للتبرك به ، كما يتخاطف الناس المكانس والخرق ، ويتضاربون على اقتنائها . وهم إما يحتفظون بها للبركة والتقديس ، وإما يذهبون إلى أكثر من ذلك فيعتقدون فيها ماهو أبلغ أثراً ، حيث يمسحون بها على وجوههم ، أو أجسامهم ، أو عيونهم .

والصورة الآتية تمثل جمادانات من نحاس تكون عادة مصاحبة لكسوة الكعبة من مصر لوضع ماء الورد بها أثناء الغسيل .



هيبة الكعبه

للكعبة هيبة خاصة ، يشعر بها كل من يقصدها ، ويخشع عندها كل زائر . وكأن الله تعالى خصّ بذلك بيته الحرام ، مهابة وإجلالا .

ونحن نروى هنا بعض وقائع فى ذلك مروية بلسان أصحابها .

قال « الحسين بن محمد الورثيلانى » فى كتابه « نزهة الأنظار » : امتنعت من دخول الكعبة ، تأدباً ، وتعللت بالزحمة . ولكن أمير الحج « ابراهيم أبو شنب » أخــذ بيدى ، واطلعنى من غير كلفة ولا زحمة . فدخلت البيت ، وعلانى من الهيبة ما الله به عالم . فركعت به ركعتين لناحية الباب مواجهه غافلا عن السنة بأن أجعله خلف ظهرى ، لما علانى من الخجل والدهش والوجل .

ولما دخلته فى المرة الثانية فى حجتنا هذه ركعت فيه إلى الجهات وجعلت الباب أولاً خلف ظهرى ، وكبرت فى نواحيه ، وأجلت النظر فى طوله وعرضه وسمائه وأرضه طلباً للتحقيق .

روى عن « عائشة » رضى الله عنها أنها قالت : عجباً للمرء المسلم إذا دخل الكعبة كيف يرفع بصره قبل السقف ، ليدع ذلك إجلالا لله تعالى وإعظاماً ، مادخل رسول الله صلى الله عليه وسلم الكعبة فما خالف نظره موضع سجوده حتى خرج منها .

قال : والبيت الآن على ثلاثة أعمدة من العود ، ونقصوا منها من جهة الحجر مقدار السلم .

وجاء فى « وفاء الوفاء » أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى فى الكعبة وبينه وبين الجدار ثلاثة أذرع .

وجاء فى « الجامع اللطيف » : إن البيت يفتح فيدخله الجم الغفير من الناس متزاحمين ، فيسعهم ، ولم يعلم أن أحدا مات فيه من الزحام إلا ما وقع فى سنة ٥٨١ ، فانه مات فيه ٨٤ نفرا .

بدعتان

قال ابن الصلاح « فى منسكه : إن مما أحدثه بعض الفجرة . فى جوف الكعبة بعد السبعمائة بدعتين : إحداهما « العروة الوثقى » وذلك إنهم عمدوا إلى موضع عال داخل الكعبة مقابل للداخل من بابها فسموه بالعروة الوثقى ، وأوقعوا فى العقول الضعيفة أن من ناله بيده فقد استمسك بالعروة الوثقى ، فألجأهم ذلك إلى أن يقاسوا فى الوصول إلى ذلك المحل عناء وشدة ، بحيث يركب بعضهم بعضاً ، وربما صعدت الأنثى فوق الذكر ولامست الرجال ولامسوها فيلحقهم بذلك أنواع الضرر ديناً ودنياً .

والثانية أن فى وسط البيت مسماراً سموه « سرة الدنيا » . وحملوا العامة على أن يكشف أحدهم سرته وينبطح على ذلك المسمار . اه

قال « السمهودى » فى كتابه « وفاء الوفاء » : فى سنة ٧٠٢ توجه إلى مكة الصاحب زين الدين احمد بن محمد المعروف بابن حنا المصرى فرأى ما يقع من الفتنة عند دخول البيت الحرام ، وتعلق الناس بعضهم ببعض ، وحمل النساء على أعناق الرجال للاستمساك بالعروة الوثقى فى زعمهم ، فأمر بقلع ذلك المثال وزالت تلك البدعة . اه

أقول : وقد زالت البدعة الثانية ولا أثر لها الآن بالكعبة ويستدل مما سلف بيانه على دخول النساء والرجال إذ ذاك جميعا ، ولكن الحالة الآن تغيرت ، واختص النساء بانفرادهن فى الدخول .

وقد كان فى الكعبة فى الجاهلية حلق يدخل الخائف يده فيها فلا يريبه أحد ، فجاء خائف فأدخل يده فى حلقة منها ، فاجتذبه رجل فشلت يده . قال حويطب بن عبد العزى : ولقد رأيته فى الاسلام وإنه لأشل . راجع الجامع اللطيف

تحلية الكعبة بالذهب والفضة

عمل « عبد المطلب » جد النبي صلى الله عليه وسلم للكعبة باباًمن حديد من الأسياف القَلَعِيَّة (١) ، التى كانت مع الغزالين الذهب اللذين استخرجهما من «بئر زمزم » لما احتفرها ، واتخذ من الغزالين المذكورين حلية للكعبة . فكانت أول ذهب حليت به .

فلما جاء الإسلام ، وآلت الخلافة إلى « الوليد بن عبد الملك » ، بعث إلى واليه بمكة « خالد بن عبد الله القسرى » بستة وثلاثين ألف دينار فضرب منها على باب الكعبة صفائح الذهب ، وعلى الميزاب ، وعلى الأسطوانات التى فى باطنها ، وعلى الأركان التى فى جوفها (٢)

ويقول المسبحى : إن أول من حلىّ البيت « عبد الله بن الزبير » وجعل على الكعبة وأساطينها (عمدها) صفائح الذهب ، وجعل مفاتيحها من ذهب ولكن من ينعم النظر فيما قلناه تحت عنوان « بناء الكعبة على يد ابن الزبير » يتضح له وهم المسبحى المذكور .

ولما أفضت الخلافة إلى « محمد الأمين ابن هرون الرشيد » بلغه أن الذهب الذى عمله « الوليد » قد رقّ . فأرسل إلى عامله « سالم بن الحجاج » ثمانية عشر ألف دينار ، ليضربها صفائح يحلىّ بها باب الكعبة . فقلع هذا ما كان على الباب من الصفائح ، وزاد عليها مابعثه « الأمين » وضربها صفائح سمرت على الباب ، وجعل مساميرها وحلقتى الباب وأعتابه من الذهب

---

(١) الأسياف القلعية واحدها قلعى أى عتيق ، نسب إلى معدن بالقلع ، وهو جبل بالشام

(٢) ويقال : إن الحلية التى حلاها «الوليد» للكعبة هى ما كانت فى مائدة «سليمان بن داود» من ذهب وفضة ، وكانت قد جلبت من «طليطلة» بالأندلس . وكان لها أطواق من ياقوت وزبرجد .

وقال الأزرقى : إن حجبة الكعبة أرسلوا إلى المتوكل العباسى [1] يذكرون له أن زاويتين من زوايا الكعبة تأكل ذهبهما

فأرسل المتوكل إلى « إسحق بن سلمة » الصائغ بذهب ، وأمره بعمل ذلك فكسر « اسحق » تلك الزوايا وأعادها من الذهب ، وعمل منطقة من فضة ركبها فوق إزار الكعبة من داخلها ، عرضها ثلثا ذراع وجعل لها طوقا من الذهب متصلا بهذه المنطقة .

وألبس عتبة الباب الخشب بالفضة . قال « إسحق » : فكان مجموع الزوايا والطوق الذهب ٨٠٠٠ مثقال ، ومنطقة الفضة وما على الباب وما حلى به المقام ٧٠٠٠٠ درهم

وفى أيام « المعتضد بالله العباسى » (٢) كتب الحجبة إليه ، أن أحد الولاة بمكة قطع أيام الفتنة (سنة ٢٥١ هـ) عضادتى باب الكعبة وغيرهما وسبكهما دنانير ، وصرفها على الفتنة . فأمر المعتضد باعادة ذلك جميعه . وفى أيام « المقتدر بالله » العباسى (٣) أمرت والدته (٤) فى سنة ٣١٠ غلامها « لؤلؤاً » أن يلبس جميع اسطوانات (أعمدة) البيت الشريف ذهباً ، ففعل .

---

(١) هو أبو الفضل «جعفر ابن المعتصم ابن الرشيد» . بويع بالخلافة فى أواخر سنة ٢٣٢ واستمر إلى أن قتل فى شوال سنة ٢٤٧ هـ

(٢) هو أبو العباس «أحمد» المعتضد بالله بن طلحة » الموفق ابن المتوكل ابن المعتصم ابن هرون الرشيد .

بويع بالخلافة فى شهر رجب من سنة ٢٧٩ وتوفى فى ربيع الآخر من سنة ٢٨٩ هـ .

(٣) هو أبو محمد «على» المقتدر بالله ابن المعتضد بالله ، ولى فى ذى القعدة سنة ٢٩٥ ، وخلع فى شهر ربيع الأول سنة ٢٩٦ . ثم أعيد فى الشهر المذكور ، واستمر إلى أن خلع ثانيا فى المحرم من سنة ٣١٧ ، ثم أعيد ثالثا فى المحرم المذكور ، واستمر حتى قتل فى شوال من سنة ٣٢٠ هـ

(٤) هى أم ولد تسمى « شعيب »

ثم ان الوزير «جمال الدين محمد بن على» (١) المعروف بالجواد الأصبهانى وزير «مودود بن زنكى» صاحب الموصل، أنفذ فى سنة ٥٤٩ ﻫ حاجبه إلى مكة ومعه ٥٠٠٠ دينار، ليعمل بها صفائح الذهب والفضة فى أركان الكعبة من داخلها.

وفى سنة ٥٥٢ ﻫ قلع الخليفة المقتفى (٢) باب الكعبة، وعمل عوضه باباً مصفحاً بالفضة المذهبة وعمل لنفسه من الباب تابوتاً يدفن فيه (٣)

وممن حلاها الملك الناصر «محمد بن قلاون» فقد جدد باب الكعبة، وصفحه بالفضة بمصر، بما زنته ٣٥ ألف درهم.

---

(١) مات سنة ٥٥٩ ﻫ وكان قد تعاهد مع «شيركوه» أن من مات منهما نقله الآخر إلى المدينة الشريفة. فنقله «شيركوه» ورتب من يقرأ القرآن عند حمله ووضعه، ونودى فى كل بلد نزلوه بالصلاة عليه. ولما أرادوا الصلاة عليه بالحلة أنشد شاب:

سرى نعشه فوق الرقاب وطالما ... سرى جوده فوق الركاب ونائله

يمر على الوادى فتثنى رماله ... عليه وبالنادى فتثنى أرامله

وطيف به حول الكعبة. ودفن بالمدينة فى رباط بناه لنفسه، وبين قبره وقبر النبى صلى الله عليه وسلم نحو ١٥ ذراعا.

وقد جدد مسجد الخيف بمنى وبنى الحجر بجانب الكعبة، وزخرف الكعبة، وبذل جملة طائلة لصاحب مكة، وللمقتفى حتى مكنه من ذلك.

وبنى المسجد الذى على عرفات، وعمل بعرفات مصانع الماء، وبنى سورا على المدينة — إلى غير ذلك من الأعمال النافعة المجيدة رحمه الله تعالى — راجع ص ٦٨ ﺟ ٢ ابن الوردى

(٢) هو أبو عبد الله «محمد» ابن أبى العباس «احمد» المستظهر بالله بويع بالخلافة فى ذى القعدة سنه ٥٣٠ ومات سنه ٥٥٥ ﻫ.

---

(٣) جاء فى ابن الواردى ٥٩ ﺟ ٢، وفى وفاء الوفاء ص ٥٥٥، أن باب الكعبة القديم عمل نعشا للوزير جمال الدين «محمد» ابن أبى منصور، الوزير لولد الملك

وقال ابن فضل الله العمرى فى كتابه « مسالك الابصار » : إنه كتب نسخةما كتب عليه ، وجهزه مع الأمير « بَرْسُ بُغَـا الناصرى »

وحلى الكعبة أيضا الملك الأشرف « شعبان » فى سنة ٧٧٦ ه .

وقال قطب الدين الحنفى فى كتابه « الأعـلام » الذى فرغ من تأليفه سنة ٩٨٥ ه وقد أدركنا الباب الشريف مصفحا بالفضة ، وكان يختلس من فضته أوقات الغفلة من قلّ دينه ، وخفت يده ، إلى أن انكشف أسفل الباب الشريف عن خشب الباب ، وقبض مراراً على من يفعل ذلك ، فعرض الأمر على السلطان « سليمان » فى سنة ٩٦١ فأشار بتصفيح الباب بالفضة ، وباصلاح سقف البيت ، بعد أن أفتاه بذلك العلامة « أبو السعود أفندى » . وكاتب بذلك وزير مصر « على باشا » فبلغ هذا الأمر إلى ناظر الحرم وقاضى مكة ، وبعد أن عقد العلماء مشورة ابتدؤا باصلاح السقف

ولما تم العمل كتب قطب الدين المذكور كلاماً يتضمن التاريخ وهو : « الحمد لله الذى عمر الكعبة الشريفة بالشرائع المحمدية ، وسقفها بتشييد »وَإِذْ يَرْفَعُ إبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا» ،وأصلح الوجود بوجود من وَجَدَ فيها جِداراً« يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ » ، وَخَصَّهُ بكنز«إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ» فكان له أعظم كرامة ، وأناله الحظ الأوفر من ملك سميه نبي الله سيدنا « سليمان » ابن السلطان « سليم » خان الحادى عشر من ملوك بنى عثمان خادم الحرمين الشريفين الخافقة ألوية نصره ، ورايات ظفره ، فى الخافقين ، فلقد جدد سقف الكعبة المعظمة حفظ الله دولته حفظ البيت المعمور ، والسقف المرفوع ، وأصلح أرضها المقدسة ،

العادل « زنكى » ، ثم استوزره بعد « زنكى » ولده « غازى بن زنكى » . يعنى أخا الملك العادل اه وهو يقصد بذلك الوزير المعروف بالجواد السالف الذ ر

وجدرانها المتخذة قبلة للسجود والركوع ، وغرد طير تاريخ تجديد عمارته على غصون حساب أبجد فكان (مجدد سطح بيت الله مالك الدولة سليمان) . ملكه الله الأرض ومن عليها ، وجعل باب سعادته قبلة تسجد جباه المطالب اليها »

« ثم لما فرغ من تجديد سطح البيت شرع فى تسوية فرش المطاف . فان أحجاره انفصلت عن بعضها ، وكانت تسد اللحامات تارة بالنورة وتدلك ، وتارة بالرصاص ، ويسمر بمسامير حديد . فأصلح جميع ذلك ، وفرش المطاف وأصلح أبواب المسجد وفرش المسجد جميعه بالحصى .

ثم ورد الأمر السلطانى بتصفيح الباب الشريف ، واصلاح الميزاب ، وصفح بالفضة المموهة بالذهب ، إلى أن غير بعد ذلك ، وحمل الميزاب إلى الباب الخاقانى (العالى) ووضع فى الخزانة . اه

ويؤخذ من الحساب الأبجدى السالف الذكر أن العمارة تمت فى سنة ٩٦٤ ه

وقال « النووى والرافعى » تحرم تحلية الكعبة بالذهب ، والفضة وكذا سائر المساجد

وخالفهما « السبكى » وأفتى بالحل ، وقال : إن المنع لاسيما فى الكعبة بعيد ، وغريب فى المذاهب كلها قل من ذكره ، فلا وجه له ، ولا دليل يعضده وهذا فى التحلية بصفائح النقدين . وأما التمويه فلا أمنع من جريان خلاف فيه ، لأن فى ذلك افساد مالية . اه

ونقل الامام « أبو الليث السمرقندى » إباحة ذلك عن « أبى حنيفة » رضى الله عنه ، ثم قال : وعندى أنه لا بأس به إذا لم يكن من غلة المسجد . اه

١١١ الجامع اللطيف

تطييب [1] الكعبة

روى عن (عائشة) رضى الله عنها أنها قالت : طيبوا البيت فان ذلك من تطهيره . ولان أطيب الكعبة أحب إلى من أن أهدى لها ذهبا وفضة .

ولعل العرب فعلت ذلك فى الجاهلية .

أما فى الاسلام فقد خلقها بالطيب « معاوية » ولما فرغ « ابن الزبير » من عمارتها خلقها باطناً وظاهراً بالعنبر والمسك من أعلاها إلى أسفلها، وكان يجمرها فى كل يوم برطل من الطيب ، وفى يوم الجمعة برطلين .

وأجرى لها « معاوية » وظيفة الطيب لكل صلاة ، فكان يبعث به فى الموسم ، وفى رجب ، وأخدمها عبيداً من عنده . ثم تبعه الولاة بعد ذلك فى تطييبها .

وقد ضمخها « المهدى » العباسى سنة ١٦٠ من خارجها وداخلها بالغالية والمسك والعنبر .

دخول النبى الكعبة

وصلاته فيها

جاء فى البخارى أن ابن سالم حدث فقال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم البيت هو و « أسامة بن زيد » و « بلال » و « عثمان بن طلحة » ، فأغلقوا عليهم الباب ، فلما فتحوا كنت أول من ولج ، فلقيت « بلالا » فسألته هل صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم . بين العمودين اليمانيين .

وكان « ابن عمر » اذا دخل الكعبة مشى قبل الوجه حين يدخل ، ويجعل الباب قبل الظهر ، يمشى حتى يكون بينه وبين الجدار الذى قبل وجهه نحو

---

(١) قال النووى : لا يجوز أخذ شىء من طيب الكعبة لا للتبرك ولا لغيره ، ومن أخذ شيئا من ذلك لزمه رده ، فان أراد التبرك أتى بطيب من عنده فمسحها به ثم ، أخذه (الجامع اللطيف)

ثلاث أذرع ، فيصلي ، متوخيا المكان الذي أخبره « بلال » أن رسول الله صلى فيه : وليس على أحد من بأس أن يصلي في أي ناحية شاء من البيت . اهـ

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم مكة أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة (التماثيل) فأمر بها فأخرجت ، ومنها صورة ابراهيم واسماعيل في أيديهما الأزلام . فقال رسول الله قاتلهم الله . أما الله قد علموا أنهما لم يستقسما بها قط . فدخل البيت فكبر في نواحيه ولم يصل فيه . رواه البخاري ص ١٨٣

وعن « ابن عمر » سألت « بلالا » حين خرج ، ماذا صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : جعل عمودين عن يمينه وعموداً عن يساره ، وثلاث أعمدة وراءه ، (وكان البيت يومئذ على ستة أعمدة) ثم صلى ركعتين

وقال الحافظ العراقي : وينبغي للمصلي أن لايجعل بينه وبين الجدار أقل من ثلاث أذرع ، فان كان فقد صادف مصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وإن كان ذراعين فقد وضع وجهه وذراعاه في مكان قدمى النبي صلى الله عليه وسلم . فهذا أولى من التقدم عنه .

***

وإدخال النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة الثلاثة معه لمعان تخص كل واحد منهم ، فعثمان : لئلا يتوهم الناس أنه عزله ، أو لأنه كان يقوم بفتح الباب وإغلاقه . وبلال لأنه كان مؤذنه وخادم أمر صلاته . وأسامة لأنه كان يتولى خدمة مايحتاج إليه .

والحكمة في غلق الباب عليهم لأمرين : لئلا يزدحم الناس عليه صلى الله عليه وسلم ، ولئلا يظنوا أن الصلاة فيه سنة ، كما نبه عليه « الكرماني »

وهذا الدخول الذي وقع في يوم الفتح هو أول دخوله صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة ، ولا خلاف فيه بين العلماء .

وقيل إنه دخل بعد ذلك ثلاث مرات فى اليوم التالى للفتح ، وفى حج الوداع وفى عمرة القضاء .

وقال الأزرقى : إنما دخل الكعبة مرة واحـــدة عام الفتح ، ثم حج ولم يدخلها .

وقد استحب الأئمة الأربعة دخولها ، واستحسن « مالك » كثرة الدخول .

ونقل عن بعض العلماء عدم استحباب ذلك ، مستدلا بما روى عن « عائشة » رضى الله عنها قالت : « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندى وهو قرير العين وطيب النفس ، ثم رجع إلى وهو حزين ، فسألته فقال : « إنى دخلت الكعبة ووددت أنى لم أكن فعلت ، إنى أخاف أن أكون أتعبت أمتى من بعدى » . أخرجه أحمد والترمذى .

قال ابن ظهيرة عن المحب الطبرى : « ولا دلالة فيه على ذلك ، بل دخوله صلى الله عليه وسلم دليل الاستحباب ، وتمنيه عدم الدخول قد علله عليـــه الصلاة والسلام بالشفقة على أمته ، ولا يرفع ذلك حكم الاستحباب »

ويروى أنه صلى الله عليه وسلم لما دخل البيت وقف عند كل ركن واستقبله بالتكبير والثناء والاستغفار .

وقد استحب جمهور العلماء الصلاة فيها لما ثبت عندهم من صلاة النبى صلى الله عليه وسلم فيها .

ومنع ذلك طائفة من العلماء منهم ابن عباس ومحمد بن جرير واصبغ المالكى وبعض أهل الظاهر قالوا : لا تصح فيها صلاة أبدا ، لا فريضة ولا نافلة . ومذهب مالك صحة النفل غير المؤكد فيها .

وأما الفرض فالمشهور من مذهبه عدم صحته فيها . وقيل : يجوز ، ومثل الفرض النوافل المؤكدة ، والأصح عند الحنابلة صحة النفل فيها وعدم صحة الفرض . ومذهب أبى حنيفة والشافعى صحة الفرض والنفل فيها ، ويصلى المرء إلى أى جهاتها شاء .

وروى النسائى ومسلم عن أسامة بن زيد وابن سعد فى كتاب الطبقات، وأحمد فى مسنده ، والطبرانى فى معجمه عن الفضل ابن العباس ، والشيخان والنسائى عن ابن عباس، أن ثلاثتهم قالوا : لم يصل النبى صلى الله عليه وسلم فى الكعبة ،وإنما دعا فيها وصلى ركعتين خارجها عند بابها

وقد رجح التقى الفاسى فى كلام طويل جميل رواية الاثبات على رواية النفى وذكر كثيراً من المسالك التى سلكها العلماء فى الجمع بين هاتين الروايتين المتنافيتين ونقدها فارجع اليها إن شئت .

الهدايا للكعبة

لعظم مكانة البيت الحرام عند الناس كانوا يتقربون إليه بالهدايا الجزيلة والهبات الجليلة ، والحلى الفاخرة ، وكان كل ذلك قديما يحفظ فى بئر فى الكعبة يسمونها « غَبْغَب (١) أو « عبعب »

قال المسعودى : كانت الفرس فى الزمان الأول تهدى إلى الكعبة أموالا وجواهر .

وقد أهدى لها « ساسان بن بابك » (٢) غزالين من ذهب ، وجواهر ، وسيوفا ، وذهبا كثيرا ، ودفن ذلك فى « زمزم » (وصلت إلى عبدالمطلب فصنع منها باب الكعبة كما سلف ذكره)

---

(١) الغبغب فى اللغة المنحر ، ولا يبعد أنهم كانوا ينحرون على حافتها قرابينهم فى الجاهلية ، وسيأتى شىء من ذلك عند الكلام على الكسوة ، ولما جاء الاسلام سدت هذه البئر وأزيل ماحولها من الأصنام ، والأنصاب ، والأزلام

(٢) ساسان هو رأس الدولة الساسانية التى حكمت بلاد الفرس من سنة ٢٢٥ ميلادية الى سنة ٦٥١ التى استولت العرب فيها على بلاد الفرس

وقال الفاسى : يقال إن « كلاب بن مرة بن كعب » أول من علق على الكعبة السيوف المحلاة بالذهب والفضة ، كذخيرة لها .

ونقل عن الأزرقى : أن أمير المؤمنين » عمر بن الخطاب «رضى الله عنه» لما فتح المدائن ، بعث بهلالين علقهما فى الكعبة .

وبعث « عبد الملك بن مروان » بشمستين وقدحين من زجاج »

وبعث ابنه « الوليد » بقدحين

وبعث « الوليد بن يزيد » بالسرير (الكرسى) وبهلالين

وبعث « أبو العباس السفاح » بالصفحة الخضراء فعلقت فيها

وأرسل أخوه « المنصور » القارورة الفرعونية

وبعث « المأمون » بالياقوتة التى تعلق فى وجه الكعبة ، فى كل موسم بسلسلة من ذهب

وبعث « جعفر المتوكل على الله » بشمسية من ذهب مكللة بالدر الفاخر والياقوت الرفيع . والزبرجد ، تعلق بسلسلة من الذهب فى وجه البيت كل موسم .

وكان لملك من ملوك « التبت » صنم من ذهب فى صورة إنسان يعبده وكان على رأس الصنم تاج من ذهب مكلل بخرز الجوهر والياقوت الأحمر والأخضر والزبرجد ، وكان على سرير من فضة مربع مرتفع عن الأرض على قوائم ، وعلى السرير فرشة الديباج ، وعلى أطراف الفرش إزار على قدر الكرسى فى وجه السرير من ذهب وفضة مرخاة ، فلما أسلم ذلك الملك أهدى كل ذلك إلى الكعبة .

وأهدى « المعتصم العباسى » فى سنة ٢١٩ قفلا لباب الكعبة فيه ألف مثقال ذهباً . وكان والى مكة يومئذ من قبل « صالح بن العباس » فأرسل إلى الحجبة ليسلمهم القفل ، فأبوا أن يأخذوه منه ، وأراد أن يأخذ القفل الأول

ويرسل به إلى الخليفة ، فأبوا أن يعطوه ، وتوجهوا إلى بغداد ، وتحدثوا مع « المعتصم » فى ذلك ، فترك قفل الكعبة عليها ، وأعطاهم القفل الذى كان بعث به إليها ، فاقتسموه بينهم .

ومما أهدى إلى الكعبة طوق من ذهب مكلل بالزمرد والياقوت ، مع ياقوتة كبيرة خضراء زنتها ٢٤ مثقالا ، أرسله بعض ملوك السند لما أسلم فى سنة ٢٥٩ فعرض أمره على « المعتمد على الله » فأمر بتعليقه فى البيت الشريف

ومما علق بالكعبة أيضا بيعة العهود التى أخذها «هرون» لأولاده ، وقد سبق ذكرها ، وكذلك بيعة « جعفر بن المعتمد على الله » ، وبيعة «أبى احمد الموفق بالله» ، وغيرهم ، كانوا يعلقونها فى قصبات من الفضة ، وكان وزن ما علقت فيه بيعة « جعفر » ٣٦٠ درهما ، وعليها خارجا عن ذلك ، ثلاثة أزرار بثلاث سلاسل من فضة

وفى سنة ٢٩٤ أرسل الخليفة « المعتمد » إلى الكعبة بهدايا وفى جملتها شمسة جعل فيها جوهراً نفيساً ، فما أن وصلت القافلة التى تحمل الخزائن والأموال وشمسة الخليفة إلى « فيد » «بليدة فى منتصف طريق مكة من الكوفة» حتى لاقاهم « زكرويه القرمطى » فقاتلهم وانتصر عليهم ، ولم ينج منهم إلا اليسير ، وأخذ حريمهم وأموالهم ، فندب «المكتفى» لقتاله القائد «وصيفا» وانتهى الأمر بالانتصار عليه وأسره .

وفى سنة ٣٥٩ بعث اليها « المطيع العباسى » قناديل كلها فضة ، خلا واحدا من الذهب ، زنته ٦٠٠ مثقال

وفى سنة ٣٦٢ أهدى اليها « المنصور » صاحب اليمن قناديل من ذهب وفضة .

وقال ابن زولاق ما ملخصه : وصل المعز لدين الله إلى قصره بمصر فى رمضان من سنة ٣٦٢ ، وبعد ما استقر وقابل الأعيان ، وقبل هداياهم ، نصب

فى يوم عرفة الشمسية التى عملها للكعبة على إيوان قصره ، وسعتها ١٢ شبرا فى ١٢ شبرا ، وأرضها ديباج أحمر ، ودورها ١٢ هلال ذهب ، فى كل هلال أترجة ذهب مسبك ، جوف كل أترجة ٥٠ درة كبار كبيض الحمام ؛ وفيها الياقوت الأحمر والأصفر والأزرق ، وفى دورها كتابة آيات الحج بزمرد أخضر قد فسر ، وحشو الكتابة در كبير لم ير مثله ، وحشو الشمسية المسك المسحوق ، يراها الناس فى القصر ومن خارج القصر لعلو موضعها .

وقال فى كتاب « الذخائر والتحف » وقد أدخل من الذهب فى هذه الشمسية الكبيرة ٣٠ ألف مثقال ذهبا ، و ٢٠ ألف درهم مخرقة ، و ٣٦٠٠ قطعة جوهر من سائر ألوانه وأنواعه . اه ٣٨٥ مقريزى

وجاء فى كتاب « الفاطميون فى مصر » تحت عنوان « الكسوة[1] التى عملها المعز للكعبة » مانصه :

---

(١) اللفظ الذى استعمله المقريزى هنا هو « شمسية » ويريد به طبعا الستور التى كانت تكسى بها الكعبة .

وقد تناول « كترمير » الكلام على اشتقاق هذا اللفظ فى المجلد الثانى من تاريخ « المماليك فى مصر » الذى عربه — كذا — عن المقريزى ويعرف باسم كتاب « السلوك فى معرفة دول الملوك » وتبعا لما ذكر « كترمير » نجد هذا اللفظ « شمسية » مستعملا فيما يأتى :

(١) نافذة مربعة فى أعلى الحوائط ، تترك مفتوحة عادة ، أو تزين بزجاج حسبما يشاء المرء من مرور الهواء أو الضوء فقط (رحلة ابن بطوطة طبع وترجمة ديفريمرى وسانجيتى) باريس سنة ١٩١٤ ح ١ ص ١٩٩ . وفى هذه الرحلة يقول ابن بطوطة فى وصفه لجامع دمشق : أن به ٧٤ من شمسيات الزجاج .

وجاء ذكر شمسيات الزجاج فى عبارة « المقرى » عن جامع قرطبة فى كتابه « نفح الطيب » ح ١ ص ٢٩٣ . وعند كلامه على المسجد الجامع بمراكش ورد فى نفس هذا الجزء ص ٢٦٧ مايأتى : وفى أعلاه ثلاث شمسيات تسمى رمانات

« ويتبين لنا مدى ثروة مصر فى ذلك الوقت من وصف الكسوة التى أمر « المعز » بعملها للكعبة ، كما يبين لنا هذا أيضا كيف نافست مصر بغداد ، بل كيف تفوقت عليها وعلى غيرها من المراكز الاسلامية . ففى يوم عرفة أمر المعز بنصب الكسوة التى اتخذها للكعبة على الايوان الذى جعله لعقد الجلسات الرسمية

وكانت هذه الكسوة مربعة الشكل من ديباج أحمر ، وسعتها ١٤٤ شبراً ، وكانت فى حافاتها ١٢ هلالا ذهبياً ، فى كل هلال أترجة ذهبية ، وفى داخل كل منها ٥٠ درة تشبه بيض الحمام فى الكبر ، كما كان فيها الياقوت الأحمر والأصفر والأزرق .

وقد نقش فى حافاتها الآيات التى وردت فى الحج بحروف الزمرد الأخضر وزينت هذه الكتابة بالجواهر الثمينة .

وكانت هذه الكسوة معطرة بمسحوق المسك ، وكانت موضوعة فى القصر بحيث يراها جميع الناس من داخل القصر أو من خارجه . اه

***

وقد قال حضرة الأستاذ المؤلف ماملخصه : إن هذه الشمسية هى كسوة الكعبة ، وإنها مربعة الشكل وسعتها ١٤٤ شبرا . وإن لفظة « شمسية » التى

وفى كتاب « هست » المسمى مراكش وفاس ص ٢٦٥ جاء لفظ شمسة ويراد بها النافذة

(٢) مظلة : فقد جاء فى تاريخ ابن خلدون أن الخليفة خرج من خيمته وعليه الشمسية ، وهنا أقول : أن « كترمير » استعمل فى هذا الموضوع لفظ parasol ومعنى هذا المظلة الخاصة بالسيدات ، لكنى أفضل استعمال لفظ ambrella الدال على المظلات التى يستعملها الرجال ، لأنها أكبر وأصلح لاستعمال الخليفة .

(٣) الكسوة أو الستور ، فقد جاء ذلك فى المقريزى فى خططه (نقلا عن ابن ميسر فى تاريخ مصر ص ٤٤) ، وعن الأول أخذ « كترمير » فانا نجد فى المقريزى أن المعز أمر بنصب الشمسية (يراد بها هنا كما قدمنا الكسوة التى معناها الستر التى

استعملها المقريزى يريد بها طبعاً الستور التى كانت تكسى الكعبة بها .

وقال نقلا عن « كترمير » إن لفظة « شمسية » تطلق على نافذة مربعة فى أعلى الحوائط ، كما قال « ابن بطوطة » فى رحلته عن جامع دمشق ، وكما جاء فى نفح الطيب عن جامع قرطبة ؛ وعن جامع مراكش الخ .

فاذا علم الانسان أن مقاس أضلاع الكعبة التى تكسى بالديباج هى ٩٫٩٢ م عن الضلع الشمالى ، و١٠٫٢٥ م عن الضلع الجنوبى ، و١١٫٨٨ م عن الضلع الشرقى الذى فيه الباب ، و١٢٫١٥ م عن الضلع الغربى ، كما هو وارد فى صفحة ٧٩ من كتابنا هذا ، ومجموع أطوالها هو ٤٤٫٢٠ متراً .

وإذا راجع ما كتبه المقريزى من أن سعة الشمسية ١٢ شبرا فى ١٢ شبرا ومقاس الشبر هو ٠٫٢٣ س م تقريبا ، فتكون ١٢ شبرا تساوى ٢٫٧٦ م مع أن الكسوة لابد وأن يكون مجموع طولها ٤٤٫٢٠ م

وإذا أنعمنا النظر فيما قاله المقريزى أيضا من أن بدورها ١٢ هلالا ذهبا . . . وفى دورها كتابة آيات قرآنية ، نجد أن هذه الشمسية مستديرة ، أى نصف كرة كما هى الحال فى الشمسيات الموجودة الآن بين ظهرانينا ، وهى المظلة .

أما كون الشمسية هى مايوضع فى نافذة ، كما ورد عن جامعى قرطبة ومراكش ، فغير معقول أن يكون الشباك مكلل بالذهب والجواهر ، ويكون منسوجاً من الحرير ! ! . .

على أن ماورد فى نفح الطيب يفهم منه أن الشمسية مكوَّرة كرمّانة . وهذا نصه : « . . . وذكر أن صومعة قرطبة . . . وفى أعلى ذروتها (أى الصومعة) ثلاث شمسيات ، ويسمونها « رمانة » ملصقة فى السفود البارز فى أعلاها من النحاس الثنتان منها ذهب ابريز ، والثالثة وسطى بينهما من فضة

عملها للكعبة على إيوان القصر) أنظر ترجمة « كترمير » لكتاب السلوك للمقريزى المجلد الثانى ، الجزء الأول ص ٢٨٠ و ٢٨١ اه من التعليقات

اكسير ، وفوقها سوسنة من ذهب مسدسة فوقها رمانة ذهب صغيرة في طرف الزج البارز بأعلى الجو »

« .. وفيه (أى فى جامع مراكش(١))من شمسيات الزجاج ودرجات المنبر والمقصورة مالو عمل فى السنين العديدة لاستغرب تمامه »

وقد سبق أن قلنا أن « المتوكل على الله »أرسل بشمسية من ذهب مكللة بالدر والياقوت والزبرجد ، تعلق بسلسلة من الذهب فى وجه البيت فى كل موسم

وكذلك أرسل الخليفة « المعتضد » فى سنة ٢٩٤ إلى الكعبة شمسة تحوى جوهراً نفيسا .

وجاء فى كتاب « اتعاظ الحنفاء للمقريزى بعد أن تكلم على الشمسية التى نصبها المعز (٢) فى يوم عرفة سنة ٣٦٢ مانصه : أول من عمل الشمسية للكعبة أمير المؤمنين « جعفر المتوكل على الله » فبعث بسلسلة من ذهب كانت تعلق مع الياقوتة التى بعثها المأمون ، وصارت تعلق كل سنة فى وجه الكعبة ، وكان يؤتى بالسلسلة فى كل موسم وفيها شمسية مكللة بالدر والياقوت والجوهر قيمتها شىء كثير ، فيتقدم بها قائد يبعث به من العراق ، فتدفع إلى حجبة الكعبة ، ويشهد عليهم بقيدها ، فيعلقونها يوم سادس الثمان ، فتكون على الكعبة ، ثم تنزع يوم التروية . اهـ ص ٩٣

---

(١) ابتدىء العمل فيه فى ربيع الآخر سنة ٥٥٣ وانتهى فى منتصف شعبان من العام .

(٢) بلغ المعز لدين الله » وهو بالمغرب أمر الحرب بين بنى حسن وبنى جعفر ابن أبى طالب ، وانه قتل من بنى حسن أكثر مما قتل بنو حسن من بنى جعفر ، فأنفذ مالا ورجالا سرا سعوا بين الطائفتين حتى اصطلحوا وتحملوا الحالات عنهما وكان فاضل القتلى لبنى حسن عند بنى جعفر ٧٠ قتيلا . فأدى القوم ذلك اليهم ، وعقدوا بينهم فى المسجد الحرام صلحا وتحملوا دياتهم فى مال المعز . وذلك فى سنة

وقال ايضا : وغدا المعز لصلاة عيد النحر فى عساكره ، وانصرف فى زيه . فلما وصل إلى القصر أذن للناس عامة فدخلوا والشمسية منصوبة على حالها فلم يبق أحد حتى دخل من أهل مصر والشام والعراق . فذكر أهل العراق وأهل خراسان ومن يواصل الحج أنهم لم يروا قط مثل هذه الشمسية

وذكر أصحاب الجوهر ووجوه التجار أنه لا يثمن مافيها ، وأن شمسية بنى العباس كان أكثرها مصنوعا وشبها ، وأن مساحتها مثل ربع هذه .

وكذلك كانت شمسية « كافور » التى عملها لمولاه « أونوجور » ابن « الاخشيد » ، وكان يسير بها إلى الحرم « جعفر بن محمد الموسوى » ثم ابنه « أبو الحسين » ثم بعده ابنه « مسلم » ثم «أبو تراب» بعد أخيه، إلى أن أخذها القائد « جوهر » من أبى تراب . اه ص ٩٤

ويؤخذ مما تقدم أن لفظة « شمسية » أو « شمسة » هى الشمسية المعروفة بيننا وليست كسوة الكعبة .

وكما أن الشمسية أو الشمسة استعملت للنوافذ فى بلاد المغرب ، فقد استعملت بمصر لفظة « قمرية » بدلا عن « شمسية » لرؤية ضوء القمر منها ليلا .

وقد كانت النوافذ العليا ذات الحنايا المكندجة بالجوامع القديمة تغشى بشبابيك مفرغة من الجص يرى منها ضوء الشمس نهارا والقمر ليلا كما فى جامعى عمرو بن العاص وابن طولون مثلا

وكان يطلق على كل منها لفظة « حنية مكندجة » ، قال « ابن دقاق »

---

٣٤٨ ، فصار ذلك جيلا عند بنى حسن للمعز

فلما دخل « جوهر » مصر بادر « حسن بن جعفر » الحسنى فملك مكة ، ودعا للمعز ، وكتب الى جوهر بذلك . فبعث إلى المعز بالخبر ، فأنفذ من المغرب اليه بتقليده الحرم وأعماله . اه ٦٥ اتعاظ الحنفا .

نقلا عن « ابن المتوج » المتوفى فى سنة ٧٣٠ بخصوص النوافذ العليا التى بجامع عمرو بن العاص بمدينة الفسطاط مانصه :

« والحنايا المكندجة التى فى أعلى جدر الجامع عدتها ٧٨ حنية ، وبعد أن أتى على ترتيبها فى الجدر قال : وفى كل حنية من هذه الحنايا عمودان — ص ٦١ ح ٤

أقول : وأصل هذه اللفظة كما ذكر لى صديقى الأستاذ محمود عكوش افندى مترجم إدارة لجنة حفظ الآثار العربية سابقاً : « كِنْدِجِي . وهى فارسية ، ومعناها نقش أو حفر ، وهى تقابل فى الفرنسية لفظة ArChivolte التى تعنى الزخرفة المعمارية التى فى باطن العقود »

ويقال لها فى التركية « كمربند » راجع كتاب صنعت قاموسى لجلال أسعد

وقد طال بى الكلام فأقف عند هذا الحدخشية الملل ، فان كنت قد أصبت الحقيقة فالحمد لله على ذلك ، وإن أخطأت فالعصمة لا تكون إلا لله وحده

***

وبعد سنة ٤٢٠ أهدى إلى الكعبة صاحب « عمان » قناديل ومحاريب مبنية ، زنة المحراب أزيد من قنطار ، وقد سمرت المحاريب فى الكعبة مما يلى بابها .

وبعث إليها الملك الظاهر « بيبرس البند قدارى » قفلا ومفتاحا وبعث « على شاه » وزير أبى سعيد ملك التتر سنة ٧١٨ هـ بحلقتين من الذهب مرصعتين باللؤلؤ البلخش (١) كل حلقة زنتها ١٠٠٠ مثقال ، وفى كل

(١) البلخش من توابع الياقوت فى القيمة ، وهو دونه فى الشرف ، وأنواعه ثلاثة احمر يسمى المعقرب ، واخضر زبرجدى ، واصفر ورسى ، والأحمر هو اجودها ويوجد البلخش فى جزيرة « سيلان » — راجع نخبة الدهر لشيخ الربوة

حلقة ٦ لؤلؤات فاخرات ، وبينها ٦ قطع بلخش فاخر ، وقد علقتا زمنا يسيراً ، ثم رفعتا ، وأخذهما أمير مكة « رميثة ابن أبي نمي » (١)

وأهدى اليها السلطان شيخ « أويس » صاحب بغداد ، قنديلين ذهباً وآخرين فضة ، وذلك في حدود عشر السبعين والسبعمائة فعلقت في الكعبة قليلا ، ثم أخذها أمير مكة « عجلان بن رميثة » (٢)

وقال الفاسي : وأهدى الناس الى الكعبة بعد ذلك قناديل كثيرة، وليس فيها الآن (سنة ٨١٢) من تلك الهدايا الفاخرة سوى ١٦ قنديلا هي : عدد ٣ فضة ، وعدد ١ ذهب وعدد ١ بلور ، وعدد ٢ نحاس ، وعدد ٩ زجاج حلبي.

وكانت شيوخ سدنة البيت الشريف، اذا احتاجوا اختلسوا منها ما يسدون به خللهم ، ويدفع به فقرهم واحتياجهم (٣)

قال الحنفي . والبيت الشريف الآن في غاية الصون ، وقد علقت في أيام

وفي خريدة العجائب : انه حجر صلب شفاف كالياقوت في جميع أحواله ومنافعه

(١) ولي أمارة مكة سنة ٧٠١ هـ ومكث طويلا حتى سنة ٧٤٥

(٢) ولي أمارة مكة سنة ٧٤٥ ومكث الى سنة ٧٧٧

(٣) قال القطب الحنفي : أدركنا في أيام الصبا . وقد خفت القناديل . من شيوخ الكعبة من كان يتهم بذلك . بل اخبرني نجار أنه عمل لأحدهم مخطاركامن الخشب مؤلفا من عدة أعواد . طول كل عود نحو ذراع . تركب فيطول ثم ينكل ويحمل في الكم ، فاذا دخل الشيخ يوم فتح الكعبة ابتدأ فدخل وحده ، كما هي عادة مشايخ الكعبة ، وركب ذلك المحط ، ونزل قنديلا ووضعه في كمه الواسع وفك تلك الأعواد ، ثم أذن للناس بالدخول إلى البيت ، وما كان يحمله على ذلك غير فقره واحتياجه ، تجاوز الله عنه

وافتقد مرة أمير من أمراء جدة قنديلا كان علقه في البيت قريبا ، فسأل الشيخ عن ذلك وأراد اهانته ، فلم يقدر ، وتكلم عنه الناس وكان الشيخ يقول . المحافظة

الشيخ الحالى قناديل كثيرة ، أهداها الملوك إلى الكعبة ، وهى محفوظة معلومة عند الناس ، باقية يرونها فى السقف و أوقات فتح الكعبة

وقد وصل فى سنة ٩٨٤ من الباب العالى ثلاثة قناديل من الذهب ، مرصعة بالجواهر ، ليعلق اثنان منها فى سقف البيت ، والثالث يوضع فى الحجرة الشريفة النبوية تجاه الوجه الشريف النبوى

أما هذه الهدايا والتعاليق السالفة الذكر فبعضها أخذ أثناء الفتن بمكة (١) وصرف فى الحوادث ، والبعض الآخر باق للآن .

قال الأزرقى : ولا يجوز أخذ شىء من حلية الكعبة لا للحاجة ، ولا للتبرك لأن ما جعل للكعبة وسبل لها يجرى مجرى الأوقاف ، ولا يجوز تغييرها عن وجوهها . وفيه تعظيم الاسلام وإرهاب الأعداء .

وقد كانت أيدى السلاطين والأمراء والملوك لا تقف فى أى زمن عن تقديم الهدايا النفيسة إلى بيت الله الحرام ، كما كانت يد الأشقياء لا تقف عن التطاول إليها ، سواء فى ذلك حجبتها كما سلف ذكره أو غيرهم .

على بنية الانسان أوجب من المحافظة على قناديل معلقة فى الكعبة ، لا ينفعها تعليقها ولا يضرها فقدها ، وقد وصلنا الى حد المخمصة ، فعذر فى ذلك إن وقع فعله منا .

(١) ظهر اسماعيل بن يوسف بن ابراهيم الحسنى ثائراً بمكة فى سنة ٢٥١ فهرب جعفر بن الفضل ، والى مكة ، فنهب اسماعيل منزله ومنزل أصحابه . وقتل الجند وجماعة من أهل مكة ، وأخذ ما كان حمل لاصلاح العين من المال ، ، وما كان فى الكعبة وفى خزائنها من الذهب والفضة والطيب ، وكسوة الكعبة ، وأخذ من الناس نحواً من ٢٠٠ الف دينار ، ونهب مكة ، وأحرق بعضها ، وحاصر أهلها حتى ماتوا جوعا وعطشا . ثم رحل عن مكة بعد مقامه بها ٥٧ يوما . وعاد فى الموسم فى يوم عرفة فقتل نحوا من ١١٠٠ من الحاج وسلب الناس وهربوا إلى مكة ولم يقفوا بعرفة ليلا ولا نهاراً ، بل وقف اسماعيل وصحبه وحدهم : — الطبرى ج ١١

وقال السبكي : إذا كان الاهداء إلى الحرم ، أو إلى مكة ، فيصرف مافى الكنز من الهدايا إلى فقراء الحرم .

أما إذا كان للكعبة نفسها فلا يصرف إلا إليها ، كان تعرض لها عمارة فحينئذ ينظر فان كانت تلك الأموال قد أرصدت لذلك صرفت فيه ، وإلا فيختص بها الوجه الذى أرصد له . فالمرصد للبخور مثلا لا يصرف للسترة .

راجع وفاء الوفاء ٤٢٣

ونقل البخارى عن أبى وائل قال : جلست مع « شيبة » على الكرسى فى الكعبة فقال : لقد جلس هذا المجلس « عمر » رضى الله عنه ، فقال : لقد هممت أن لا أدع فيها صفراء ولا بيضاء إلا قسمته . قلت : إن صاحبيك لم يفعلا . قال : هما المرآن أقتدى بهما . اه

قال ابن ظهيرة : وكان « عمر » رضى الله عنه رأى حينئذ أن ماجعل فى الكعبة يجرى مجرى الوقف عليها ، فلا يجوز تغييره ، أو رأى ترك ذلك تورعا حين أخبر أن صاحبيه تركاه مع رؤيته جواز انفاقه فى سبيل الله . لأن صاحبيه إنما تركاه للعذر الذى تضمنه حديث « عائشة » رضى الله عنها . اه

وقال الحافظ ابن حجر : يحتمل أن يكون تركه صلى الله عليه وسلم لذلك رعاية لقلوب قريش ، كما ترك بناء الكعبة على قواعد بناء إبراهيم ، ويؤيده ما وقع عند مسلم فى بعض طرق الحديث « ولأنفقت كنز الكعبة فى سبيل الله ، ولجعلت بابها بالأرض » وهذا التعليل هو المعتمد عليه ، فانفاقه جائز كما جاز لابن الزبير بناؤها على قواعد ابراهيم ، لزوال سبب الامتناع اه

وقال الأزرقى : إن النبى صلى الله عليه وسلم وجد فى الجب الذى فى الكعبة ٧٠ ألف أوقية من ذهب مما كان يهدى للبيت ، وإن عليا ابن أبى طالب رضى الله عنه قال : يارسول الله لو استعنت بهذا المال على حربك ؟ فلم يحركه ، ثم ذكر لأبى بكر رضى الله عنه فلم يحركه .

وقال ايضاً : إن الحسين بن الحسن العلوى عمد إلى خزانة الكعبة فى سنة ٢٠٠ فأخذ مما فيها مالا عظيماً ، وقال : ماتصنع الكعبة بهذا المال ، نحن أحق به نستعين به على حربنا (فى الفتنة التى كانت قائمة بمكة وقتها) اه

وما يهدى أو ينذر إلى الكعبة لايصرف منه شىء إلا فيما يختص بها من عمارة مثلا ، ويمنع صرفه إلى الفقراء والمساكين . كما نبه عليه الزركشى الشافعى .

فاذا نذر شخص شمعا يشعله فيها ، أو زيتا ونحوه وضعه فى مصابيحها ، وإن كان لايستعمل فيها يبع وصرف الثمن فى مصالحها ، كما صرح به الماوردى .

وقال المرحوم ابراهيم رفعت باشا فى « مرآة الحرمين » : « إن إنفاق أموال المسلمين العامة فى هذه السبل يأباه الدين ، لأنه من الاسراف الممقوت وخير لنا أن ننفق هذه الأموال فى مصالح المسلمين العامة ، وإن احترامنا لبيت الله الحرام لايحول دون احترام الدين وتعليماته وإرشاداته ، وليس من الدين فى شىء أن نعطل جزءاً من أموال المسلمين عن استثماره وإنفاقه فيما يعود بنفع حقيقى على المسلمين ، ولعلك محتج علينا بما فعله « عمر » رضى الله عنه من إرسال الهلالين اللذين أرسلا إليه بعد فتح مدائن كسرى ، وإنا مع عدم قطعنا بصحة النسبة إليه لانرى فيه حجة لمعارض ، لاحتمال أن يكون « عمر » أراد به إلهاب الحمية فى نفوس المسلمين ، واستنهاضهم إلى الجهاد حيث يرون فى الهلالين ثل عروش الأكاسرة ، وتذليل ملكهم لعز الاسلام والظفر بما ادخروا وا كتنزوا ، فعسى أن يوجه الملوك هممهم وأموالهم إلى الصالح النافع ، ويأخذوا بأنفسهم عما لايفيد ولا يجدى »

***

وللمناسبة فقد ذكر الجبرتى فى حوادث سنة ١٢٢٣ ما نصه :

« ومنها انقطاع الحج الشامى والمصرى معتلين بمنع الوهابى الناس عن الحج

والحال ليس كذلك ، فانه لم يمنع أحداً يأتى إلى الحج على الطريقة المشروعة ؛ وإنما يمنع من يأتى بخلاف ذلك من البدع التى لا يجيزها الشرع ، مثل المحمل والطبل والزمر وحمل الأسلحة ، وقد وصل طائفة من حجاج المغاربة وحجوا ورجعوا فى هذا العام وما قبله ولم يتعرض لهم أحد بشىء .

«ولما امتنعت قوافل الحج المصرى والشامى وانقطع عن أهل المدينة ومكة ما كان يصل اليهم من الصدقات والعلائف والصرر التى كانوا يتعيشون منها خرجوا من أوطانهم بأسرهم ، ولم يمكث إلا الذى ليس له إيراد من ذلك وأتوا الى مصر والشام ، ومنهم من ذهب الى اسلامبول يتشكون من الوهابى ويستغيثون بالدولة فى خلاص الحرمين ، لتعود لهم الحالة التى كانوا عليها من اجراء الأرزاق ، واتصال الصلات والنيابات والخدم فى الوظائف التى باسماء رجال الدولة كالفراشة والكناسة ونحو ذلك

«ويذكرون أن الوهابى استولى على ما كان بالحجرة الشريفة من الذخائر والجواهر ونقلها وأخذها ، فيرون أن أخذه لذلك من الكبائر العظام . وهذه الأشياء أرسلها ووضعها سخاف العقول من الأغنياء والملوك والسلاطين الأعاجم ، وغيرهم ، إما حرصا على الدنيا ، وكراهة أن يأخذها من يأتى بعدهم ، أو لنوائب الزمان ، فتكون مدخرة ومحفوظة لوقت الاحتياج اليها فيستعان بها على الجهاد ودفع الأعداء فلما تقادمت عليها الأزمنة ، وتوالت عليها الأعوام الكثيرة وهى فى الزيادة ارتصدت معنى لا حقيقة وارتسم فى الأذهان حرمة تناولها وانها صارت مالا للنبى صلى الله عليه وسلم فلا يجوز لأحد أخذها ولا انفاقها ، والنبى صلى الله عليه وسلم منزه عن ذلك ، ولم يدخر شيئا من عرض الدنيا فى حياته ، وقد أعطاه الله الشرف الأعلى وهو الدعوة الى الله تعالى والنبوة والكتاب ، واختار أن يكون نبيا عبداً ، ولم يختر أن يكون نبياً ملكا

« وثبت فى الصحيحين وغيرهما أنه قال : اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً

وروى الترمذى بسنده عن أبى أمامة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عيه وسلم قال : عرض على ربى ليجعل لى بطحاء مكة ذهباً ، قلت : لا يارب ، ولكن أشبع يوما ، وأجوع يوما ، أو قال ثلاثا أو نحو ذلك . فاذا جعت تضرعت إليك وذكرتك ، واذا شبعت شكرتك وحمدتك

ثم إن كانوا وضعوا هذه الذخائر والجواهر صدقة على الرسول ومحبة فيه فهو فاسد لقول النبى صلى الله عيه وسلم ان الصدقة لا تنبغى لآل محمد ، إنما هى أوساخ الناس . ومنع بنى هاشم من تناول الصدقة وحرمها عليهم

« والمراد الانتفاع فى حال الحياة لا بعدها ، فان المال أوجده المولى سبحانه وتعالى من أمور الدنيا لا من أمور الآخرة . قال تعالى : « إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ » وهو من جملة السبعة التى ذكرها الله عز وجل فى كتابه العزيز فى قوله تعالى : « زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ »

« فهذه السبعة بها تكون الخبائث والقبائح ، وليست هى فى نفسها أمورا مذمومة ، بل قد تكون معينة على الآخرة إذا صرفت فى محلها.

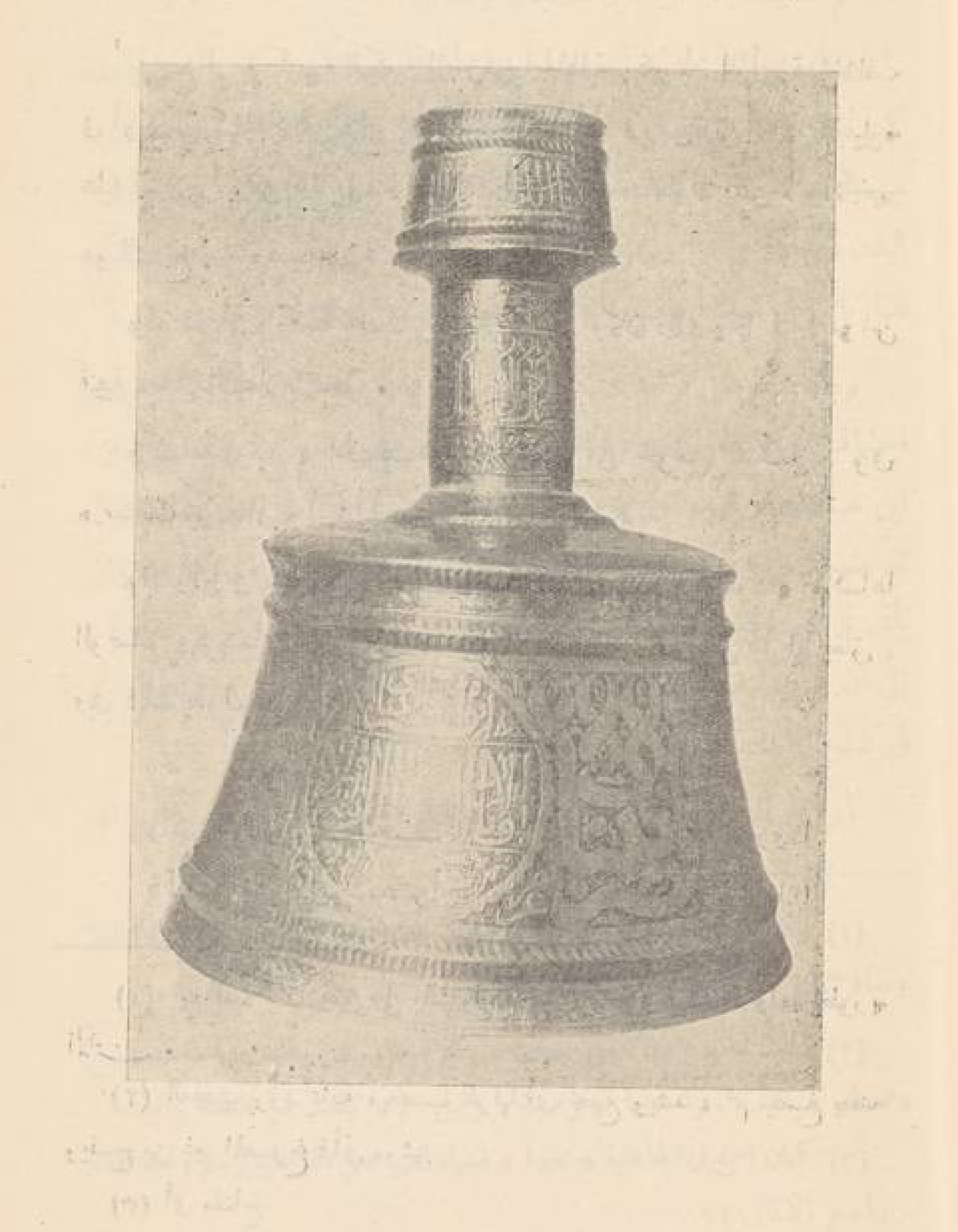
« وعن مطرف عن أبيه قال : أتيت النبى صلى الله عيه وسلم وهو يقرأ « أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ » قال : يقول ابن آدم مالى مالى فهل لك يا ابن آدم من مالك الا ما أكلت فافنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت ، إلى غير ذلك . ومحبة الرسول بتصديقه واتباع شريعته وسننه ، لا بمخالفة أوامره وكنز المال بحجرته وحرمان مستحقيه من الفقراء والمساكين ، وباقى الأصناف الثمانية . وان قال المدخر اكنزها لنوائب الزمان ليستعان بها على مجاهدة الكفار والمشركين عند الحاجة

اليها - قلنا : قد رأينا شدة احتياج ملوك زماننا واضطرارهم فى مصالحات المتغلبين عليهم من الافرنج ، وخلو خزائنهم من الأموال التى أفنوها بسوء تدبيرهم وتفاخرهم ورفاهيتهم ، فيصالحون المتغلبين بالمقادير العظيمة بكفالة أحد الفرق من الافرنج المسالمين لهم ، واحتالوا على تحصيل المـال من رعاياهم بزيادة المكوس والمصادرات والطلبات والاستيلاء على الأموال بغير حق حتى أفقروا تجارهم ورعاياهم ، ولم يأخذوا من هذه المدخرات شيئاً ، بل ربما كان عندهم أو عند خونداتهم جوهر نفيس من بقايا المدخرات ، فيرسلونه هدية إلى الحجرة ولا ينتفعون به فى مهماتهم ، فضلا عن إعطائه لمستحقه من المحتاجين ، وإذا صار فى ذلك المكان لا ينتفع به أحد إلا مايختلسه العبيد الخصيون الذين يقال لهم « أغوات الحرم » والفقراء من أولاد الرسول ، وأهل العلم ، والمحتاجون وأبناء السبيل ، يموتون جوعاً

وهـذه الذخائر محجور عليها ، وممنوعون منها الى أن حضر الوهابى واستولى على المدينة ، وأخذ تلك الذخائر . » اه .

وبهذه المناسبة نقول : فى سنة ١٩١٤ ميلادية اشترت دار الآثار العربية بمصر من أحد التجار المسيحيين شمعدانا من نحاس أصفر كان بالحجرة الشريفة النبوية بمبلغ مائة جنيه مصرى ، وأودعته فى الدار تحت رقم ٤٠٧٢ قطر قاعدته ٣٧ ر ٠ متر وارتفاعه ٤٨٥ ر ٠ متر منقوش على رقبته كتابة باسم السلطان قايتباى ، يفصلها دائرتان فيهما « سمة السلطان » وعلى سطح جسمه كتابة نصها : (هذا ما أوقف على الحجرة النبوية السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباى عز نصره بتاريخ سنة سبع وثمانين وثمان مائه فى شهر رمضان المعظم قدره) يفصلها دائرتان أيضا فيهما « سمة السلطان » ونصها : « عز لمولانا السلطان الملك الأشرف . أبو النصر قايتباى . عز نصره »

وبرأس الشمعدان كتابة نصها · « عز لمولانا السلطان الملك العادل المجاهد سلطان الأسلام والمسلمين الملك الأشرف أبو النصر قايتباى » كما يرى فى الصورة الآتية التى تفضلت دار الآثار العربية فسمحت لى بأخذها خدمة للعلم ، فلها منى جزيل الشكر ·



كسوة الكعبة

فى الجاهلية

يرجع تاريخ كسوة الكعبة إلى زمن الجاهلية . غير أن الرأى قد اختلف فى أول من كساها . فمن قائل إنه « عدنان بن أدد » ومن قائل إنه « اسماعيل » عليه السلام ، ومن قائل إنه « تبّع(۱) الحميرى » أحد ملوك اليمن ، والأخير هو الشائع .

وقد غطيت الكعبة بالكسوة تكريما لها . وكان ذلك ، كما يذكر « ابن قتيبة » قبل الاسلام بنحو ۹۰۰ سنة .

وكساها « تبع » بالخصف ، وهى حصر من خوص النخل . وفى « مسالك الأبصار » أنها ثياب غلاظ .

وقد رأى فى منامه أن يكسوها ، فكساها الأنطاع « الجلود » ثم كساها الوصائل وهى ثياب حبرة من عصب(۲) اليمن ، بعد أن جعل لها باباً يغلق ، وفى ذلك يقول مفتخراً :

. . . . . .

وكسونا البيت الذى حـــرم الله ملاء معضداً وبرودا
فاقمنا به من الشهر عشراً وجعلنا لبابه إقليدا (۳)

---

(۱) تبع لقب كان يطلق على ملك ملوك حمير ، وهو فى قوة لفظ « امبراطور » الآن .

(۲) العصب برود يمانية ، يعصب غزلها أى يجمع ويشد ، ثم يصبغ بعضه وينسج من غير المصبوغ فيأتى موشى

(۳) أى مفتاح

ثم طفنا بالبيت سبعا وسبعا   وسجدنا عند المقام سجودا
ونحرنا بالشعب ستة ألف   فترى الناس نحوهن ورودا
ثم سرنا عنه نؤم سهيلا   فرفعنا لواءنا معقـــودا
ثم كسيت بالمعافر (١) والملاء، والوصائل (٢)

وعن ابن أبي مليكة أنه قال : بلغني أن الكعبة كانت تكسى في الجاهلية كسى شتى . كانت البدن تجلَّل الحبر ، والبرود ، والأكسية ، وغير ذلك ، من عصب اليمن ، وكان يهدى للكعبة هدايا من كسى شتى سوى جلال البدن : حبر وخز وأنماط ، فتكسى منه الكعبة ، ويجعل ما بقى في خزائنها . فاذا بَلِيَ منها شيء أخلف عليها مكانه ثوب آخر ، ولا ينزع مما عليها شيء .

وكانت قريش تَرَافَدُ في كسوة البيت ، فيضربون ذلك على القبائل بقدر احتمالها . وذلك من عهد « قُصَيّ بن كلاب » حتى جاء « أبو ربيعة بن المغيرة ابن عبد الله بن عمرو بن مخزوم » (٣) وكان مثريا ذا تجارة واسعة ، فقال لقريش : « أنا أكسو الكعبة وحدى سنة ، وجميع قريش سنة » وظل يأتي بالحبر الجيدة من الجند (أرض السكاسك باليمن) فيكسو الكعبة ، إلى أن مات . فكانت قريش تلقبه بـ « العدل » لأنه عدل قريشاً وحده في كسوة البيت الشريف ، ويقال لبنيه « بنو العدل »

وروى الواقدي عن « النوار بنت مالك » أم زيد بن ثابت رضي الله

---

(١) وهي ثياب تنسج في بلد نزلت فيه « معافر بن أدّ » ؛ والنسبة اليها « معافرّية » . راجع أساس البلاغة

(٢) الملاء ثياب حِبرَة من عصب . والوصائل : هي ثياب موصلة من صنع « همدان » باليمن ، واحدتها « وصيلة » وقيل : إنها ثياب حمر مخططة يمانية .

(٣) كان اسمه في الجاهلية « بجيرا » فسماه النبي صلى الله عليه وسلم « عبد الله » - راجع الأغاني ٦٤

عنا أنها قالت : رأيت قبل ان ألد زيدا على الكعبة مطارف خز أخضر ، وأصفر ، وكرار (١) وأكسية من أكسية الأعراب ، وشقاق شعر

وعن « عائشة » أم المؤمنين رضى الله عنها قالت : كانوا يصومون عاشوراء قبل أن يفرض رمضان ، وكان يوما تستر فيه الكعبة — راجع البخارى ١٨٢

وعن ابن جريج أن الكعبة كانت تكسى يوم عاشوراء اذا ذهب آخر الحاج ، حتى كان بنو هاشم . فكانوا يعلقون عليها القميص يوم التروية من الديباج لكى يرى الناس ذلك عليها بهاء وجمالا ، فاذا كان يوم عاشوراء علقوا عليها الازار .

وعن عمر بن الحكم السلمى قال : نذرت أمى بدنة تنحرها عند البيت ، وجللتها شقتين من شعر ووبر ، فنحرت البدنة وسترت الكعبة بالشقتين ، والنبى صلى الله عليه وسلم يومئذ بمكة لم يهاجر ، فنظرت إلى البيت يومئذ وعليه كسى شتى من وصائل وأنطاع وكرار وخز ونمارق عراقية — أى ميسانية — كل هذا قد رأيته عليه

وذكر جماعة منهم « الدارقطنى » أن « نُتَيْلَة بنت جناب (٢) » أم العباس بن عبد المطلب ، كانت قد أضلت العباس صغيرا فنذرت إن وجدته أن تكسو الكعبة الديباج .

---

(١) الكرار : الخيش الرقيق واحدها « كر »

(٢) وفى مرآة الحرمين : نبيلة بنت حباب ، وانها أضلت ابنها « خوارا » فى الاسلام فجعلت تنشد :

أضللته أبيض لوذعيا — لم يك لحلوبا ولا دعيا
أضللته أبيض غير خاف — للفتية الغر بنى مناف
ثم لعمرو منتهى الأضياف — سن لفهر سنة الايلاف
فى القر يوم القر والاصياف .

فى الاسلام

ولما جاء الاسلام ، كساها النبى صلى الله عليه وسلم الثياب اليمانية ، وكانت كسوتها على عهده الأنطاع والمسوح .

ثم كساها «عمر» و«عثمان» رضى الله عنهما القباطى(١) من بيت المال من مصر . وكان كل منهما يكتب إلى مصر لتحاك له فيها .

وقد وضع عليها «عثمان» كسوتين إحداهما فوق الأخرى ، وهو أول من فعل ذلك فى الاسلام .

وقد كساها سنة برودا يمانية ، أمر بعملها عامله على اليمن «يعلى بن منبه»

ويقال : إن أبا بكر الصديق رضى الله عنه كساها أيضا

ولم يذكر التاريخ شيئاً عن «على بن أبى طالب» كرم الله وجهه ، ولعل حروبه فى تمهيد أمر الدولة قد شغلته عن ذلك .

فى عصر بنى أمية

وقد كساها «معاوية بن أبى سفيان» الديباج(٢) مع القباطى ، أى كسوتين

---

(١) ذكرنا فى هامش صفحة ١٧٢ شيئا عن القباطى ، ونذكر هنا أن هذه التسمية بالقباطى ليس لاحتكار أقباط مصر لهذا النوع من النسيج ، أو لكونهم أول من حاكوه ، ولكنه اصطلاح اتفق عليه ، وتسمية من التسميات التى لا تعلل ، حيث كان يقال للقباطى يمنية أو شامية ، أو عراقية ، أو مصرية ، .

وكانت هذه التسمية قبل الاسلام بدليل أنها جاءت فى أشعار الجاهليين والمخضرمين — راجع الرحلة الحجازية

(٢) وقيل أول من كساها الديباج «يزيد بن معاوية بن أبى سفيان» وقيل «ابن الزبير» واعتمده «أبو هلال العسكرى» فى كتابه «الأوائل» . وقيل «الحجاج» وقيل «عبد الملك بن مروان» وقيل «خالد بن جعفر بن كلاب» أخذ لطيمة تحمل البز وأخذ فيها أنماطا فعلقها على الكعبة وقيل : ان نتيلة السالفة الذكر كست الكعبة الديباج

وكانت تكسى الديباج يوم عاشوراء ، وتكسى القباطى فى أواخر شهر رمضان

وكتب «شيبة بن عثمان الحجبىّ» لمعاوية : لو طرح عنها ما عليها من كسى الجاهلية ، فخفف عنها حتى لا يكون مما مسه المشركون شىء لنجاستهم ؟ فامره أن يجرد الكعبة مما عليها من كساو ويخلقها بالطيب ، ويلبسها ما جهزه اليها من ديباج وقباطى وحبرة (١) . ففعل . وقسم الثياب التى كانت عليها بين أهل مكة ، وكان ابن عباس رضى الله عنهما حاضراً فى المسجد الحرام وهم يجرّدونها فما أنكر ذلك ولا كرهه .

ثم صار ذلك عادة ، استمرت من ذلك الوقت .

وكانت الكعبة تلبس الديباج الأحمر يوم التروية ، ولا يخاط . ويترك الازار حتى يذهب الحاج ، لئلا يخرقونه ، فاذا كان يوم عاشوراء علقوا عليها الازار ، وأوصلوه بالقميص الديباج ، فلا يزال عليها إلى يوم ٢٧ رمضان فتكسى الكسوة الثانية وهى من القباطى .

وعن « عائشة » أم المؤمنين رضى الله عنها أنها قالت : كسوة البيت على الأمراء (٢)

وكانوا ينذرون كسوة الكعبة ، ويهدون إليها البدن عليها الحبرات ، فيبعث بالحبرات كسوة الى البيت .

وكان ابن عمر يكسو بدنه إذا أراد أن يحرم القباطىّ والحبر ، وفى رواية الأنماط ، فاذا كان يوم عرفة ألبسها إياها ، وإذا كان يوم النحر نزعها عنها ، ثم أرسل بها إلى « شيبة بن عثمان الحجبىّ » فناطها على الكعبة قبل أن تكسى .

---

(١) الحبرة مفرد حبر وهو ما كان من البرود مخططا وهو من ثياب اليمن ويقال له برد حبرة وبرد حبر ، على الوصف وعلى الاضافة .

(٢) ١٦٩ تاريخ مكة للأزرقى

ثم كساها « يزيد بن معاوية بن أبي سفيان » الديباج الخسرواني ، وكذلك فعل « ابن الزبير » فقد كان يبعث إلى أخيه « مصعب » ليرسل إليه الكسوة كل سنة .

وكساها به أيضاً « الحجاج بن يوسف الثقفي » ولعله فعل ذلك تكفيرا عما أتاه من رميها بالمنجنيق في قتاله « ابن الزبير » .

وكساها بالديباج أيضاً الخليفة « عبد الملك بن مروان » كان يبعث به من الشام فيمر به على المدينة فينشر يوماً في مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام ، على الأساطين في مؤخر المسجد ، ثم يطوى ويبعث به إلى مكة .

وقد كساها « هشام بن عبد الملك » ديباجا غليظاً ، وأغلب كسوة من كان قبله من متاع اليمن .

وقال الماوردي : وكساها بنو أمية في بعض أيامهم الحلل التي كانت على أهل « نجران » في جزيتهم ، والديباج من فوقها .

في عصر العباسيين

وفي سنة ١٥٩ أمر المهدي بصنع كسوة من القباطي للكعبة شاهدها الفاكهي وقال عنها : « ورأيت كسوة من قباطي مصر ، مكتوباً عليها بسم الله بركة من الله ، مما أمر به عبد الله المهدي محمد أمير المؤمنين أصلحه الله محمد بن سليمان أن يصنع في طراز تنيس كسوة الكعبة على يد الخطاب ابن مسلمة عامله سنة تسعة وخمسين ومائة » مقريزي ص ١٨١

وفي سنة ١٦٠ نزع « المهدي » الكسوة التي كانت على الكعبة ، وكساها كسوة جديدة . وذلك لأن حجبة الكعبة أنهوا إليه أنهم يخافون على الكعبة أن تهدم لكثرة ما عليها من الكسوة ، فأمر أن يكشف عنها ما عليها من الكسوة حتى بقيت مجردة ، ثم طلى البيت كله بالخلوق بالغالية والمسك والعنبر .

قال محمد بن اسماعيل بن ابراهيم الحجبي صعدنا على ظهر الكعبة بقوارير من الغالية فجعلنا نفرغها على جدران الكعبة من خارج من جوانبها كلها، وعبيد الكعبة قد تعلقوا بالبكرات التى تخاط عليها ثياب الكعبة، ويطلون بالغالية جدرانها من أسفلها إلى أعلاها. ثم أفرغ عليها ثلاث كسى من قباطى وخز وديباج.

وقسم المهدى فى هذه السنة بمكة فى أهلها مالا عظيما. قيل إنه ٣٠ ألف ألف درهم، منها دنانير كثيرة.

وقسم فى أهل المدينة كذلك، فذكر أنه نظر فيما قسم فى تلك السفرة فوجد ٣٠ ألف ألف درهم حملت معه ووصلت اليه من مصر ٣٠٠ ألف دينار ومن اليمن ٢٠٠ ألف دينار، فقسم ذلك كله، وفرق من الثياب ١٥٠ ألف ثوب، راجع الطبرى ج ٩

وقال الفاكهى: ورأيت كسوة من كسا المهدى مكتوبا عليها «بسم الله بركة من الله لعبد الله المهدى محمد أمير المؤمنين أطال الله بقاءه مما أمر به إسماعيل بن ابراهيم أن يصنع فى طراز تنيس على يد الحكم بن عبيدة سنة اثنين وستين ومائة.» — مقريزى ١٨١

وقال الفاكهى: ورأيت أيضا كسوة لهرون الرشيد من قباطى مصر مكتوب عليها «بسم الله بركة من الله للخليفة الرشيد عبدالله هرون أمير المؤمنين أكرمه الله مما أمر به الفضل بن الربيع أن يعمل فى طراز تونة سنة تسعين ومائة» ص ١٨١ مقريزى

وقال الفاكهى: ورأيت فيها كسوة من كسا أمير المؤمنين هرون الرشيد من قباطى مصر مكتوب عليها «بسم الله بركة من الله، لعبد الله «هرون» أمير المؤمنين، أطال الله بقاءه، مما أمر الفضل بن الربيع مولى أمير المؤمنين بصنعته فى طراز شطا كسوة الكعبة سنة إحدى وتسعين ومائة» ١٢٢٦ مقريزى

وقال الفاكهى أيضا : ورأيت كسوة مما يلى الركن الغربى يعنى من الكعبة مكتوبا عليها : «مما أمر به السرى ابن الحكم وعبد العزيز ابن الوزير الجروى بأمر الفضل بن سهل ذى الرياستين وطاهر بن الحسين سنة سبع وتسعين ومائة .

١٨١ مقريزى

ثم إن المأمون بن هرون الرشيد أمر أن تكسى الكعبة ثلاث مرات . فتكسى الديباج الأحمر يوم التروية ، والقباطى أول رجب . والديباج الأبيض فى ٢٧ رمضان . ابتدأه المأمون سنة ٢٠٦ حين قالوا له . الديباج الاحمر يتخرق قبل الكسوة الثانية ، فسال مبارك الطبرى مولاه وهو على بريد مكة وصوافيها عن أحسن ما تكون فيه الكعبة ؟ فقال له : فى الديباج الأبيض ، ففعله

وفى مرآة الحرمين : أمر أن لا يسدل عليها إلا كسوة واحدة.

وقال الفاكهى : ورأيت شقة من قباطى مصر فى وسطها إلا أنهم كتبوا فى أركان البيت بخط دقيق أسود « مما أمر به أمير المؤمنين المأمون سنة ست ومائتين »

١٨١ مقريزى

ثم رفع إلى المأمون أيضا أن إزار الديباج الأبيض يتخرق ويبلى فى أيام الحج من مس الحج قبـــل أن يخاط عليها إزار الديباج الأحمر فى عاشوراء ، فزادها إزارا من ديباج أبيض تكساه يوم التروية ، فيستر به ما تخرق من الازار الذى كسيته . إلى أن يخاط عليها إزار الديباج الأحمر فى العاشوراء .

وذكر الأزرقى عن جده : أن الكعبة كانت تكسى فى كل سنة كسوة ديباج يعنى أحمر ، وكسوة قباطى .

فاما الديباج فتكساه يوم التروية ، فيعلق القميص ويدلى ولا يخاط ، وإذا صدر الناس من « منى » خيط القميص وترك الازار حتى يذهب الحاج لئلا يخرقوه .

فاذا كان يوم عاشوراء علق عليها الإزار يوصل بالقميص ، وكأن المراد بالازار ما تدركه الأيدى فى الطواف ، وبالقميص ما فوق ذلك إلى أعلى الكعبة ، فلا تزال هذه الكسوة الديباج عليها حتى يوم ٢٧ من رمضان ، فتكسى القباطى القطن .

وفى سنة ٢٠٠ قدم مكة « حسين بن حسن الأفطس الطالبى » وملكها ودخل الكعبة وجردها من جميع الكسى ،

وأخذ جميع ما كان عليها ، وكساها ثوبين رقيقين من قز ، أحدهما أصفر والآخر أبيض . كان أبو السرايا بعث بهما اليها ، مكتوب عليهما : « بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين الأخيار ، أمر ابو السرايا الأصفر ابن الأصفر داعية آل محمد بعمل هذه الكسوة البيت الله الحرام ، وان تطرح عنها كسوة الظلمة من ولد العباس »

ثم أخذ أموالا كثيرة من أهل مكة وصادرهم وأبادهم .

ثم رفع الى « جعفر المتوكل على الله » فى سنة ٢٤٠ أن إزار الديباج الأحمر يبلى قبل هلال رجب من مس الناس وتمسحهم بالكعبة ، فزادها إزارين مع الازار الأول ، فأذال قميصها الديباج الأحمر وأسبله حتى بلغ الأرض ، ثم جعل الازار فوقه ، فى كل شهرين إزار

ثم نظر الحجبة فاذا الازار الثانى لا يحتاج إليه ، فوضع فى تابوت الكعبة ، وكتبوا إلى « المتوكل » أنه يكفى إزار واحد مع ما اذيل من قميصها ، فصار يبعث بازار واحد فتكسى به بعد ثلاثة أشهر ، ويكون الذيل ثلاثة أشهر .

ثم فى سنة ٢٤٣ أمر « المتوكل » باذالة القميص القباطى حتى بلغ الشاذروان الذى تحت الكعبة

قال الماوردى : ثم كسا « المتوكل » أساطينه الديباج : وقد عدت

الكساوى التى كسيت بها الكعبة من سنة ٢٠٠ الى سنة ٢٤٤ فاذا هى ١٧٠ ثوبا - راجع تاريخ مكة

ثم عادالخلفاء العباسيون ببغداد الى شعارهم الأسود ، فألبسوا الكعبة الديباج الأسود .

***

وقد حكى المؤيد صاحب حماه فى تاريخه أن الفاطميين خلفاء مصر فى إمارة أبى الحسن جعفر من السلمانيين على مكة فى سنة ٣٨١ كسوا الكعبة البياض — ٢٨١ ح ٤ صبح الاعشى

وقال المسبحى فى حوادث سنة ٣٨٤ : وفى ذى القعدة ورده يحيى بن اليمان» من «تنيس» و «دمياط» و «الفرما» بهديته وهى أسفاط وتخوت وصناديق مال وخيل وبغال وحمير وثلاث مظال وكسوتان للكعبة »

ص ١٨١ مقريزى

وفى سنة ٣٩٧ كسا « الحاكم بأمر الله » الكعبة القباطى البيض ، وبعث مالا لأهل الحرمين .

وفى سنة ٤٢٣ بعث الظاهر لاعزاز دين الله بكسوة الكعبة فكسيت.

وفى الفترة التى بين سنى ٤٣٧ — ٤٤٤ للهجرة ، عاين الكسوة التى على الكعبة « ناصرى خسرو » وكتب عنها فى رحلته فى سوريا وفلسطين وبلاد العرب التى كتبها باللغة الفارسية وترجمت إلى الفرنسية ، ماترجمته ملخصا « كانت الكعبة مضاءة باربع شبابيك موضوعة فى الزوايا الأربع ، ومغشاة بزجاج شفاف ، ليمنع المطر من التخلل إلى الكعبة .

والميزاب موجود فى منتصف الجنب البحرى وطوله ثلاث أذرع ، مغشى بكتابات ذهبية

أما الكسوة فكانت بيضاء مجزعة ، عليها شريطان بعرض ذراع وارتفاع

الكسوة بين الشريطين نحو عشرة أذرع ، والأجزاء الموجودة فوق وتحت هذه الاشرطة كان لها نفس المقاس ، وبهذا الوضع كانت تظهر الكعبة كأنها مقسمة إلى أقسام ثلاثة ، كل قسم حسب تقديرى الشخصى عشرة أذرع تقريبا

وعلى وجوه الكسوة الاربع كانت ترى محاريب منسوجة بالحرير الملون وعليها رسومات بالخيوط الذهبية .

وعلى كل وجهة ثلاث محاريب مزركشة ، والمحراب الأوسط هو الأكبر أما الاثنان الآخران المكتنفان له فمقاسهما أقل ، وعليه فقد كان عدد المحاريب المرسومة على الاجناب الأربعة اثنى عشر محرابا (١) اه

هذا وزخرفة الكسوة بالمحاريب قد بقيت مستمرة بعد « ناصرى خسرو » المذكور إلى سنة ٥٦١ حيث عاينها « أبو الحجاج يوسف بن محمد البلوى » مؤلف « كتاب ألف باء » وقد قال عنها ماذكرناه له فى صحيفة ١٨٣ من كتابنا هذا .

***

وفى سنة ٤٥٥ دخل « على بن محمد بن على » أبو كامل الصُّلَيْحى إلى مكة وملكها ، واستعمل الجميل مع أهلها ، وأمن الحاج فى أيامه ، وأظهر العدل والاحسان ، وطابت قلوب الناس له فأثنوا عليه خيراً ، ورخصت الأسعار وكان متواضعاً ، وكسا البيت الحرام بثياب بيض من الحرير الصينى ، وردحلى البيت إليه ، وكان « بنو حسن » قد أخذوها وحملوها إلى اليمن ، فابتاعها الصليحى منهم وأعادها . — راجع ابن الأثير والنجوم الزاهرة

وكساها « أبو النصر الاسترابادى » سنة ٤٦٦ ﻫ كسوة بيضاء من عمل الهند

---

(١) أرشدنى إلى هذه الرحلة جناب العالم الآثارى المحترم « الكابتن كرزول » أستاذ قسم العمارة الاسلامية بكلية الآداب بالجامعة المصرية ، وقال لى : إن فكرة تعدد المحاريب فى القباب الأثرية بمصر وسواها ، سواء أكانت فى الوجهات الخارجية ، أو فى وجهة واحدة من الداخل ، هى مأخوذة عن فكرة كسوة الكعبة . فله منى على هذه الملاحظة الغالية جزيل الشكر ، يشاركنى فيه عامة المسلمين

وفى السنة المذكورة ورد إلى مكة إنسان عجمى يعرف بسلار من جهة جلال الدولة ملكشاه ، ودخل وهو على بغلة بمركب ذهب ، وعلى رأسه عمامة سوداء ، وبين يديه الطبول والبوقات ، ومعه للبيت كسوة ديباج أصفر ، وعليها اسم « محمود بن سبكتكين » وهى من استعماله ، وكانت مودعة بنيسابور من عهد « محمود » المذكور عند إنسان يعرف بأبى القاسم الدهقان ، فأخذها الوزير نظام الملك منه وأنفذها مع المذكور . — النجوم الزاهرة

وكساها فى سنة ٥٣٢ الحبرات وغيرها الشيخ « أبو القاسم رامشت » صاحب الرباط المشهور بالمسجد الحرام

وكانت كسوته بثمانية عشر الف دينار مصرية على ما قال ابن الأثير وقيل بأربعة آلاف دينار . ٢٨٣ مرآة الحرمين

ثم إن الناصر لدين الله أبا العباس « أحمد » كسى الكعبة فى آخر أيامه الديباج الأسود وكانت تكسى الديباج الأبيض من زمن المأمون .

ص ٨٠ الأعلام

وكسيت فى زمنه أيضا كسوة خضراء ، ثم كسوة سوداء

قال الفاسى : وقد استمرت الكسوة السوداء إلى الآن (سنة ٨١٢) إلا أنه فى سنة ٦٤٣ هبت ريح شديدة قطعت الكسوة ، فكسيت ثيابا سوداء من القطن ، كساها بها « منصور بن ربيعة » شيخ الحرم

فى عصر المماليك البحرية والشراكسة

وفى سنة ٦٦٦ كسا الكعبة السلطان الظاهر « بيبرس البندقدارى » وعمل لبابها مفتاحاً ، وسير قافلة الحج من البر بدلا عن صحراء « عيذاب »

ولما حج فى سنة ٦٦٧ غسل الكعبة بيده بماء الورد. وقد رؤى بباب الكعبة محرما يأخذ بأيدى ضعفاء الرعية ليصعدوا. وعمل الستور الديباج للكعبة وللحجرة النبوية

وخطب كرد الجد « اسماعيل الواسطى » والسلطان حاضر، فقال فى الخطبة: « أيها السلطان إنك لن تدعى يوم القيامة يأيها السلطان لكن تدعى باسمك. وكل منهم يومئذ يسأل عن نفسه إلا أنت فانك تسأل عن رعاياك، فاجعل كبيرهم أباً وأوسطهم أخاً وصغيرهم ولداً. »

فاستعذب السلطان وعظه وأجزل عطاءه. ٢٢٥ - ٢ - ابن الوردى

وقال ابن فضل الله العمرى: .. وهى الآن تكسى فى العام مرة واحدة فى وقت الموسم. وتحمل اليها الكسوة من الخزانة السلطانية بمصر صحبة الركب، فيتولى ذلك أمراء الركب، ويحضرون بأنفسهم، فتكسى ويأخذ الأشراف وبنو شيبة الكسوة العتيقة ويقتسمونها، ويأخذون فى كل قطعة منها أوفر الأعراض، وتحمل إلى سائر البلاد للبركة.

وقال: وعهدى بصاحب اليمن يبعث إليها كسوة فتلبس تحت الكسوة المصرية، وهما سوداوان من الحرير الأسود بكتابة بيضاء فيها آيات جاءت فى القرآن فى ذكر الكعبة.

وقال: ولما حججت فى سنة ٧٣٨ صعدت أنا وأمراء الركب المصرى لتلبيس الكعبة الشريفة حتى كنا على سطحها، فرأيته مبلطاً بالمرمر والرخام الأبيض؛ ومن جوانبه جدر قصار فيها حلق لمرابط الستور، تجر فيها الكسوة بحبال، ثم تربط فى تلك الحلق.

وقال: وأنا أحمد الله إذ بيدى توليت خلع الكسوة العتيقة عنها وتلبيسها الكسوة الجديدة. اهـ

وفى سنة ٧٥١ أراد الملك المجاهد (١) أن ينزع كسوة الكعبة التى باسم المصريين ، ويكسوها كسوة من عنده تكون باسمه ، فاخبر صاحب مكة المصريين فقبضوا عليه .

وفى ذلك يقول جلال الدين المؤذن بالمسجد الحرام :

ياراقد الليل مسرورا بأوله إن الحوادث قد يطرقن أسحارا

فان أمنت بليل طاب أوله فرب آخر ليل أجج النارا

٢٨٣ مرآة الحرمين

وفى ١٠ ذى الحجة من سنة ٧٧٥ كسيت الكعبة الشريفة كسوة قصيرة فوق الكسوة الأولى ، وهى بيضاء وسوداء

فلما كان فى سادس عشر الشهر أخرجت الكسوة وكسيت بها الكعبة من داخل .

وقال السمهودى فى كتابه « وفاء الوفاء » نقلا عن « شفاء الغرام » : وفى عشر الستين وسبعمائة فى دولة السلطان الصالح « اسماعيل » (٢) ابن

---

(١) اقول : لماصعد الملك المجاهد صاحب اليمن إلى الجبل وقع بينه وبين الأمير «طاز»أمير حاج المحمل المصرى فتنة أدت الى حرب انكسر فيهاوقبض عليه الامير «طاز»وقيده وأحضره صحبته الى القاهرة ، فلما تمثل بين يدى السلطان أطلقه من القيد ورسم له بالعود إلى بلاده مكرما ، وأرسل معه الأمير « قشتمر المنصورى » ليوصله إلى بلاده . فلماوصل الى الينبع أراد المجاهد أن يقتل الأمير ويهرب من هناك، فقبض عليه الأمير ورجع به إلى القاهرة فتغير خاطر السلطان «حسن» عليه وقيده وأمر بسجنه بقلعة الكرك . ص ١٩٣ ابن اياس

(٢) الملك الصالح اسماعيل ولى فى المحرم سنة ٧٤٣ ومات فى ٢١ ربيع الاول من سنة ٧٤٦ وقدوقف ضيعة «بيسوس» وأرصدها على كسوة الكعبة الشريفة .
٤٨٢ ابن اياس

الملك الناصر « محمد بن قلاون » اشترى قرية من بيت المال بمصر ووقفها على كسوة الكعبة المشرفة فى كل سنة ، وعلى كسوة الحجرة الشريفة المقدسة ، والمنبر الشريف فى كل خمس سنين مرة . اه

وقال زين الدين المراغى : إن الوقف على كسوة الحجرة فى كل ست سنين مرة ، تعمل من الديباج الأسود مرقوم بالحرير الأبيض ولها طراز منسوج بالفضة المذهبة دائر عليها ، إلا كسوة المنبر فانها بتقصيص أبيض

قال السمهودى : وما ذكراه من المدة المذكورة بالنسبة إلى الحجرة كأنه كان معمولا به فى زمانهما .

وأما فى زمننا فيمضى عشر سنين ونحوها ولا تعمل ، نعم كلما ولى ملك مصر فانه يعتنى بأرسال كسوة .

وذكر الحافظ ابن حجر فى الكلام على كسوة الكعبة : أن الصالح هذا اشترى حصة من بلد يقال لها « سنديس » اشترى الثلثين منها من وكيل بيت المال ووقفها على هذه الجهة ، ولم يتعرض لكسوة الحجرة . فلعل الثلث الثالث الذى لم يذكره يتعلق بكسوة الحجرة . ويحتمل أن مايرد من الكسوة من جهة الملوك لا من وقف . اه

وجاء فى شرح « إيضاح المناسك » للسمهودى ما لفظه : « وكسوة الكعبة الشريفة ، وكسوة الحجرة الشريفة النبوية فى هذا العصر من وقف قرية يقال لها « سنديس » فى طرف القليوبية مما يلى القاهرة ، اشتراها الصالح « اسماعيل » بن محمد بن قلاون من وكيل بيت المال ووقفها ، لأن تكسى منها الكعبة كل سنة وتكسى الحجرة الشريفة النبوية فى كل خمس سنين مرة على ما قاله الزين المراغى ، وذلك فى عشر الستين وسبعمائة (١)

وقال القطب الحنفى : هذه القرى موجودة الآن بمصر ، لكن ذكر لى

(١) راجع ما كتب بخصوصها سابقا

الفاضل مصطفى جلبي بن مسيح زاده (من كتبة الديوان بمصر) لما كان ناظراً على الحرم الشريف المكي أن هذه الأوقاف ضعفت جداً وقل محصولها وصارت لا تفي لكسوة الكعبة. فعرض ذلك على السلطان «سليمان خان» فأمر بالحاق قرى أخرى اشتريت من بيت المال ووقفها وألحقها بأوقاف كسوة الكعبة، وهي باقية الى الآن، ومنها كسوة الكعبة الشريفة في كل عام. اه

٩٩ الأعلام

وجاء في كتاب «صبح الأعشى» صفحة ٢٨١ حـ ٤ مانصه:

والذي جرى عليه الحال في زمننا إلى آخر الدولة الظاهرية «برقوق» (١) وأوائل الدولة الناصرية ولده (٢) أن الكعبة تكسى الديباج الأسود كسوة مسبلة من أعلى الكعبة إلى أسفلها مرقوما بأعاليها طراز رقم بالبياض من أصل النسيج مكتوب فيه «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مباركاً» الآيات. وعلى الباب برقع من نسبة ذلك مرقوم فيه بالبياض

ثم في سنة .. وثمانمائة في الدولة الناصرية فرج بن برقوق غير الطراز من لون البياض إلى لون الصفرة، فصار الرقم في السواد بحرير أصفر مقصب بالذهب، ولا يخفى أنه أنفس من الأول، والثاني أبهج منه لشدة مضادة مابين البياض والسواد، ثم جعل بعض جوانب الكسوة ديباجا أسود على العادة، وبعضها كمخا أسود بجامات مرقوم فيها بالبياض «لا إله إلا الله محمد رسول الله» ثم جعل بعد ذلك برقع البيت من حرير أسود منشورا عليه المخايش الفضة الملبسة بالذهب فزاد نفاسته وعلا قيمته.

ثم في سنة ٨١٤ جعل وجهة الباب من الكسوة كمخا أزرق بجامات مكتوب فيها ... والله العالم ما كان وما يكون» اه

---

(١) الظاهر برقوق توفي في سنة ٨٠١ (٢) هو فرج

وفى سنة ٨١٩ جعلت الجامات المصنوعة من الحرير الأبيض فى جميع الكسوة من تحت وإلى أسفل بعد أن انقطعت ٤ سنين واستمرت الجامات فى كسوة الكعبة ٥ سنين متوالية بعد هذه، ثم أزيلت وعوض عنها جامات سود فى سنة ٨٢٥

وعمل فى سنة ٨١٩ المذكورة لباب الكعبة ستارة عظيمة الحسن لم يسبقها مثلها،

والذى استقر عليه الحال فى زمننا أنها لاتلبس فى كل سنة غير كسوة واحدة، وذلك أن الكسوة تعمل بمصر على النمط المتقدم، ثم تحمل صحبة الركب إلى مكة، فيقطع ذيل الكسوة القديمة على قدر قامة من جدار الكعبة ويظهر من الجدار ما كان تحته، ويبقى أعلاها معلقا حتى يوم ... فتخلع الكسوة العتيقة وتعلق الجديدة مكانها، ويكسى المقام من نسبة كسوة الكعبة

ويأخذ بنو شيبة الحجبة الكسوة العتيقة فيهدونها للحجاج ولأهل الآفاق. وقد زاد رفدهم فيها من حين حصلت المغالاة فى كسوة الكعبة وبرقعها على ماتقدم.

اللهم زد هذا البيت تشريفا وتعظيما وتكريما ومهابة . اه

٢٨٣ - ٤ صبح الأعشى

وفى سنة ٨٢٦ جدد الاشرف «برسباى» الكسوة الحمراء داخل الكعبة الشريفة، وكساها من داخل، وأزال الكسوة القديمة وكانت للناصر حسن ابن محمد بن قلاون»

وجاءت الكسوة الجديدة على يد الزينى «عبد الباسط» [١] ناظر الجيش صاحب الباسطية التى على باب العجلة عن يسار الداخل إلى المسجد الحرام . ٩٨ الأعلام

---

(١) كان عبد الباسط ناظرا على اوقاف كسوة الكعبة بمصر، فعمرها ونماها إلى أن فاضت وكثرت فى زمانه.

وفى سنة ٨٤٨ وصل مع الركب المصرى رسول سلطان العجم « شاه رخ مرزا » بكسوة للكعبة وصدقة لأهل مكة ، فكسيت الكعبة من داخلها بتلك الكسوة من يوم عيد الأضحى ، وفرقت الصدقة على أهل الحرم .

١٠٠ الاعلام

وفى سنة ٨٥٢ وصلت إلى مكة كسوة لحجر اسماعيل عليه السلام مع كسوة البيت الشريف ، لأنه لم تجر بذلك عادة قبل هذا . فوضعت فى البيت الشريف ، ثم كسى بها الحجر من داخله فى العشر الأخير من ذى الحجة سنة ٨٥٣ بعد أن حفظت فى جوف الكعبة سنة كاملة . ١٠١ الاعلام

وفى سنة ٨٥٦ وصل إلى مكة أمر من الملك الظاهر « جقمق » يتضمن إخراج ما على الكعبة الشريفة من كسوتها الداخلية المنسوبة إلى الأشرف « برسباى » والكسوة المنسوبة إلى « شاه رخ مرزا » وإبقاء الكسوة المنسوبة إلى « جقمق » وحدها . ففعلوا ذلك . ١٠١ الاعلام

ثم إن الملك الناصر « أبا سعيد خشقدم » الذى ولى على مصر فى شهر رمضان من سنة ٨٦٥ والمتوفى فى سنة ٨٧٢ كسى الكعبة فى أول ولايته على

وكانت له سحابة للفقراء تنصب لهم فى الطريق ليستظلوا تحتها ، وكانوا يحملون على جمال فى شقادف أعدها لهم ، وكانوا يسقون الماء العذب كلما احتاجوا إليه ، ويطعمون الخبز الطرى ، والبكسماط ، وكان يطبخ لهم فى المناهل ويذبح الغنم فى الذهاب من مصر الى مكة وفى مدة الاقامة بها والعود منها الى مصر مع الاحسان اليهم وإلى غيرهم . وأصلح كثيرا من درب الحجاز ٩٨ الأعلام

وقال ابن حجر فى كتابه فتح البارى ان الصالح اسماعيل بن محمد بن قلاون اشترى ثلثى قرية « بيسوس » من وكيل بيت المال ، ثم وقفها على كسوة الكعبة ، ولم تزل تكسى من ريع تلك القرية الى أن فوض أمرها الملك المؤيد شيخ الى الزينى عبد الباسط فنمت وكثر ريعها وبالغ فى تحسينها بحيث يعجز الواصف عن وصف حسنها . جزاه الله عن ذلك خير الجزاء . ٩٩ الاعلام

العادة ، ولكن كانت كسوة الجانب الشرقى والجانب الشامى بيضاء بجامات سود ، وفى الجامات التى بالشرقى بعض ذهب . ١٠٢ الاعلام

وفى سنة ٨٧٨ وصل الحاج إلى مصر وصحبتهم ابن أمير مكة ، والقاضى ابن ظهيرة وولده وأخوه ، ومعهم « رستم » أمير الحاج العراقى ، والقاضى، اللذان بعث بهما « حسن الطويل » وصحبتهما كسوة الكعبة المشرفة ، وأمر أهل المدينة ومكة أن يخطبوا فيهما باسم العادل « حسن الطويل » فسجنهما السلطان فى برج بالقلعة . ١٤٦ — ٢ — ابن اياس

وفى سنة ٩٢٢ أرسل السلطان قانصوه الغورى الكسوة والصدقات لأهل مكة والمدينة على يد الطواشى « مرهف » ولم يحج أحد من المصريين قاطبة بسبب فتنة ابن عثمان . ٧٧ / ٣ / ابن اياس

فى عصر العثمانيين

فى سنة ٩٢٣ أرسل السلطان سليم (١) مع الأمير مصلح الدين بك بالصدقات وكسوة الكعبة الشريفة ، وكسوة ضريح النبى عليه الصلاة والسلام ، وكسوة ضريح سيدنا « ابراهيم » الخليل عليه الصلاة والسلام ، وصنع للمحمل الشريف كسوة ، وقد تباهى فى كسوة الكعبة وزركشة البرقع إلى الغاية وكذلك فى كسوة المحمل . ١٣٢ — ٣ — ابن اياس . والأعلام

لما استولت الدولة العثمانية على مصر والحجاز اختصت بكسوة البيت الداخلية ، وكسوة الحجرة الشريفة النبوية ، علاوة على الشمع الكبار والصغار

---

(١) لما انتصر السلطان سليم على قانصوه الغورى ودخل حلب وسمع الخطيب يقول فى تعريفه : « خادم الحرمين الشريفين » سجد لله شكراً ، وقال: « الحمد لله الذى يسر لى أن صرت خادم الحرمين الشريفين » وأضمر خيرا كثيرا وإحسانا جميلا لأهل الحرمين ، وأظهر الفرح والسرور بتلقيبه بخادم الحرمين المنيفين . ١٢٨ الأعلام

التى تسرج داخل الكعبة وخارجها. وفى مقامات المسجد الحرام والمآثر الشريفة ، وكذا طيب الكعبة وبخورها كعطر الورد وماء الورد والعنبر والند ، وكذلك الحبال التى تلزم لربط أستار الكعبة . كانت كل هذه الأشياء ترسل سنويا مع المحمل الشامى

واختصت مصر بكسوة الكعبة الخارجية ، وبقيت مصر تصنع أقمشة الكسوتين الداخلية والخارجية كلها إلى عام ١١١٨ حيث أمر السلطان احمد ابن السلطان محمد الرابع بحياكة كسوة الكعبة الداخلية التى ترسل من قبل السلطان عام توليه الملك فى استنبول ، فصنعت فيها وأرسلت فى العام التالى إلى مكة عن طريق مصر ، فاختصت استامبول من ذلك الوقت بحياكة الكسوة الداخلية .

واستمر سلاطين آل عثمان فى ارسالها على النحو المذكور إلى عهد السلطان « عبد العزيز ابن السلطان محمود الثانى » حيث انقطعت الدولة العثمانية عن إرسال الكسوة الداخلية ، وبقيت الكسوة التى كان أرسلها السلطان المشار إليه عام ١٢٢٧ فى الكسوة إلى يومنا هذا . هامش ١٧٢ من تاريخ مكة للأزرقى

واليك صورة وقفية وقفها السلطان سليمان ابن السلطان سليم سنة ٩٤٧ عن عشرة قرى من قرى مصر لينفق من ريعها على الكسوة الشريفة فى مكة وفى المدينة المنورة .

« بسم الله الرحمن الرحيم » الحمد لله الذى رفع القبة الخضراء » ووضع بساط الغبراء . وسمك فى سمائه الأفلاك ، وملك فى أرضه الأملاك ، ففتح مناهج الملك والدولة الغراء . بيمن وقاية السلاطين ، وحسن رعاية الأمراء ، وجعل الكعبة البيت الحرام لشعائر الدين الزهراء »

« فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ »

واستسعد بحجة يوم الجزاء ، ثم الصلاة والسلام على سيد الأنبياء ، محمد

أعلم الرسل الأعلام والأنبياء ، وعلى آله الكرام الأتقياء ، وأصحابه العظام الأصفياء ، نمقه العبد المحتاج الى عفو ربه الصمد ، محمد بن قطب الدين محمد ، القاضي بالعساكر المظفرة المنصورة فى ولاية أناطولى

أما بعد فهذا وثيقة أنيقة بديعة المعانى والبيان ، هادية منمقة أنيقة بليغة المبانى والتبيان ، توارى عباراتها راحاً رحيقاً ، بل هى أصفى ، وتجارى استعاراتها مسكا سحيقا ، بل هى أزكى ، يشعر عما هو الحق القاطع ، ما حواه فحواها ، ويخبر عما هو الصدق الساطع ، ما أداه مؤداها ، وهو أنه قد بان لكل ذى عقل سديد ، أن الدنيا الدنية قنطرة العابرين ، ورباط المسافرين ، يحل هذا ويرحل ذاك ولا يدرى أحد إلا ويمتطى صهوتى أدهم الليل وأشهب النهار ، ويسير مع السائرين إلى منتهى الآجال والأعمار ، وهى للموعظة ما قال سيد الكائنات ، عليه أفضل الصلوات «استمعوا وعوا من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت »[1]

فلا ريب أن العاقل من اعتبر من الرواحل واتخذ فيها لرحيله ذخيرة وزاداً ، وادّخر لمقامه الباقى عدة وعتاداً ، بالصدقات التى ينال بها النجاة ، ويتوسل بها إلى الجنات ، على مانطق به القرآن ، وحديث رسول الرحمن ، حيث قال عز من قائل : « إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ » والمتصدقات ، وقال عليه الصلوات التامات ، « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » ألا وهى الوقف .

فلما تفكر فى جميع ذلك السلطان الأعظم ، والخاقان الأكمل الأكرم ، ظل الله فى أرضه ، وخليفته على خليقته فى رفعه وخفضه ، علوى العلا ، من آل عثمانى عثمانى المحيا ، من سلاطين الزمان سلطان البحرين والبرين ،

---

(١) المعروف أن هذه الجمل من خطبة قس بن ساعدة التى القاها بسوق عكاظ وشهدها النبى صلى الله عليه وسلم قبل عهد الرسالة

العرض(١) القائم بالسنة والفرض ، عاشر المجددين لدين الاسلام بأحسن المعاشر ، وعاشر السلاطين العثمانية كالعقد العاشر ، السلطان ابن السلطان ابن السلطان السلطان « سليمان شاه » ابن السلطان « سليم خان » ابن السلطان « بايزيد خان » لازالت حديقة حقيقة العالمين منضرة بماء حياته ، ونماء ذاته ، وحدقة العالمين منورة بضياء صفاته ، وبيضاء سناء حسناته ، وبلغ أرواح آبائه وأجداده الرحمة وسقاهم بالكوثر وأسبغ عليهم نعم غفرانه وأنذر ورأى منها فى نفسه النفيسة نعم الله تعالى جزيلة ، لايسع شكرها على ذاته الكريمة ، منه منة جميلة ليس فى طوقه ذكرها أراد استقرارها بالأوقات القارة ، واستمرارها بالادارة الدارة ، متفكراً فى قول الملك الخلاق ، « مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ » ونظر فى قوله « الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » وعالما بأن تعظيم الكعبة المستورة بالأستار الشريفة العالية وتشريفها فى الحج يوجب الجنة ، ويصير الهدف الساتر من العذاب والجنة ، وسائماً فى قلبه الفسح من قول الرسول : « من زارنى وجبت له شفاعتى » أن يستشفع منه بتكريم قبره بالأستار بل بتشريف مراقد الأتباع ، وستر مراشد الأشياع ، أيضا بالأزار تنزيلا إياه منزلة الزيارة الدائمة ، والخدمة القائمة ، على مر الدهور والأعصار فان تلك المواضع وإن كانت جرت العادة بسترها لكنها كانت بالأموال المتطرقة ، والأثمان المتفرقة ، فأحب أن يكون مايصرف إلى هذه الآثار الشريفة ، من الأموال المتميزة المتبركة المنيفة ، فعين لهذا أجمل أملاكه وأسبابه ، وأجمل أمواله وأكسابه ، فلذلك قد قال لدى المولى الفاضل ، النحرير الكامل ، مصباح رموز الدقائق ، مفتاح كنوز الحقائق ، كشاف المشكلات ، حلال المعضلات ، الموقع أعلى هذا الكتاب ، يسر الله له حسن المآب ، بقوله الشريف ولطفه اللطيف ، العارى عن الاعتساف ،

---

(١) جاء فى كتابات الملوك السابقين المنقوشة على مساجدهم . ملك الأرض ، ذات الطول والعرض ،

الحاوى على الاقرار والاعتراف ، الذى يجوزه الشرع ، لاحتوائه على ما يغير الأصل والفرع ، وحكى بأنه قد وقف أوقافا وسبلها ، وحبس أملاكا وكلها ، على النمط الأكفى الأشمل ، وعلى الطريق المشروع الأكمل ، لتكون لهذه المصلحة أوقافا قارة ، وإدرارات دارة ، فى الدنيا العاجلة ، ومفيدة له فى يوم الجزاء والآجلة ، وتكون عدة معدة لغده عن أمسه ، ومزية منورة لاتفارقه فى رمسه ، وتصيرها جسرة من العذاب وجنة ، ويكون جزاءها مثل الحج المبرور الجنة ، وتكون باعثة للرفاعة ، وموجبة للشفاعة ،

منها جميع القرى الثلاث المسماة بيسوس (١) وابو الغيث (٢) وحوض بقمص (٣) الواقعة بالولاية المصرية التى كان حاصل منها فى السنة الواحدة مبلغ ٨٩٠٠٠ درهم .

ومنها جميع القرى السبع الجديدة الواقعة فى الولاية الشرقية بالديار المصرية ،

أولها قرية « سلكه كان حصل منها فى تلك السنة مبلغ ٣٠٤٩٤ درهما ،

وثانيها قرية « سيروبجنجه » حاصلها فيها مبلغ ٧١٨٢٠ درهما

وثالثها قرية « قريش الحجر » حاصل مافيها مبلغ ٥١٣٠٤ درهما .

ورابعها قرية « منايل وكوم رحان » حاصل مافيها مبلغ ٣٧٨٤٠ درهما

وخامسها قرية « بجام » حاصل مافيها ١٤٩٣٤ درهما

وسادسها قرية « منية النصارى » وحاصل ما فيها مبلغ ٦٠٨٥٨ درهما

وسابعها قرية « بطاليا » وحاصلها فيها ١٠٤٨٤ درهما

يكون جميع النقود المزبورة فى تلك السنة المسفورة مبلغ ٣٦٥١٥٢ درهمافضيا محاذيا بنصف القطعة رايجافى الوقت أيد الله تعالى دولته من سكها باسمه السامى ، ورفه رعاياه بعدله المتوفر النامى ، وقف جميع القرى المزبورة المستغنية عن التعريف والتحديد ، والتبيين والتوصيف ، لشهرتها فى مكانها ،

عند أهاليها وجيرانها ، ولكونها مشروحة ومعلومة فى الدفاتر السلطانية والمناشير الخاقانية بجملة مالها ، من الحدود والحقوق ، وما ينسب إليها بالاصالة والحقوق ، والمراسم والمرافق ، والمداخل والطرائق ، خلاما يستثنى منها شرعا من المساجد ، والمعابد والمنابر والمعابر ، والمراقد والمقابر ، والأملاك والأوقاف ، وسائر مايعرف مبينا بينه بالأسامى والأوصاف .

وسلم جميعها إلى من ولاه عليها بموجب الشرع المنصوص ، ونصبه للخدمة بالأمانة والاستقامة فى هذا الخصوص ، وتسلمها هو منه للتصرف فيها بالوجه السداد ، على ماهو المراد ، تسليما وتسلما صحيحين شرعيين

ثم عين السلطان الفايق على حذافير السلاطين فى الآفاق ، بالاستهلاك والاستحقاق والسابق فى مضامير التدابير بمكارم الأخلاق ، ومراسم الاشفاق ، لازالت شموس سعادته أبدية الأشراق ، ومابرحت نجوم سلطنته محمية عن الانمحاق ، مما يحصل من تلك القرى الموقوفة المذكورة على حسب التخمين التى مدارها حصل السنة المشروحة المزبورة فالتعيين على هذه النسبة فى جميع الأعوام ، قلت المحصولات أو حلت بتفاوت الشهور والايام ، مبلغ ٢٧٦٢١٦ درهما لاستار ظاهر الكعبة الشريفة شرفها الله تعالى فى كل سنة مرة على ماجرت به العادة القديمة فى السنين الماضية القديمة طبقا على هذا التخمين بعد الصرف المذكور فى السنة مبلغ ٨٨٩٣٦ درهما

وشرط أن يحفظ ذلك الباقى بحفظ المتولى تمام ١٥ عاما فيكون عدد الجمع فى هذا العام على التخمين التام مبلغ ثلاثة عشر مرة مائة ألف درهم وأربعين درهما (١٣٠٠٠٥٢) فعين من هذا الباقى فى المحفوظ المجموع المستور لاستار المواضع التى تجدد فى انقضاء كل ١٥ عاما مرة ، وبعد تجديدها المزبور لاتجدد كل سنة بل تروح إلى انقضاء ١٥ عاما أخر ، ثم تجدد مرة أخرى كذلك ، ثم فثم إلى أن ينقضى الدهر ويتم لكل مرة من تلك المرات ، وفى كل كرة من هذه الكرات ، بالتخمين المزبور ، والتعيين المذكور مبلغ ٧٥٠٣٧٠ درهما

فضيا رائجا فى الوقت وتلك المواضع التى يصرف إليها هذا المقدار فى ١٥ عاما مرة وهى داخل الكعبة الشريفة ، والروضة المطهرة المنيفة ، أعنى بها التربة المنورة لسيد الكونين ، ورسول الثقلين ، نبينا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام إلى يوم القيام ، بالمدينة المنورة ، والمقصورة المعمورة ، فى الحرم الشريف ، والمنبر المنيف فيه ومحرابه محراب التهجد ، والأستار الاربعة لنفس الحرم الشريف ، ومحراب ابن العباس وقبره وقبر عقيل بن أبى طالب وحضرة الحسن وحضرة عثمان بن عفان وفاطمة بنت أسد رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ، وما زاد بعد هذا وهو مبلغ ٥٨٢٦٧٠ درهما لاحتمال أن يقع فى بعض السنين النقصان ، بسبب الشراقى وطوارق الحدثان ، لأن هذا بالتخمين ، وان لزم فى بعض السنين ، جبر النقصان ، فليجبر من هذا الفضل ذاك الزمان ، وإن وجد فى انقضاء المدة وبعد الصرف شىء مما يزيد ويفضل سواء أكان هذا المقدار ، أو أكثر منه أو أقل فليشتر بالموجود المزبور الملك المناسب للوقف من العقار ، الواقع فى موضع الرغبة والاشتهار ، ليكثر محصول الوقف ، وتوفير مواضع الصرف ، بالحاق هذا المشترى والمتاع بسائر الأوقات واستغلاله معها ، وصرف غلاته إلى المصارف المبينة بالأوصاف وتنمية الوقف وتقويته بهذا التكثير ، وتمشيته وتوسعته بذلك التوفير ، وهذا بعد رعاية شرط أنه إن وقعت المضايقة فى هذا الوقف أو فى الوقف الآخر الذى وقفه السلطان أيضا على مصالح الفقراء الذاهبين إلى الحجاز ، وعلى حالهم وعلى سائر مهماتهم ، وكتب له وقفية مستقلة مشتملة على هذه الشروط والقيود ، تكون مرعية بالخلود والابود ، يلزم أن يعين كل واحد الآخر من الجانبين بزوائده ، وبفضائل عوائده باتمام ما بهم ويلزم له وتكميله لدفع مضايقته وضرورته وإسعاده واجتهاده اقرارا واعترافا صحيحين شرعيين مصدقين محققين مرعيين ، وقفا صحيحا شرعيا ، وحبسا صريحا مرعيا ، حاويا على الحكم بصحته أصلا وفرعاً على وجه يعتد به ديناً وشرعا ، وغب

رعايته شرائط الحكم والتبجيل . وفى حصول الوقف والتسبيل ، لدى المولى الفضل النحرير الكامل الموقع أعلا هذا الصك الدينى ، والحفظ اليقينى ، وفتح الله تعالى ابواب الحقوق بمفاتيح أقلامه ، وأحكم الامور بثبوت أحكامه ، فصار وقفا لازما مسلسلا متفق عليه على مقتضى الشرع ومرتضى أحكامه بحيث لا يرتاب صحته وابترامه لوقوع حكم المولى المومى إليه على رأى من رآه من الأئمة الماضين المجتهدين ، رضوان الله عليهم أجمعين . عالما بالاختلاف الجارى بينهم فى مسألة الوقف علم خلوده بخلود السموات ، وأبوده بأبود الكائنات ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ، فلا يحل بعد ذلك لأحد يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر ينقضه أو يبطله أو يحوله أو يبدله فلا يملك بعد ذلك المؤمن ، أو خائفا من الله المهيمن ، بعد ماسمع قول رب العالمين « أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ » وأجر الواقف بعد ذلك على أرحم الراحمين .

جرى ذلك . . . وحرر بالأمر العالى الخاقانى ، لازال عاليا فى أصفر المظفر المنخرط فى سلك شهور سنة سبع وأربعين وتسعمائة من هجرة من لا نبى بعده . وصلى الله عليــــه وعلى آله وصحبه الذين وفوا عهده .

اه ٢٨٥ مرآة الحرمين نقلا عن مرآة مكة لحضرة أمير اللواء البحرى العثمانى أيوب صبرى باشا

أقول : رجوت حضرة صديقى المؤرخ البحاثة صاحب العزة محمد رمزى بك المفتش بالمالية سابقا أن يبحث عن أسماء البلاد العشر الواردة فى هذه الوقفية وهل هى موجودة إلى الآن كلها أو بعضها ، وهل تغيرت الأسماء ؟ فتفضل على بهذا البيان الطريف الآتى ، فله منى ومن جميع المسلمين خالص الشكر ووافر الثناء

١	بسوس	هى القرية التى تعرف اليوم باسم « باسوس » بمركز قليوب مديرية القليوبية
٢	ابو الغيث	تعرف باسم « أبو الغيط بالمركز المذكور
٣	حوض بقمص	هو الحوض الذى يعرف اليوم باسم « حوض بقيس » بأراضى ناحية مرصفا بمركز بنها بمديرية القليوبية
٤	سلكه	هى اليوم احدى قرى مركز المنصورة بمديرية الدقهلية
٥	سرو بجنجة	صوابه « سرو بجحه » وهى القرية التى تعرف اليوم باسم « السرو » بمركز فارسكور بمديرية الدقهلية
٦	قريش الحجر	هى القرية التى تعرف اليوم باسم « أويش الحجر » بمركز المنصورة بمديرية الدقهلية
٧	منايل و كوم رحان	هى القرية التى تعرف اليوم باسم المنايل بمركز شبين القناطر بمديرية القليوبية
٨	بجام	هى اليوم إحدى قرى مأمورية ضواحى مصر
٩	منية النصارى	هى القرية التى تعرف اليوم باسم منية النصر بمركز دكرنس بمديرية الدقهلية
١٠	بطاليا	بالبحث لم أجد بين أسماء البلاد المصرية قديمها وحديثها قرية بهذا الاسم . وإنما يوجد اسم قريب منه وهو « طاليا » احدى قرى مركز أشمون بمديرية المنوفية ، كما أنه كان يوجد قديما قرية اسمها « بتالى » بولاية الغربية ، ولم استدل على موقعها . وعلى كل حال فهاتان القريتان هما خلاف قرية « بطاليا » المذكورة فى الحجة بأنها من ولاية الشرقية . اه

وقال الحسين بن محمد الورثيلانى فى رحلته « نزهة الأنظار » وقد حج سنة ١١٧٩ ما يأتى : « ... وممن أكرمنا بالقاهرة واستدعانا لمنزله الشيخ « عبد الرؤف » نقيب كسوة الكعبة المشرفة وهو من خواص أصحاب شيخنا الشيخ « على الزعترى » ذهب معنا يوما لداره باستدعائه . وبالغ فى الاكرام واخبرنا أن الكسوة تقام كل سنة بأثنين وعشرين ألف كيس ، والكيس ٥٠٠ قرش . والمحمل بسبعة اكياس من أحباسها ، وربما يزيد القيم المذكور من عنده أربعة أكياس إلى ستة .

وكان كثيراً ما يبحث عن علم الكيمياء وسر الحروف ليستعين به على ما هو بصدده . اه

وفى ٨ من شوال سنة ١٢١٣ نودى فى الأسواق بموكب كسوة الكعبة المشرفة من قراميدان ، والتنبيه باجتماع الوجاقات وأرباب الاشاير وخلافهم على العادة فى عمل الموكب . فلما أصبح يوم السبت اجتمع الناس فى الاسواق وطريق المرور وجلسوا للفرجة ، فمروا بذلك وأمامها الوالى والمحتسب وعليهم القفاطين والبيشات وجميع الأشاير بطبولهم وزمورهم وكاساتهم ثم برطلمين كتخدا . وأمامه نفر الينكجرية من المسلمين نحو ٢٠٠ أو أكثر وعدة كثيرة من نصارى الأروام بالأسلحة والملازمين بالبراقع ، وهو لابس فروة عظيمة ، ثم مواكب الفلقات ، ثم موكب ناظر الكسوة وهو تابع مصطفى كتخدا الباشا وخلفه النوبة التركية . فكانت هذه الركبة من أغرب المواكب وأعجب العجائب لما اشتملت عليه من اختلاف الاشكال ، وتنوع الأمثال ، واجتماع الملل ، وارتفاع السفل ، وكثرة الحشرات ، وعجائب المخلوقات ، واجتماع الأضداد ، ومخالفة الوضع المعتاد . راجع الجبرتى

وفى شهر رمضان سنة ١٢١٥ وقع السؤال والفحص عن كسوة الكعبة التى كانت صنعت على يد مصطفى أغا كتخدا الباشا ، وكملت بمباشرة حضرة العمدة الفاضل الناظم الناثر السيد اسماعيل الشهير بالخشاب ، ووضعت فى

مكانها المعتاد بالمسجد الحسيني وأهمل أمرها إلى حد تاريخه ، وربما تلف بعضها من رطوبة المكان وخرير السقف من المطر ، فقال الوكيل : ان سارى عسكر قصده التوجه بصحبتكم يوم الخميس قبل الظهر بنصف ساعة إلى المسجد الحسيني ويكشف عنها ، فان وجد بها خللا أصلحه ، ثم يعيدها كما كانت ، وبعد ذلك يشرع فى إرسالها إلى مكانها بمكة ، وتكسى بها الكعبة على اسم المشيخة الفرنساوية . فقالوا شأنكم وما تريدون ، وقرىء بالمجلس فرمان بمضمون ذلك .

١٤٤ حـ ٣ جبرتى

وفى شهر جمادى الثانية من سنة ١٢١٦ هـ وصلت كسوة الكعبة من الآستانة إلى مصر . فنادوا بمرورها .

فركب الأعيان ، والمشايخ ، والأشاير ، وعثمان كتخدا أمير الحج ، وجمع الجاويشية والعساكر ، والقاضى ونقيب الأشراف ، وأعيان الفقهاء ، وذهبوا إلى بولاق ، وأحضروها وهم أمامها ، وفردوا قطع الحزام المصنوع من المخيش ثلاث قطع ، والخمسة مطوية ، وكذلك البرقع ، ومقام الخليل ، كل ذلك مصنوع بالمخيش العال ، والكتابة غليظة مجوفة ، متقنة ، وباقى الكسوة فى سحاحير على الجمال ، وعليها أغطية جوخ أخضر .

ففرح الناس بها وكان يوما مشهودا . وقد استغرقت صناعتها بالقسطنطينية زهاء ٣٠ يوما وقد وصلت من الآستانة إلى اسكندرية فى ١١ يوما فقط .

٢٠١ حـ ٣ جبرتى

ولما دخل الامام « سعود » الكبير ابن « عبد العزيز آل سعود » إلى الحجاز انقطعت مصر عن إرسال الكسوة الخارجية ، فكساها الإمام المشار اليه عام ١٢٢١ من القز الأحمر ، ثم كساها فى الأعوام التالية بالديباج ، والقيلان الأسود ، وجعل ازارها وكسوة بابها من الحرير الأحمر المطرز بالذهب والفضة .

هامش ص ١٧٢ تاريخ مكة للأزرقى

الكسوة فى عصر الأسرة المحمدية العلوية

ولما تولى ساكن الجنان العزيز « محمد على باشا » حكم مصر ذكر فى فرمان التولية ، الذى تضمن مفاخر هذه الأسرة وامتيازاتها ، أن على خزينة مصر القيام بالنفقات السنوية التى تقوم بها عادة للحرمين الشريفين.

وقد قام الخديويون منذ ذلك الوقت بهذا الواجب، كفرض محتم عليهم، لم يتوان فى أدائه واحد منهم . واستمروا على إرسالها إلى الكعبة الشريفة ، مع ركب المحمل كشعيرة من الشعائر .

وكان كل « خديو » منهم يرسمها باسمه ، عند توليته حتى عامى ١٣٣٢ و ١٣٣٣ وذلك عقيب إعلان الحرب العالمية . فمنعت الحكومة الانكليزية إرسال المحمل المصرى إلى الحجاز ، بسبب انحياز الدولة العثمانية الى جانب المانيا وحلفائها ، ولكنها - أى انكلترا - كانت تسمح بارسال الكسوة والصرة فقط ، فكان مأمورو المحمل الملكيون وإمامه يحملون الكسوة والصرة فيأتون بها إلى مرفأ « جدة » ، حيث يسلمونها إلى وكيل أميرمكة ، ثم يقفلون إلى مصر راجعين .

وقد كانت العادة المتبعة إلى عام ١٣٣٢ المذكور أن يكتب اسم السلطان العثمانى فقط على الحزام ، وفى عام ١٣٣٣ أضيف إلى جانب إسم السلطان العثمانى هذه العبارة « والآمر بها السلطان الكامل حسين » إشارة إلى السلطان حسين كامل الذى تولى السلطنة المصرية حينذاك (١)

وقد كسيت الكعبة بهذه الكسوة بعد أن نزعت عنها الحكومة المحلية فى الحجاز العبارة المذكورة .

وفى عام ١٣٣٤ كان الملك « حسين بن على ملك الحجاز أعلن الثورة ضد

---

(١) السلطان حسين ولى فى اول صفر سنة ١٣٣٣ (١٩ ديسمبر سنة ١٩١٤) ومات فى ٢٢ ذى الحجة سنة ١٣٣٥ (٩ اكتوبر سنة ١٩١٧) .

الدولة العثمانية ، التى كانت فى العام المذكور أرسلت للكعبة كسوة خارجية مع الشريف على حيدر باشا » لا كساء الكعبة عند استرداد مكة . فبقيت الكسوة المذكورة فى المدينة المنورة إلى سنة ١٣٤١ هـ . فجلبها الملك حسين » من هناك وكسا الكعبة بها .

ولما ولى المغفور له السلطان « فؤاد الأول » (المغفور له الملك فؤاد) فى ٢٢ ذى الحجة سنة ١٣٣٥ (٩ أكتوبر سنة ١٩١٧ م) أمر بصنع كسوة جديدة يكتب عليها اسم عظمته بدلا من تلك التى كانت تحمل اسم السلطان حسين . وعمل للمحمل كسوة جديدة بدلا عن كسوته التى كانت باسم الخديو السابق صاحب السمو « عباس حلمى الثانى » وكان سموه قد أمر بصنعها برسمه فى سنة ١٣٠٩ (١٨٩٢ م) . وستأتى صورتها عند الكلام على المحمل

وظلت باسم عظمة السلطان « فؤاد » حتى سنة ١٣٤١ (١٩٢٢ م) إذ أبدلت برسم صاحب الجلالة الملك « فؤاد الأول » . ولكنها لم تنعم طويلا بشرف المثول فوق الكعبة الشريفة ، إذ قامت فى سنة ١٣٤٢ (١٩٢٤ م) مشادة بين حكومة جلالة الملك « عبد العزيز آل سعود » والحكومة المصرية بشأن سفر المحمل المصرى . ولم يقبل جلالته أن تدخل الجنود المصرية بموكبها أرض الحجاز المستقلة ، ومنها موسيقاها التى تعدها عقيدة الوهابيين « بدعة . ولذلك اعتدى الأعراب على ركب المحمل المصرى » فى موسم سنة ١٣٤١ (١٩٢٣) ، وكان قائد الركب وأمير الحج اذ ذاك سعادة « محمود عزمى باشا » فعاد المحمل والكسوة الى مصر ثانيا ، ورؤى أن يوقف أمر إرسال الكسوة الشريفة حتى تتفاهم المملكتان بعد ذلك

فكان آخر عهد الكعبة المكرمة بالكسوة المصرية فى السنة المذكورة ، وكانت إذ ذاك تحمل اسم المغفور له جلالة الملك « فؤاد الأول »

وفى عام ١٣٤٣ دخل جلالة الملك « عبد العزيز آل فيصل آل سعود » إلى مكة ، فأخر مجىء الكسوة التى ترد من مصر بسبب الحرب التى كانت

قائمة بين جيوش جلالته وجيوش الملك « على بن الحسين » بين جـــدة وبحرة ، فاستعيض عنها بكسوة من صنع « الاحساء » .

وفى عام ١٣٤٤ انتهت الحرب بانسحاب حكومة « جـدة » فوردت الكسوة من مصر ، ولكن الحكومة المصرية انقطعت عن إرسالها منذ سنة ١٣٤٥ بسبب توتر العلاقات بين البلدين . فأمر جلالة الملك « عبدالعزيز » أيده الله باعداد كسوة فاخرة فى اليوم الخامس من شهر ذى الحجة ، فصنعت من الجوخ الأسود الفاخر مبطناً بالقلع المتين .

وفى سنة ١٣٤٦ أسس جلالته داراً خاصة للكسوة والصناعة فى محلة « أجياد » بمكة ، فكانت هذه الدار أول مؤسسة شيدت لحياكة الكسوة فى الحجاز . وجلب الدار المذكورة عمالا من الهنود ، لعدم وجود من يحسن صناعة الحياكة فى داخل البلاد ، وبقى هؤلاء فى الدار المذكورة إلى سنة ١٣٥٢ حيث حل مكانهم فريق من أهل البلاد حذقوا وتمرنوا على الحياكة خلال المدة الماضية .

ولما زال سوء التفاهم بين المملكتين المصرية والسعودية عادت الكسوة والمحمل فى سنة ١٣٥٥ بعد هذا الانقطاع الطويل فى عهد جلالة الملك المحبوب الصالح « فاروق الأول » تحمل إلى البلاد المقدسة هديته النفيسة ، وتشرف اسمه الكريم فى جوار البيت المعظم .

وصف الكسوة

هى ثمان ستائر من الحرير الأسود المكتوب بالنسيج . فى كل مكان منه « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، دالات بعضها فى قلب بعض ، كما هى مبينة فى الرسم الآتى :



وطول الستارة منها نحو ١٥ مترا .

وكل ستارتين تعلقان على جهة من جهات الكعبة ، فتربطان من أعلاهما

فى حلقات من الحديد ، ثبتت فى سقف الكعبة . ثم تربطان إلى بعضهما بواسطة عرى وأزرة ، وتثبتان من أسفل فى حلقات وضعت فى الشاذروان ، وهكذا كلما وضعت ستارة تثبت فى التى بجوارها بواسطة هذه الأزرة حتى إذا انتهت كلها صارت كالقميص المربع الأسود . ثم يوضع على محيط البيت المعظم ، فوق هذه الستائر فيما دون ثلثها الأعلى ، حزام يسمى « رنكا » مركب من ثمانى قطع مصنوعة من المخيش المذهب ، مكتوب فيها بالخط الثلث العربى الجميل آيات قرآنية ، كتبها مع غيرها من أعمال الكسوة الشريفة المرحوم « عبدالله بك زهدى » (١) فى زمن المرحوم « اسماعيل باشا » الخديو جد حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك « فاروق الأول » حفظه الله .

ومكتوب على القطعة الأولى من الجهة التى بها باب الكعبه

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ « وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرٰهِيمَ مُصَلًّى ، وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرٰهِيمَ وَإِسْمٰعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ »

وعلى القطعة الثانية « وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرٰهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمٰعِيلُ

---

(١) رسمنا صورته الفوتوغرافية فى صفحة ٨٤ وقلنا إنه منقوش على قبره أبيات ثلاثة أثبتناها فى الصفحة المذكورة . ولكن تبين لى من حضرة الأستاذ حسين افندى محمد الليثى رسام الكسوة الشريفة أن قبر المرحوم زهدى بك بشارع الامام الشافعى خلف قبة الامام « وكيع » . وأنه جدد تابوته ، ومنقوش على شاهد القبر تاريخ الوفاة بخط المرحوم « خيرت » . الخطاط بالخط الفارسى . وأن الصندوق من كتابة زهدى بتنميق خيرت . وأن الابيات التى نوهنا عنها فى صفحة ٨٤ هى تاريخ الوفاة ولم تنقش على القبر . وأن حضرة المحترم اشترى المدفن جميعه من ورثة المرحوم زهدى ، ويطلق عليه الآن « مدفن حسين الليثى » جزاه الله عنى خير الجزاء .

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ
رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا
أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ
عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ »

وبين هاتين القطعتين دائرة بها كتابة « ياحنان يامنان ياديان ياسبحان » متجهة ألفاتها إلى مركز الدائرة. ويلاحظ فيها أن حرف النداء مقلوب وهو خطأ شائع منذ زمن مديد لم يفكروا في إصلاحه إلى الآن — انظر الرسم يساره وترى فيه القطعتان احداهما فوق الأخرى تسهيلا للرسم.

ومكتوب في الجهة التي تليها من جهة « الحجر الأسود » في قطعتين أخرتين ما نصه :

« بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ قُلْ صَدَقَ اللهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرٰهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ . فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرٰهِيمَ »

« وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ »

كما يرى فى الصورة يساره
ومكتوب فى الجهة الثالثة ما نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم
وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ »

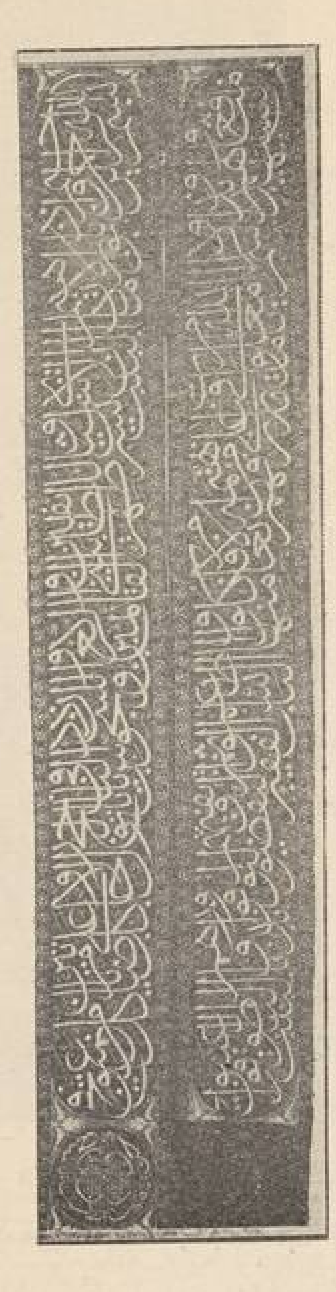
« لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ »

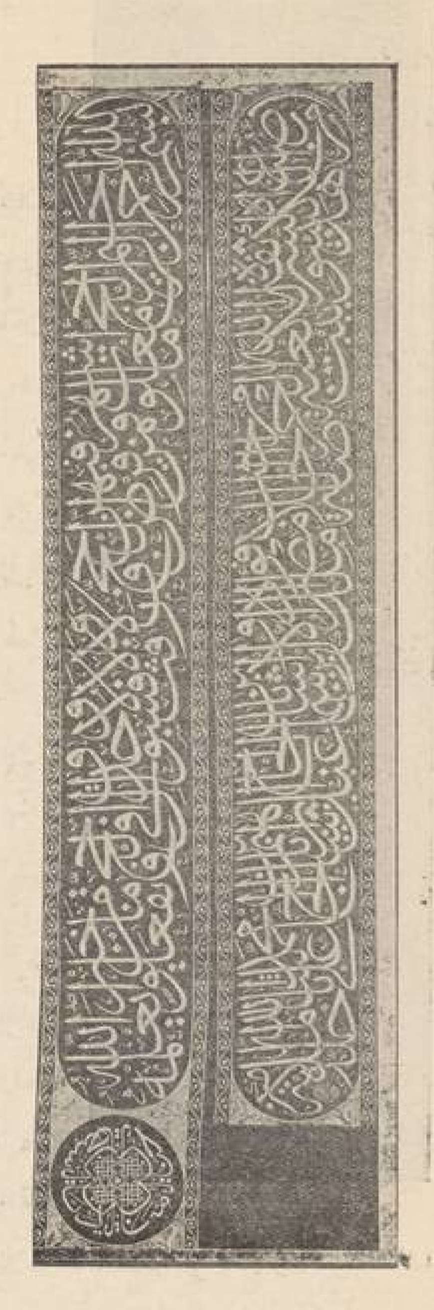
كما يرى فى الصورة اليسرى من صفحة ٢٦٨
ومكتوب فى الجهة الرابعة وهى التى بها الميزاب :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ »

« أمر بصنع هذه الكسوة الشريفة لكعبة بيت الله الحرام صاحب الجلالة ملك مصر فؤاد الأول ابن اسماعيل باشا ابن الحاج ابراهيم باشا ابن الحاج محمد على باشا خلد الله ملكه آمين »

(كما يرى فى الصورة اليمنى من أسفل بالصفحة ٢٦٨)





وهذه القطعة كتبت بخط المرحوم الشيخ « مصطفى الحريرى » سنة ١٣٤٤ على نسق كتابة المرحوم « زهدى بك »

وإليك قطعة مكبرة من الجزء الأخير بخط « الحريرى » المذكور وهى التى على اليسار

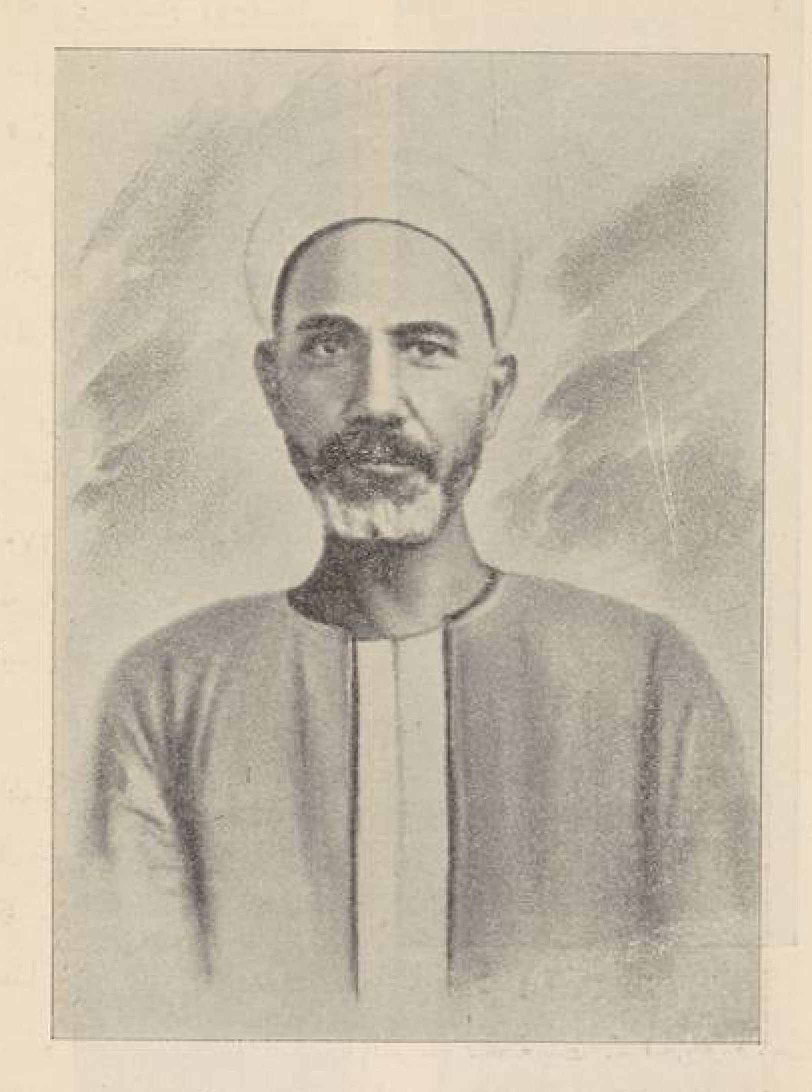
وهذه صورته الفوتوغرافيه رحمة الله عليه تراها فى صفحة ٢٧٠ جئنا بها هنا اعترافا منا له بالفضل والصداقة القديمة بيننا

ولما حصل الاتفاق بين المملكتين المصرية والسعودية فى شهر رمضان من سنة ١٣٥٥ كما سبق بيانه فى أول كتابنا هذا ، تغير النص الوارد فى القطعة الثامنة الأخيرة كما يأتى :

« أمر بصنع هذه الكسوة الشريفة لكعبة بيت الله الحرام صاحب الجلالة ملك مصر فاروق الأول وأهديت لها فى عهد حضرة صاحب الجلالة عبد العزيز آل سعود ملك المملكة العربية السعودية ، سنة ١٣٥٥ هـ »

كتبت بخط صديقنا المفضال حضرة صاحب العزة مصطفى غزلان بك رئيس قلم التوقيع بديوان جلالة الملك .

وأرسلت هذه الكسوة فعلقت على الكعبة فى موسم سنة ١٣٥٥
وترى صورة ما كتب في صفحة ٢٧١



وفى هذه السنة (سنة ١٣٥٦) تغير هذا النص بما يأتى :

« صنعت هذه الكسوة بأمر حضرة صاحب الجلالة فاروق الأول ملك مصر وأهديت الى الكعبة المشرفة فى عهد الملك عبد العزيز آل سعود ملك المملكة العربية السعودية » ١٣٥٦

كما يرى فى الصورة الآتية فى صفحة ٢٧٣

وقد كبرنا الجزء الاول من هذه الكتابة لينتفع به محبو الخط العربى

وقد أهدانا صديقنا المفضال «غزلان بك» صورته الفوتوغرافية التى ننشرها فى صفحة ٢٧٣ فله منا خالص الشكر .











وهذه قطعة من الكسوة تسمى «كرداشية» بها البسملة والصمدية وبوسطها لفظة يا الله مكررة ٤ مرات ، ويرى فيها حرف النداء مقلوبا فى موضعين كما سبق التنويه عنه فى موضع آخر

وتوضع هذه الكرداشية بين كل قطعتين من الاحزمة المكتوبة . ولعل هذه الكلمة مصحفة عن كلمة «كرد» الفارسية ومعناها الدائرة

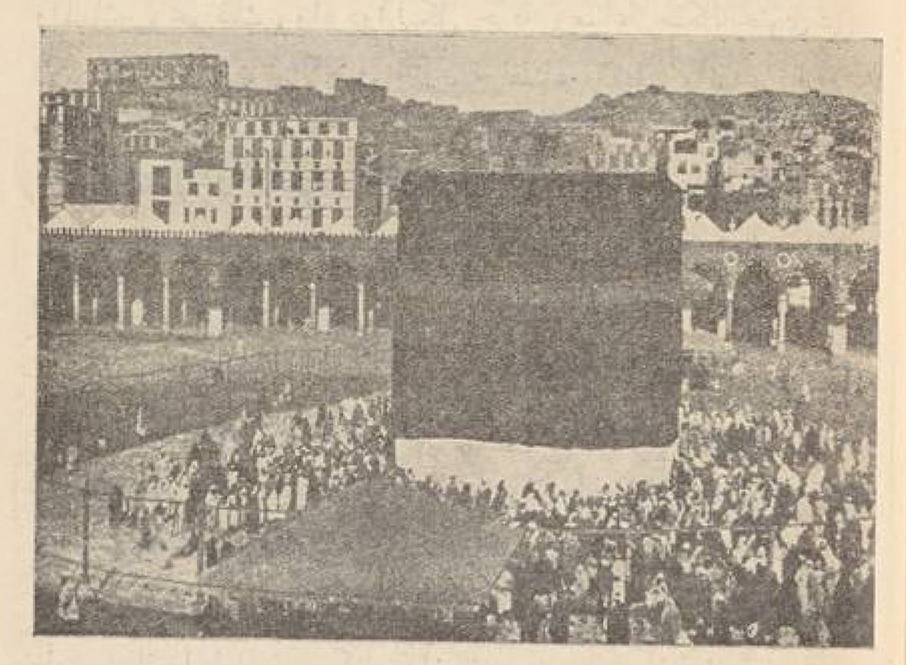


جزء من الكسوة الحمراء الداخلية للكعبة . والمربع الموجود بالزاوية اليسرى السفلى بمقاس الطبيعة نقلا عن مرآة الحرمين

أماكن تشغيل الكسوة

والكسوة الآن تعمل فى مصر سنويا بدار فسيحة بالخرنفش(١) يطلق عليها اسم « مصلحة الكسوة الشريفة » .

كان أصل هذه الدار ورشة كبيرة تعرف « بورشة الخرنفش » وبورشة « خميس العدس(٢) » كانت بيتا كبيرا من بيوت الأمراء المصريين . ثم جعله



صورة الكعبة بالأزار الأبيض من الجهة الغربية

(١) الخرنفش أصله كما فى المقريزى صفحة ٣٧٤ و ٣٧٥ الخرنشف . والخرشتف كما فى (ص) ٢٧ ج ٢ وسمى بالخرشتف لأن المعز لدين الله الفاطمى أول من بنى فيه الاصطبلات بالخرشتف ، وهو ما يتحجر مما يوقد به على مياه الحمامات من الأزبال وغيرها .

(٢) خميس العدس أصله خميس العهد . قال المقريزى صفحة ٤٩٥ ويسميه أهل مصر من العامة خميس العدس ، ويعمله نصارى مصر قبل الفصح بثلاثة أيام ، ويتهادون فيه . وكان من جملة رسوم الدولة الفاطمية فى خميس العدس ضرب ٥٠٠ دينار ذهبا ١٠ آلاف خروبة وتفرقتها على جميع أرباب الرسوم . اه

العزيز « محمد على باشا » ورشة ، وشرع فى عمارتها كما فى الجبرتى فى شهر ذى الحجة سنة ١٢٣٣ فى حارة النصارى المعروفة بخميس العدس المتوصل منها إلى جهة الخرنفش ، وذلك باشارة بعض نصارى الفرنج ، ليجتمع بها أرباب الصنائع الواصلون من بلاد الافرنج ، واستمروا مدة فى عمل الالآت الأصولية مثل السندانات والمخارط الحديد والتزجات والقواديم والمناشير ونحو ذلك ، وأفردوا لكل حرفة وصناعة مكانا يحتوى على الأنوال والدواليب والآلات الغريبة لصناعة القطن وأنواع الحرير والأقمشة المقصبات وغيرها . اه

وهذه الورشة موجودة الى الآن على ذمة الميرى ، لكنها بطلت كما بطل غيرها من الورش ، وهى اليوم معدة لتشغيل كسوة الكعبة الشريفة ، أدام الله تعظيمها . اه

وقد كانت تعمل سابقا ببلدة « تنيس » المجاورة لدمياط وهى بلدة من بلاد مصر فى وسط الماء كان أكثر أهلها حاكة ، وكان يحاك بها ثياب الشروب التى لا يصنع مثلها فى الدنيا . وكان يصنع فيها للخليفة ثوب يقال له « البدنة » لا يدخل فيه من الغزل سدا ولحمة غير أوقيتين ، وينسج باقيه من الذهب ، بصناعة محكمة لا تحوج إلى تفصيل ، ولا خياطة ، تبلغ قيمته ألف دينار ، وليس فى الدنيا طراز ثوب كتان يبلغ الثوب منه وهو ساذج بغير ذهب ١٠٠ دينار عينا غير طراز « تنيس » و « دمياط »

وقد استمرت فى ازدهار حتى هدمها فى سنة ٦٢٤ الملك الكامل محمد الايوبى ، وكانت تعمل بها الثياب السرية ، وتصنع بها كسوة الكعبة كما قدمنا — راجع المقريزى —

وقال « كترمير » : تنيس كلمة رومية معناها الجزيرة .

وقال ابو الفداء : أن فرع النيل هناك ينقسم إلى بحيرتين بحيرة تنيس وبحيرة دمياط تتصل إحداهما بالأخرى وهما بقرب البحر . والشرقية منهما هى بحيرة تنيس والغربية بحيرة دمياط . وفيها يصب خليج أشمون .

وقال خليل الظاهرى : بحيرة تنيس تسمى بحيرة المنزلة — وهو الاسم الذى تعرف به الآن . راجع الخطط ﺟ ٩

ومن البلاد التى كانت تعمل بها الكسوة الشريفة أحيانا بلدة « تونة » وهى جزيرة قرب دمياط ، وهى غير « تونة الجبل » التى فى مديرية أسيوط

وقد سبق لنا ان نقلنا عن الفاكهى ما قرأه على الكسوة الشريفة سنة ١٩٠ ومن البلاد أيضاً « شطاً » وهى بلدة عند تنيس ودمياط . وإليها تنسب الثياب الشطوية — راجع المقريزى —

وقال ابن حوقل : إن اسمها مأخوذ من اسم « شطا بن الهاموك » عم المقوقس ، وفيها يعمل طراز الكعبة .

وقد تقدم لنا القول نقلا عن الفاكهى أنه رأى كسوة الكعبة من القباطى مصنوعة فى « شطا » سنة ١٩١ .

وجاء فى صبح الأعشى (ص ٥٧ ﺟ ٤) . . . وهذه الكسوة تنسج بالقاهرة بمشهد « الحسين » عليه السلام من الحرير الأسود مطرزة بكتابة بيضاء فى نفس النسج ، فيها « ان أول بيت وضع للناس — الآية »

ثم فى آخر الدولة الظاهرية « برقوق » استقرت الكتابة صفراء مشعرة بالذهب .

ولهذه الكسوة ناظر مستقل بها ، ولها وقف أرض « بيسوس » من ضواحى القاهرة ، يصرف منها على استعمالها . اه

ثم عملت بداخل القلعة فى « القصر الأبلق » الذى أنشأه الناصر محمد ابن قلاون سنة ٧١٣ وسمى بذلك لأنه بناه بالحجر الأسود والأصفر ، وقد بنى على مثال القصر الأبلق الذى أنشأه الظاهر بيبرس البندقدارى فى دمشق وهو أول من أدخل بمصر طريقة تلوين البناء بأحجار من نوعين أبيض وأصفر مثلا أو أسود وأصفر ، وعنه أخذ الناصر . وهذا الأسلوب مأخوذ من

العمائر الرومانية (١)

ولما احتل المماليك الأتراك قصور القلعة جميعاً لم يسكنوه احتراماً وتعظيما للكسوة الشريفة حتى لاتتعطل حياكة الكسوة فيه .

وقال الجبرتى فى حوادث سنة ١٢١٣ وكان نسج الكسوة بدار مصطفى كتخدا الباشا ، وهو على خلاف العادة من نسجها بالقلعة . اه

وقال أيضاً : وفى سنة ١٢١٣ سجن كتخدا الباشا الذى كان ناظراً على الكسوة ، وأمروا السيد اسماعيل الوهبى المعروف بالخشاب أحد العدول بالمحكمة باتمامها . فنقلت إلى بيت أيوب جاويش بجوار مشهد السيدة زينب رضى الله عنها اه

أقول : وبيت أيوب بك هوحوش أيوب بك الموجودللآن تجاه مسجد لاجين السيفى الملاصق للحوض المرصود .

وقال : وفى سنة ١٢١٩ شرعوا فى عمل الكسوة بيدالسيدأحمد المحروقى فقيد بها وكيله ، وشرعوا فى عملها فى بيت « الملا » بحارة المقاصيص . اه

أقول :وبيت الملا هذا هورقم ٣ تنظيم بزقاق الخشيبةبشارع المقاصيص أدخل جزء منه ضمن الآثار العربية تحت رقم ٣٩٧

وأصله منزل من انشاء الأمير « بيبرس الحاجب » أحـــدأمراء الملك الناصر محمد بن قلاون ، مات سنة ٧٤٣

وقد آل الى الأمير «محمد بن طوران» فجدد به أبنية ومقعدا كتب على ازار سقفه بعد الآية القرآنية مانصه : « أنشأ هذا المكان المبارك من فضل الله تعالى الأمير محمد بن طوران فى سنة خمسة وستين وألف »

ثم آل أخيرا إلى وقف الملا

قال على باشا مبارك بشأنه ماملخصه : وهـذه الدار باقية إلى الآن على

---

(١) راجع تاريخ قلعة الجبل بمصر للمؤلف ، وسيظهر قريبا إن شاء الله

أصلها تجاه من يسلك من ناحية باب سر المارستان المنصورى طالبا سوق الصيارفة أو المقاصيص

ويوجد بهذه الدار إلى اليوم مقعد وقاعة أرضية كبيرة ذات إيوانين بينهما دور قاعة . . وهى متشعثة متخربة .

واشتهرت هذه الدار مدة بدار «المراحينى» الاسرائيلى سكنها مدة طويلة ثم لما دخلت فى وقف الملا عرفت بدار الملا فهى إلى الآن تعرف بدار الملا . اه ٢٢ حـ ٢ خطط توفيقية

الاشهاد الشرعى (١)

بتسليم الكسوة الشريفة

هذا نص إشهاد شرعى حرر فى سنة ١٣٢١ هـ بمحكمة مصر الكبرى الشرعية فى يوم الثلاثاء ١٥ ذى القعدة سنة ١٣٢١ الموافق ٢ فبراير سنة ١٩٠٤ اذن فضيلتلو قاضى أفندى مصر حالا لحضرة الشيخ محمد ناجى أحد أعضاء المحكمة المذكورة بسماع ما يأتى ذكره فيه ، ولكاتبيه هما الشيخ محمد سعيد و محمد مصطفى افندى الكاتب كلاهما بالمحكمة المذكورة بكتابة ما يأتى ذكره فيه ، فلدى حضرة العضو المومى إليه بحضور الكاتبين المذكورين بالمجلس المنعقد بمسجد سيدنا ومولانا الامام أبى عبد الله الحسين رضى الله تعالى عنه الكائن بمصر المحروسة بالقرب من خان الخليلى والجامع الأزهر

---

(١) جرت العادة أن يكتب اشهاد شرعى بتسلم الكسوة من مأمور تشغيلها الى المحملى (من فى عهدته المحمل والكسوة) ليوصلها الى البيت الحرام ، ويذكر فى هذا الاشهاد اجزاء الكسوة ومادتها وأوصافها ، وهو أثر تاريخى ، وهى لاتختلف فى سنة عنها فى أخرى الا فى جودة ما تصنع منه

بقسم الجمالية فى الساعة العاشرة صباحا من اليوم المرقوم أشهد على نفسه
الحاج محمد احمد المحاملى الساكن بالدرب الأصفر بالقسم المذكور ابن المرحوم
احمد مصطفى بن مصطفى شهوده الأشهاد الشرعى وهو بأكمل الأوصاف
المعتبرة شرعا أنه قبض واستلم واستوفى ووصل إليه من حضرة عبدالله فائق بك
مأمور تشغيل الكسوة الشريفة حالا الساكن بشارع المحجر بقسم الخليفة
بمصر ابن المرحوم اسماعيل بك الحاضر هو معه بهذا المجلس جميع كسوة
بيت الله الحرام المشتملة على ٨ أحزمه و ٤ رنوك مركبة على حملين من الثمانية
أحمال الآتى ذكرها فيه ؛ مزركشة الثمانية أحزمة والأربعة رنوك بالمخيش
الأبيض والأصفر المطلى بالبندقى الأحمر على الحرير الأسود والأطلس الحرير
الأخضر المبطن بالبفت الأبيض والنوار القطن المركبات الثمانية أحزمة
المذكورة على ثمانية أحمال حرير أسود مكتوب ومبطن بالبفت الأبيض والنوار
القطن ، اثنان من الثمانية أحمال المذكورة كل منهما تسعة أثواب ، كل ثوب
منها طوله ٢٦ ذراعا بالذراع البلدى طول كل ذراع منها ٥٧ . متر وكسر ،
واثنان من الثمانية أحمال المذكورة ، كل منهما ٨ أثواب من الأثواب المذكورة
والأربعة أحمال باقى الثمانية أحمال المذكورة اثنان منها سبعة أثواب ونصف
من الأثواب المذكورة ، والاثنان الباقيان كل منهما ستة أثواب ونصف من
الأثواب المذكورة . وستارة لبيت الله الحرام المعبر عنها بالبرقع المزركشة
بالمخيش الأبيض والأصفر المطلى بالبندقى الأحمر على الحرير الأسود والأطلس
الحرير الأخضر والاحمر المبطنة بالبفت الابيض والنوار القطن والاطلس
الحرير الاخضر بها خمسة شراريب حرير أسود وقصب وكنتير ومخيش وستة
أذررة (كذا) فضة مطلية بالبندقى الاحمر ، و١٢ شرابة صغيرة حرير أحمر
وقصب وكنتير ، و١٢ شمسية مزركشة على الحرير الاحمر . وكسوة مقام
سيدنا ومولانا ابراهيم خليل الرحمن عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم
المبطنة بالبفت الأبيض المزركشة بالمخيش الابيض والاصفر المطلى بالبندقى

الاحمر على الحرير الاسود والأطلس الحرير الاخضر والاحمر بها أربعة شراريب حرير أسود وقصب وكنتير ومخيش وعشر شمسيات مزركشة بالمخيش الابيض والاصفر المطلى بالبندق الأحمر بها سجق قطن شبكة بقيطان قطن وأزررة شراريب من قطن هندى أحمر وأصفر وبها ترتر أحمر .

وكيس مفتاح بيت الله الحرام المزركش بالمخيش الأصفر المطلى بالبندق الأحمر على الأطلس الحرير الأخضر به ترتر ملون وكنتير أصفر مبطن بالأطلس الحرير الأخضر به شرابتان قصب وكنتير وقيطان قصب .

وستارة باب سطح بيت الله الحرام المعروف بباب التوبة داخل بيت الله الحرام المزركشة بالمخيش الأبيض والأصفر المطلى بالبندق الأحمر على الحرير الأسود والأطلس الأخضر والأحمر المبطنة بالبفت الأبيض والنوار القطن والأطلس الحرير الأخضر بها ترتر .

وستارة باب مقصورة سيدنا ومولانا ابراهيم الخليل المشار إليه المزركشة بالمخيش الأبيض والأصفر المطلى بالبندق الأحمر على الحرير الأسود والأخضر والأحمر . بها خمسة أزررة فضة مطلية بالبندق الأحمر وعشر شمسيات مزركشة بالمخيش الأبيض والأصفر على الأطلس الحرير الأحمر ، بها عشرة شراريب صغيرة حرير وقصب المبطنة بالبفت الأبيض والأطلس الحرير الأخضر .

وستارة باب منبر الحرم الشريف المكى المزركشة بالمخيش الأبيض والأصفر المطلى بالبندق الأحمر على الحرير الأسود والأخضر المبطنة بالبفت الأبيض والنوار القطن والأطلس الحرير الأخضر

وثلاثة مجاديل — أى حبال قطن — احتياج تعليق الكسوة الشريفة على بيت الله الحرام .

وإحدى وأربعين عصفورة — أى حبل قطن مجدول — احتياج الحلق

وغلايتين من النحاس مغطاتين مملوتين بماء الورد الباش احتياج غسيل بيت الله الحرام . حسب المعتاد قبضا وتسلما واستيفاء ووصولا شرعيات ، حسب اعتراف المشهد المذكور بذلك يوم تاريخه بهذا المجلس ، بحضور كل من سعادة ابراهيم رفعت باشا امير الحج الشريف ، وحضرة احمد زكى بك مدير الأموال المقررة بنظارة المالية المصرية حالا ، وأمين الصرة فى هذا العام ، وحضرة السيد محمود البيلاوى شيخ مسجد ومقام سيدنا ومولانا أبى عبدالله الحسين رضى الله تبارك وتعالى عنه ، ومحمد عمر افندى الكاتب وأمين مخزن مصلحة الكسوة

العارف كل منهم للمشهد المذكور عينا واسما ونسبا وانه الحاضر بهذا المجلس واتصافه بالأوصاف المعتبرة شرعا

وعلى المشهد المذكور الخروج من عهدة ذلك جميعه وتسليمه من له ولاية ذلك بمكة المشرفة حسب المعتاد فى ذلك .

صدر ذلك بحضور وشهادة من ذكر أعلاه فى يوم الأربعاء سادس عشر القعدة الموافق ثالث فبراير المرقوم . اه

ويعطى لمحرر الأشهاد الذى ينتدبه القاضى ثلاث جنيهات ومائتين وثمانين مليما ، منها ٨٨٠ مليما نقدية ، ومائة وأربعين قرشاً ثمن فروة ٢ و ١٠٠ قرش ثمن فرجية جوخ . اه ص ٦ مرآة الحرمين

الكسوة العتيقة

وجواز بيعها وشرائها

كان « عمر بن الخطاب رضى الله عنه » ينزع كسوة الكعبة كل سنة ويستبدل بها جديدة ، ويقسم الأولى بين الحجاج .

وقد أمر « معاوية بن أبى سفيان » « شيبة بن عثمان » أن يجرد الكعبة عن الكساوى القديمة ويلبسها ماجهزه لها . فقسم « شيبة » الثياب التى كانت عليها بين أهل مكة . وقد كان « عبدالله بن عباس » حاضراهذه القسمة فما أنكرها ولا كرهها .

وقد صار ذلك عادة استمرت من ذلك الوقت حيث صار بنو شيبة يداومون على أخذ الكسوة العتيقة كل سنةوالتصرف فيها بالبيع ، أو الاهداء ليتبرك بها الناس .

وقد رأى « شيبة » شيئا من هذه الكسوة على امرأة حائض ، فأنكر ذلك . وذهب إلى أم المؤمنين « عائشة » رضى الله عنها وقال لها : « تكثر ثياب الكعبة عليها ، فنجردها عن خلقانها ، ونحفر لها حفرة ندفن فيها مابلى منها كيلا يلبسها الحائض والجنب » فقالت له عائشة ، : « ماأصبت فيما فعلت . فلا تعد إلى ذلك . فان ثياب الكعبة إذا نزعت عنها لايضرها من لبسها من حائض ، ولكن بعها واجعل ثمنها فى سبيل الله تعالى والمساكين وابن السبيل »

ونقل جواز البيع عن ابن عباس أيضا

وقد اختلف العلماء فى الحكم على ذلك ، فأجاز بعضهم للسلطان بيع ماخلق من الكسوة ليستعين به فى أمر الكعبة .

وقال البعض الآخر : إن كان شىء له ثمن لايجوز أخذه ، وإن لم يكن فلا بأس .

وقال نجم الدين الطرسوسى :

وما على الكعبة من لباس إن رث جاز بيعه للناس
ولايجوز أخذه بلا شرا للاغنيا لا ولا للفقرا

وقال أحدهم : « لايجوز قطع شىء من كسوة الكعبة ، ولانقله ، ولا

بيعه ، ولا شراؤه ، ولا وضعه بين أوراق المصاحف ، ومن حمل شيئا من ذلك فعليه رده ، ولا عبرة بما يتوهمه البعض من أنهم يشترون ذلك من بنى شيبة ، فانهم لا يملكونه

وقد جرت العادة بأن يأخذ بنو شيبة لأنفسهم الكسوة العتيقة ، بعد وصول الكسوة الجديدة .

وبنو شيبة هؤلاء هم سلالة « شيبة بن عثمان » ابن طلحة « وهم سدنة الكعبة ، وقد عكفوا على خدمتها بالوراثة » .

والظاهر أن الكسوة إن كانت من قبل السلطان من بيت المال ، فأمرها راجع إليه ، يعطيها لمن يشاء من الشيبيين « بنى شيبة » أو غيرهم . وإن كانت من أوقاف السلاطين وغيرهم . فأمرها راجع إلى شرط الواقف ، وإن جهل الشرط عمل فيها بما جرت به العوائد السالفة كما هو الحكم فى سائر الأوقاف

وكان أمراء مكة يأخذون من السدنة ستارة باب الكعبة فى كل سنة مع جانب كبير من كسوتها ، أو ستة آلاف درهم كاملية عوضا عن ذلك ، إلى أن رفع عنهم السيد « عنان بن مغامس » لما ولى مكة فى آخر سنة ٧٨٨ وتبعه أمراء مكة فى الغالب

ثم إن « السيد حسن بن عجلان » (١) بعد سنين من ولايته صار يأخذ منهم الستارة وكسوة المقام ، ويهديهما لمن يريد من الملوك وغيرهم .

قال ابن ظهيرة : وقد استمر الأمر كذلك من أمراء مكة بعد السيد حسن المذكور مع الحجبة إلى يومنا هذا .

وقال القلقشندى : إن سدنة البيت يأخذون الكسوة فيهادون بها الملوك وأشراف الناس . (٢)

---

(١) تولى سنة ٧٩٨ ﻫ ومكث إلى سنة ٨٠٩ ﻫ

(٢) صبح الأعشى ٢٧٦ ج ٤

وقال ابن فضل الله فى كتابه «مسالك الأبصار» وفى سنة ٧٣٨ توليت خلع الكسوة العتيقة ، وحملت الى السلطان بمصر ، لتجهز الى السلطان أبى الحسن المرينى ملك الغرب ، مع مايجهز عوض هدية بعثها فى هذه السنة صحبة «مريم» زوجة أبيه وعريف السويدى ، وجماعة من أكابر دولته ، وعوض بنو شيبة والاشراف عنها من بيت المال بمصر اه

وقال السمهودى فى كتابه «وفاء الوفاء» ص ٤١٦

وعادتهم اذا وردت كسوة جديدة قسم شيخ الخدام الكسوة العتيقة على الخدام ومن يراه من غيرهم ، ويحمل الى السلطان بمصر منها جانبا .

وحكم بيع كسوة الحجرة الشريفة (النبوية) كحكم بيع كسوة الكعبة .

وقال الحافظ صلاح الدين خليل العلائى : انه لايتردد فى جواز بيع الكسوة ، لأن وقف الامام للضيعة على الكسوة كان بعد استقرار هذه العادة والعلم بها ، فينزل لفظ الواقف عليها . اه

وجاء فى رد المحتار على الدر المختار على متن تنوير الأبصار للعلامة ابن عابدين (حـ ٢ ص ٣٥١) : ولا يجوز شراء الكسوة من بنى شيبة ، بل من الامام أو نائبه ، وله لبسها ولو جنباً أو حائضاً ان كانت من غير الحرير ولم تكن عليها كتابة لاسيما كلمة التوحيد . اه

تم الجزء الاول

فهرست الكتاب

ص الموضوع

ص الموضوع



Elmer Holmes
Bobst Library

New York
University

Gaston Wiet
Collection










Elmer Holmes
Bobst Library

New York
University

